مذكرات

الدكتور معروف الدواليبي

إعــداد
د/ عبد القدوس أبو صالح

تحرير
د/ محمد علي الهاشمي

مكتبة العبيكان

مذكّرات
الدكتور معروف الدواليبي

إعداد

الدكتور/عبدالقدوس أبو صالح

تحرير

الدكتور/محمد علي الهاشمي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أبو صالح،عبدالقدوس

مذكرات الدكتور معروف الدواليبي. / عبدالقدوس أبوصالح. ـ الرياض ١٤٢٦هـ.

٢٦٣ص، ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ١-٦٩١-٤٠-٩٩٦٠

١- الدواليبي، معروف ـ مذكرات أ- العنوان

ديوي ٩٢٣,٢٥٦٥ ٣٦٦ / ١٤٢٦

ردمك: ١-٦٩١-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٣٦٦ / ٢٦

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ /٢٠٠٥م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩



المقدمة

هذه مذكرات سياسي كبير من رجالات سورية المعروفين في العالم العربي والإسلامي، هو دولة الدكتور معروف الدواليبي، أدلى بها دولته استجابة لرغبة بعض إخوانه. وكان البدء في تسجيلها في ٧ شعبان ١٤٠٧هـ، الموافق ٥ من نيسان (أبريل) ١٩٨٧. وقد تم تسجيلها في جلسات كثيرة، حسب ظروف الدكتور الدواليبي وفي أثناء وجوده في مدينة الرياض التي كان يغادرها كثيراً، وكانت آخر جلسة للتسجيل في ١٧ من جمادى الآخرة ١٤١٤هـ، الموافق ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) من ١٩٩٣م.

وقد أجاب الدكتور الدواليبي في تلك الجلسات على أسئلة محدّدة، وجَهها إليه الدكتور عبدالقدوس أبو صالح عندما كان أستاذاً بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وذلك طبقاً لمخطط مدروس أعدّه وعرضه على الدكتور الدواليبي.

وقد استوعب هذا المخطط مراحل حياة الدكتور معروف منذ نشأته حتى آخر جلسة سجلت فيها هذه المذكرات، ثم فُرِّغَتْ أشرطة التسجيل، وقام الدكتور محمد علي الهاشمي الأستاذ بجامعة الإمام ثم كلية الآداب للبنات في الرياض سابقاً بتحريرها، وتمت مراجعتها مع الدكتور عبدالقدوس حتى جاءت على الشكل الذي نقدمها فيه إلى القراء.

تقع هذه المذكرات في قسمين: القسم الأول، ويشتمل على الفترة الزمنية الأولى من حياة دولة الدكتور معروف الدواليبي التي أمضاها في بلده سورية، أو مسافراً إلى ديار الغرب، وأسميناها المرحلة السورية. والقسم الثاني: ويشتمل على الفترة

الزمنية الثانية التي أمضاها في المملكة العربية السعودية، وأسميناها المرحلة السعودية.

وكل قسم من هذين القسمين يشتمل على مراحل متعددة.

القسم الأول: ويتضمن المراحل التالية:

١- أسرة الدكتور الدواليبي ونشأته في مدينة حلب.
٢- الدكتور الدواليبي والكتلة الوطنية.
٣- سفره إلى باريس طلباً للعلم، وما رافق ذلك السفر من نضال.
٤- سفره إلى ألمانيا.
٥- عودته من باريس إلى سورية بعد الانتهاء من دراسته.
٦- مراحل النضال التي امتدت إلى مرحلة إعلان الاستقلال المبدئي عام ١٩٣٦.
٧- مرحلة الاستقلال الحقيقي الذي تم بجلاء الفرنسيين عن سورية عام ١٩٤٦.
٨- ما قام به دولته من أعمال في المجالس النيابية، وفي الوزارات التي تسنّمها.
٩- استلامه رئاسة مجلس الوزراء السوري في مرحلتين:
أ - في عام ١٩٥١.
ب - في عام ١٩٦١.
١٠ - شهادته وآراؤه في موضوع الانقلابات العسكرية التي توالت على سورية، ومعلوماته عن كثير من خفاياها.

القسم الثاني: ويشتمل على المراحل التالية:

١- المرحلة الأولى التي كان اتصاله فيها بجلالة الملك فيصل رحمه الله.
٢- المرحلة الثانية التي كان اتصاله فيها بجلالة الملك خالد رحمه الله.
٣- المرحلة الثالثة التي كان اتصاله فيها بخادم الحرمين الشريفين الملك فهد حفظه الله.

ترجمة موجزة عن حياة دولة الدكتور معروف الدواليبي

١- **اسمه ومولده ونشأته العلمية:**

اسمه: محمد معروف الدواليبي، ولد في مدينة حلب في ١٩٠٩/٣/٢٩م، ونشأ فيها، حيث أكمل تعليمه الابتدائي والثانوي، فحصل على شهادة في الشريعة والعلوم الإسلامية من (المدرسة الخسروية) في حلب. ثم حصل على (الليسانس) في الحقوق و(الليسانس) في الآداب من جامعة دمشق، ثم سافر إلى فرنسا فحصل فيها على دبلوم في الدراسات العليا في الحقوق الرومانية، وعلى الدكتوراه في الحقوق، وعلى دبلوم في الحقوق الكنسية من جامعة باريس.

٢- **عمله العلمي:** عمل أستاذاً في كلية الحقوق بدمشق، ورئيساً لقسم تاريخ القانون والحقوق الرومانية في الكلية نفسها، وأستاذاً في كلية الشريعة بجامعة دمشق.

٣- **مؤلفاته:**

١- المدخل إلى علم أصول الفقه.

٢- المدخل إلى السنة وعلومها.

٣- الاجتهاد في الحقوق الإسلامية (باللغة الفرنسية).

٤- الإسلام أمام الاشتراكية والرأسمالية (بالعربية والإنكليزية).

٥- نظرات إسلامية في الاشتراكية الثورية.

٦- المدخل إلى التاريخ العام للقانون.

٧- الوجيز في الحقوق الرومانية.

٨- دراسات تاريخية عن مهد العرب وحضارتهم الإنسانية.

٩- قلعة طروادة التاريخية.
١٠- نظريات النقد الأدبي عند العرب.
١١- القومية العربية في حقيقتها.
١٢- (نظرات إسلامية) في عدة أبحاث حول الخطوط الكبرى للشريعة، حول العبادة، وأنهَا ضرورة حيوية علمية.
١٣- موقف الإسلام من العلم، وحقوق المرأة في الإسلام.
١٤- من هم الأريسيون؟
١٥- الدولة والسلطة.

٤- **عمله السياسي:** نائب حلب في مجلس النواب السوري منذ ١٩٤٧م حتى ١٩٦٣م، وزير الاقتصاد الوطني في سنة ١٩٥٠م، رئيس مجلس النواب في سنة ١٩٥١م، رئيس الوزراء ووزير الدفاع في أواخر عام ١٩٥١م، وزير الدفاع الوطني في عام ١٩٥٤، رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية في أواخر عام ١٩٦١م وأوائل ١٩٦٢م، ضيف المملكة العربية السعودية ومستشار في الديوان الملكي منذ عام ١٩٦٥م.

٥- **المؤتمرات التي ساهم فيها:** رئيس مؤتمر العالم الإسلامي منذ سنة ١٩٧٥م، وهو مؤتمر مسَجَّل لدى الأمم المتحدة بصفته هيئة مراقبة دولية واجتماعية. رئيس وفد سوريا الحكومي إلى حلقة الدراسات العربية والاجتماعية الدولية عام ١٩٥٠م. ممثل جامعة دمشق في مؤتمر أسبوع الفقه الإسلامي الدولي عام ١٩٥١م في باريس، بدعوة من مؤسسة الحقوق الدولية المقارنة في (لاهاي) عضو المؤتمر العام الأول لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة عام ١٩٦٥م. رئيس وفد الشعوب العربية في المؤتمر الأول للشعوب الإفريقية والآسيوية في نيودلهي عام ١٩٥٥م، عضو في الوفد السوري الحكومي إلى المؤتمر الأول

الدولي لدول عدم الانحياز في: (باندونغ): (أندونيسيا) عام ١٩٥٥م، عضو في الندوات العلمية الدولية، حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان في الإسلام، المعقودة أولاً في الرياض، ثم في باريس، ثم في الفاتيكان، ثم في مجلس الكنائس العالمي في جنيف، ثم في مجلس وزراء الوحدة الأوروبية في ستراتسبورغ منذ عام ١٩٧٣م حتى أواخر عام ١٩٧٤م. عضو في مؤتمر رسالة المسجد الدولي في مكة المكرمة عام ١٣٩٥هـ الموافق ١٩٧٥م، عضو في المجلس الأعلى العالمي الدولي للمساجد في مكة المكرمة منذ عام ١٣٩٥هـ الموافق ١٩٧٥م. عضو مراقب في مؤتمر وزراء الخارجية الإسلامي. رئيس منظمة (الإسلام والغرب) الدولية، ومركزها (جنيف) سويسرا منذ عام ١٩٧٩م حتى نهاية شهر آب عام ١٩٨٤. رئيس المجلس التنفيذي للمؤتمر الإسلامي العالمي الشعبي في بغداد منذ ١٩٨٦م.

٦- **تحقيقاته العلمية - بحوث كثيرة منها:**

١- قلعة طروادة التاريخية مدينة فينيقية، وصِلَتُها بالهجرات العربية القديمة إلى أوروبة، وخاصة إلى اليونان، وإيطاليا وفرنسة.

٢- دراسات تاريخية عن مهد العرب وحضاراتهم الإنسانية قبل اليونان والرومان...

٣- العرب والسيد المسيح - في عهد دولة الأباجرة وملكهم أبجر الخامس المعاصر للمسيح عليه السلام، وذكر فيه أنهم أول من حملوا رسالة المسيح الحقيقية خلال ثلاثة قرون، حتى قضت عليهم دولة بيزانس الرومية قبل إنشائها (الكاثوليكية) في عهد قسطنطين، في مطالع القرن الرابع للميلاد.

٤- من هم الأريسيُّون في الحديث الشريف خطاب لهرقل، جاء فيه: «أسلم تسلم، وإلاَّ فعليك إثم الأريسيين».

٥- من هم الفلسطينيُّون في التاريخ العربي، وما معنى هذه الكلمة في اللغة العربية الكنعانية القديمة؟

٦- مذكرة حكومة المملكة العربية السعودية حول: (الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان في الإسلام) الموجهة إلى دوائر الأمم المتحدة، رداً على من ينكر حقوق الإنسان في الإسلام.

٧- خمس (ندوات علمية حول الشريعة الإسلامية وحقوق الإنسان في الإسلام)، شرحاً لمذكرة حكومة المملكة أعلاه، في كل من الرياض، وباريس، والفاتيكان، ومجلس الكنائس العالمي في جنيف، ومجلس الوزراء الأوروبي في ستراتسبورغ؛ وجرى النقاش في هذه الندوات ما بين فريق من كبار علماء المملكة، وآخرين من كبار رجال الفكر والقانون في أوروبة.

٨- (موقف الإسلام من العلم وأثر الرسالة الإسلامية في الحضارة الإنسانية) بحث أُلقي في المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، سنة ١٤٠٠هـ الموافق ١٩٧٩م في دولة قطر.

٩- (الإسلام والمشكلات الإنسانية) بحث ألقي في مؤتمر عالمي، سنة ١٩٨٠م في قبرص التركية، وفيه حوار مع الدولتين الكبريين السوفييت والولايات المتحدة الأمريكية، سنة ١٩٨٠م حول القضايا الإسلامية.

١٠- (الدولة والسلطة في الإسلام) بحث ألقي في الندوة الدولية في اليونيسكو في باريس عام ١٩٨٢، رداً على من أنكر مفهوم الدولة في الإسلام.

١١- (التصور العام للشريعة في الإسلام مقارنة بالشرائع القديمة والحديثة). بحث ألقي في مؤتمر الفقه الإسلامي في معهد القانون المقارن بطوكيو في أكبر جامعة في اليابان: (جامعة تشو - أو) سنة ١٣٩٧هـ الموافق ١٩٧٧م.





القسم الأول

المرحلة السورية

المرحلة السورية

١- أسرة الدكتور الدواليبي ونشأته في حلب

أجاب الدكتور الدواليبي عندما سئل عن أسرته ونشأته بأنه عَلِمَ من أبيه ومن جده أن هذه الأسرة (آل الدواليبي) ينتهي نسبها إلى الصحابي اليماني فَيرُوز الديلمي، الذي وفد على النبي ﷺ وروى عنه أحاديث، وامتدت حياته إلى زمن معاوية، وولاه على صنعاء، فأقام فيها حتى وفاته سنة ٥٣هـ.

ثم تحدث دولته عن المرحلة الابتدائية من تعلّمه، فذكر أنه كان تلميذاً في المدرسة الأتابكية في حلب، ثم انتقل منها إلى المدرسة الشرقية.

أما دراسته الثانية، فقد بدأها بدخوله مدرسة الفريرات، وهي من المدارس الأجنبية الفرنسية المنشأة في سورية، فدرس فيها سنة كاملة، انتقل بعدها إلى الثانوية الشرعية التي سميت فيما بعد بالمدرسة (الخسروية)، نسبة إلى الوالي العثماني (خسرو باشا).

وقد افتُتِح الصف الأول في هذه الثانوية في مسجد الإسماعيلية بجوار بلدية حلب، دار الحكومة القديمة.

س ـ هل كنتم من أوائل المنتسبين إلى هذه الثانوية؟

= نعم، كنت من أوائل المنتسبين إلى هذه الثانوية التي انتقلت بعد ذلك إلى جانب قلعة حلب.

س ـ هل كان اسمها في ذلك الحِين (الخسروية) من أول يوم؟

= لا، لم يكن اسمها (الخسروية). لقد ابتدأ التدريس فيها في مسجد الإسماعيلية كما أسلفت.

ولما تتابع افتتاح الفصول فيها ضاق المسجد عن استيعابها، وتم انتقال الثانوية إلى جانب قلعة حلب، وأُطلِق عليها اسم (الخسروية).

٢- الدكتور الدواليبي والكتلة الوطنية

س ـ ننتقل الآن إلى الحديث عن الكتلة الوطنية: تأسيسها وأول رئيس لها.

= كانت الكتلة الوطنية هيئة مرخصة من الحكومة في شكل حزب رسمي، مع وجود الانتداب، وكان أول رئيس لها فخامة هاشم الأتاسي قبل تسلمه رئاسة الجمهورية.

س ـ من المعروف أن فرنسا قامت سنة ١٩٢٥ بتقسيم سورية إلى دويلات متعددة ولكن محاولتها هذه باءت بالإخفاق، فما سبب الإخفاق؟

= سبب الإخفاق الانتفاضات الشعبية التي قامت في سورية، وبخاصة في حلب التي فُصِلت عن دمشق تحت اسم حكومة حلب، فقد انطلقت فيها مظاهرة من أكبر المظاهرات التي شهدتها سورية ومن أشدها، فكانت القاضية على مشروع الدويلات من أساسه.

س ـ كم طال مشروع الدويلات؟

= لا أستطيع تحديد المدة التي استمر فيها هذا المشروع، ولكن الذي أذكره أن الإعلان عن هذا المشروع ما إن وصل إلى الأسماع حتى تفجرت المظاهرات في سورية، وبخاصة حلب، وقد اشترك في المظاهرة الكبيرة كبار العلماء والطلاب، وكان كثير من المتظاهرين يحملون السلاح، وقد قوبلت المظاهرة

بالمدفعية وبالرصاص، واستطاع الزعيم إبراهيم هنانو أن يفلت من قبضة الفرنسيين وينسحب إلى منطقة الثورة في جبل الزاوية، وكان هو الوحيد من قادة الكتلة الوطنية الذي استطاع الإفلات، وبدأت الصحف تعلن عن تجمعات الثوّار وأخبارهم في كل يوم، فأُسقط في يد الفرنسيين وأخذوا يتراجعون عن مخططاتهم ومشروعهم بتقسيم سورية إلى دويلات.

س ـ تحدثم عن الزعيم إبراهيم هنانو، وعن وفاته سنة ١٩٣٥، وأن ممن اشتركوا في تأبينه إسعاف النشاشيبي الزعيم الفلسطيني المجاهد، ثم تحدثتم عن إنشاء الحزب الوطني وما تبع ذلك من أحداث، فهل كان يسمى الحزب الوطني من أول يوم؟

= لقد سمنياه الحزب الوطني من أول يوم، ثم حدث تحرّكٌ في دمشق على غرار تحركنا في حلب في تجمّع أطلقوا عليه اسم (القمصان الحديدية)، وعندئذ وحّدنا الأسماء والتحركات ما بين دمشق وحلب تحت اسم (القمصان الحديدية)، وكان بين التحركات جميعاً انسجام وتنسيق، انطلقت بقواها وفعالياتها وبالأعداد الكبيرة التي انضمت إليها مقبلة على الإعداد والتدريب وبخاصة في حلب، بشكل يقلق السلطات الفرنسية، وهكذا نشأت الحركة الوطنية في ظل مقاومة المستعمر الفرنسي.

ولما توفي الزعيم إبراهيم هنانو، حُدِّد يوم تأبينه في اليوم الأربعين من يوم وفاته، ووجهت الدعوات إلى قادة النضال في العالم العربي في كل من بغداد ومصر والأردن وفلسطين، وكان يوماً مشهوداً، حضره الزعماء الذين جاؤوا للتأبين، الذي أقيم في مدرج جامعة دمشق، وكانت تسمى الجامعة السورية، وبإذن رسمي، إذ كان الحزب مرخصاً، والحركة الوطنية مرخصة.

وشُنّت في حفلة التأبين هذه حملات شديدة على فرنسا، ولا سيما حملة المرحوم إسعاف النشاشيبي الذي كان من خيرة الأدباء ومن أبرز القيادات التحريرية في فلسطين، مما حمل فرنسا على أن تعلن حل الكتلة الوطنية وإغلاق مكاتبها.

هنالك قررت الكتلة الوطنية المقاومة، ودعت الشعب إلى الإضراب، فهدد المفوض السامي الكتلة الوطنية باعتقال رجالها إذا لم يسارعوا إلى إنهاء الإضراب خلال ثلاثة أيام من بدئه.

اجتمعت قيادة الكتلة برئاسة هاشم الأتاسي، وقررت إنهاء الإضراب في صباح اليوم الرابع، وتبلغتُ القرار من هاشم الأتاسي رحمه الله، إذ أرسل إليّ رسولاً هو محمد السراج في اليوم الثالث يقول بضرورة إنهاء الإضراب وفتح المتاجر والاكتفاء بما جرى؛ لأن الإضراب كان رمزياً.

وكان موقفي أن نستمر في الإضراب إذا لم تجب البلاد إلى مطالبها في التحرر، وكنا مع محمد السراج في مأزق محيّر، وهو من الشباب القادمين من الدراسة حديثاً من أوروبا، ومن الذين انضموا إلى الكتلة الوطنية وأصبح رسول هاشم الأتاسي الذي يحمل المقررات لتبليغها.

واتصل بي سعدالله الجابري أيضاً طالباً تنفيذ المقررات، ولكنني أصررت على موقفي، وقلت: إننا نحن الشباب لن نسمح بفتح المتاجر وإنهاء الإضراب وخرجنا سريعاً، وسُلّم التبليغ إلى سعدالله الجابري الذي دعا أعضاء الكتلة إلى اجتماع في حلب.

س ـ هل كان الاجتماع في بيته؟

= لا أذكر، ولكن الاجتماع تم وأبلغهم قرار القيادة، أما الإضراب فلم ينته، ولم

تفتح المتاجر أبوابها في صباح اليوم الرابع في حلب. واستمر الإضراب في أنحاء سورية جميعها، تضامناً مع حلب التي استمرت في الإضراب.

ودعاني سعدالله الجابري مع أحد أولاد الجابري المشاركين في حركة النضال إلى لقاء في منزل الشيخ عبدالحميد الجابري المسمى (قناق عبدالحميد الجابري) حيث كان ملتقى الحي، وقد كان هذا الملتقى عادة قديمة، إذ يجتمع الناس في كل يوم صباحاً ومساءً في هذا (القناق)، وكان في منطقة حي (السويقة) الذي هو مدخل الأسواق التجارية في مدينة حلب.

وخرجت وسعدالله الجابري إلى الأسواق، والناس مضربون، ومع أن النداء وُجِّه إليهم بإنهاء الإضراب لم يستجيبوا؛ لأننا نحن الشباب حذرناهم من فتح متاجرهم.

ولما خرج سعدالله الجابري خرجنا معه من بيت المرحوم عبدالحميد الجابري وكان يمشي أمامنا ونحن نمشي خلفه احتراماً له، والناس في الأسواق واقفون أمام أبواب دكاكينهم، فكان يقول: يا إخوان افتحوا دكاكينكم، ونحن وراءه نقول لهم بالإشارة: لا تفتحوا.

وانتقلنا بعد ذلك من حي (السويقة) إلى سوق الصابون فسوق العطارين وغيره من أسواق المدينة المختلفة، وهذه الأسواق منظمة مصممة بشكل لا تدخلها الشمس ولا تتعرض للمطر، كل سوق مخصص لنوع من أنواع التجارة، فهناك سوق العطارين وسوق الصاغة وسوق الحبال وسوق العِبي أي (العباءات) وغيرها، وقد صممت تصميماً يشبه (السوبر ماركيت) الكبير جداً، ولها بضعة مداخل وأبواب، لا تدخلها السيارات، ومن أبوابها باب القلعة وباب المقام وباب قنسرين، وهذه الأسواق كلها تقع في حي أُطلِق عليه اسم حي (المدينة)، وتعدّ

من أبدع ما خطّطته يد التجارة العالمية. طاف سعدالله الجابري هذه الأسواق جميعها، ونحن معه، حاضّاً الناس على فتح متاجرهم، فلم يستجب له أحد، فقلنا له: أرأيت إرادة الشعب؟ كنا نحن الشباب نقول: لا، علناً. أما رجال الكتلة الوطنية فقد دعوا إلى إنهاء الإضراب، وقام سعدالله الجابري بنفسه بالتبليغ، ومع ذلك اعتقلت السلطات الفرنسية كل رجال الكتلة الوطنية في حلب وفي مقدمتهم سعدالله الجابري، وبذلك أصبح من الواجب علينا معشر الشباب أن نقوم بعمل، وكنتُ من أكثر الشباب اتصالاً بإبراهيم هنانو وسعدالله الجابري.

كان علينا أن نبذل جهدنا في سبيل الإفراج عنهم، ولا يجوز أن نتهاون في أمرهم، وكلهم مسنّون، لا يتحملون ما يتحمله الشباب، ولابد من أن نقوم بحدث جديد كل يوم يقض مضجع السلطة.

أذكر أن أول شيء فعلته هو تنظيم فئة مؤلفة من (١٥) شخصاً، معظمهم من الخطباء، كنت ألتقي بهم كل ليلة بعد منتصف الليل، فنخطّط ما نودّ فعله في اليوم التالي، بحيث يكون كل يوم حدث جديد، وتنبيهات وتعليمات تبلّغ للأحياء بعد منتصف الليل.

وأذكر أن أول قرار اتخذناه مقاطعة الشركات الفرنسية، وأولها شركة الكهرباء، واستجاب الناس، فإذاهم يلجؤون إلى وسائل الإنارة القديمة القائمة على الكاز والبترول، وإذا بآلاف الطلبات تُقدَّم برفض الاشتراك بالكهرباء، وكان ذلك مثار دهشة لدى الفرنسيين، إذ ما كانوا يتوقعون أن يكون الشعب السوري بهذه العقلية الواعية وهذا التجاوب النادر لمقتضيات النضال.

وفي اليوم السادس طلعنا على الشعب بقرار مقاطعة عربات الترام، فلا يجوز لأحد أن يركبها، بل يجب تحطيمها، وأخذ الناس يقذفونها بالحجارة،

وكنت ترى الناس يمشون مسافات طويلة، ولا يركب أحد منهم عربة الترام.

وهكذا كنا نخرج كل يوم بقرار وتعليمات جديدة، ونبلغها الشعب بعد منتصف الليل، ليكون الناس على علم بالمشروع اليومي الذي يقلق السلطة.

وكنا نلقي كل يوم خطاباً في المسجد الأموي الكبير، وكانت الخطب على أشدها ناريّة مثيرة، ولا يتقدم للخطابة أكثر من واحد حتى لا يُعرَف الباقون، فإذا ما اعتقل الأول وكان هو معروف الدواليبي كما هو مقرر، يظهر الذي يليه في الترتيب، وهكذا حتى يصل التسلسل إلى الخامس عشر، وهو تسلسل لا تعرفه إلا اللجنة المنظمة. وهكذا استمرت الأحداث، في كل يوم حدث.

كان بعض المسيحيين واقعين تحت تأثير السلطة الفرنسية؛ ولذلك كانوا بعيدين عن المشاركة في الإضرابات، ومع ذلك نظّمنا حركة مع الشباب المسيحي المتعاون معنا، وقمنا بتوزيع نشرات في جميع الكنائس باسم الشباب المسيحي تدعو الطائفة المسيحية أن لا تكون منفصلة عن حركة النضال، وكان وجود المسيحيين مشتركين معنا في حلب، أما في دمشق التي فيها فارس الخوري فقد تأخرت مشاركة المسيحيين في الكتلة الوطنية؛ ولذلك جاء توزيع النشرات في جميع الكنائس بمثابة تهديدٍ من الشباب المسيحي أقلق كهنوت الكنيسة، وحثَّهم على السير في طريق قيادة النضال كما يفعل علماء المسلمين.

ووجدنا بعد مدّة أنه لا بد من الانتقال من المقاطعة إلى المقاومة المسلّحة، وذلك بتهيئة وإعداد مسلّحين، فاستدعينا عدداً من المحكومين بالإعدام الفارين إلى تركية بتهمة الاشتراك في ثورة هنانو، وجهزناهم بالأسلحة اللازمة، وابتدأنا بمهاجمة مخافر الشرطة، وكنا نهاجم مخفراً في غرب حلب مثلاً

وننتزع من رجاله أسلحتهم، فتأتي السلطة الفرنسية مسرعة بقواها، حتى إذا وصلت إلى غرب حلب نكون قد هاجمنا مخفراً في شرقيّ حلب وانتزعنا أسلحته، وبعد أيام ننتقل إلى جهات أخرى، وبذلك وجد الفرنسيون أن المدينة بدأت تنتقل من المقاطعة إلى نوع من الثورة المسلّحة المنظّمة.

ولما تجمّعت لدينا القوة قررنا مهاجمة السجن المركزي في خان استانبول، حيث زُجّ بوجوه الأحياء الشعبية فيه، وعلى رأسها زعماء الكتلة الوطنية وقياداتها، ولم يكد ينجو من قبضة الفرنسيين أحد، حتى والدي والحاج علي سيرجية والحاج محمد أبوصالح وغيرهم كثير.

س ـ هل كانوا كلهم في سجن خان استانبول؟

= نعم، وقد سلطوا عليهم الكلاب، وقد كان السجناء فيه في أسوأ حال؛ لأنه من أسوأ السجون، وقد خُصِّص لأصحاب السوابق من المتصدّين للفرنسيين، وكان هناك السجن المركزي أيضاً، تُحشَد فيه مئات بل آلاف من المناضلين.

وكنا نخطط لإطلاق سراح الآلاف من المعتقلين، وكما أسلفت استدعينا عدداً من المحكوم عليهم بالإعدام من المشاركين في ثورة إبراهيم هنانو، واشترينا لهم الألبسة اللازمة التي يرتديها الجنود المغاربة والأسلحة اللازمة أيضاً؛ لأن الدوريات الفرنسية كانت كلها بجنود مغاربة، ويقودها ضابط فرنسي، يمتطون جميعاً الخيول؛ لأن الشوارع ما كانت كلها تصلح لدخول السيارات. وكان ترتيبنا أن نقلد الفرنسيين في دورياتهم، فقد كانت دورية الفرنسيين تأتي في الصباح والمساء وفي الليل بشكل دائم، وكلما دخلت منطقة جرّت وراءها عدداً من المساجين، فقررنا أن نقلدهم في منتصف الليل، وذلك بأن يأتي الخمسة عشر من قادة الثورة، يحملون أسلحة خفيفة، ويجرّون

وراءهم ٢٠٠ شخص حتى يصلوا إلى باب السجن. وكانت العادة إذا وصلت هذه القافلة إلى باب السجن، يتقدمها ضابط بلباس فرنسي، يُفتَح باب السجن وكانت الخطّة في هذه اللحظة أن يشهر المناضلون أسلحتهم ويستلموا السجن. ولم نحتج إلى تنفيذ هذه الخطة بسبب سقوط الحكومة الفرنسية الراديكالية التي كانت تقمع العمل الوطني. ومما قررناه أيضاً اغتيال عدد من الشخصيات التي ماشت الاحتلال.

وقررنا أن نصدر كل يوم نشرات، وكانت تلك النشرات تقلق الفرنسيين، فاعتقلوا جميع أصحاب المطابع مع أنهم مضربون عن العمل، إلا مطبعة صغيرة لا تلفت النظر، هي مطبعة أخينا أحمد قنبر الذي كان يصدر جريدة النذير، فقد جئته وكلفته أن يصدر نشرة، فقال: يا أخي، بعدما أُغلِقَت المطابع كلها اليوم، فإن الظنّ لن يحوم إلا حولي أنا، فأقنعته بطريقة تبعد عنه الشبهة، وذلك بأن يطبع خمس نشرات بتواريخ مختلفة وبحروف مختلفة، لكل بضعة أيام نشرة تختلف بحروفها وتاريخها، ففعل ذلك، ولما وُزّعت النشرات كانت كل المطابع مضربة عن العمل، إلا مطبعة أحمد قنبر، إذ كان يصدر جريدة ويقوم بصفّ الحروف بنفسه، فحامت حوله الشبهة وقُبِض عليه، وأذكر أنني قمت بنقل تلك النشرات قبل القبض عليه بمحفظتي المدرسية، ووزعتها عند بيوت إخواننا وأصدقائنا، وفي مقدمتهم دولة الأخ رشدي الكيخيا الذي كان في مقدمة العاملين معنا، إذ كان يلتقي بالثائرين، ويقوم بجمع الأموال اللازمة، وكان من المنظور إليهم، وبيته معرّض للاقتحام والتفتيش، ولذلك حرصنا على إيجاد مخابئ لا تلفت النظر في بيته.

وبعد مهاجمة المخافر أنذر الفرنسيون المخافر أن الوضع في البلاد يسير

في طريق الثورة العامة، فاستدعوا رئيس الكتلة الوطنية هاشم الأتاسي لتهدئة الأوضاع.

وفي صباح اليوم الثاني لاستدعاء هاشم الأتاسي كنا مقرّرين اغتيال إحدى الشخصيات التي كانت تتجاوب مع القيادة الفرنسية، ولا داعي لذكر اسم تلك الشخصية، لأنه مازال له أنصار حتى الآن، ولكي لا يُساء إلى سمعة أبنائه، رحمه الله على كل حال، وغفر لنا وله.

في عصر ذلك اليوم صدر البلاغ من الجهات العليا بالاتفاق مع هاشم الأتاسي بإيقاف الإضراب، ودعوة المفوضين من قِبَل الكتلة الوطنية للذهاب إلى باريس لإعداد معاهدة قائمة على أساس الاستقلال الناجز الفوري.

س ـ هل حدث هذا في عهد حكومة الجبهة الشعبية؟

= نعم، في حكومة (ليون بلوم) الجبهة الشعبية.

س ـ ما هي الحكومة التي كانت قبل حكومة (ليون بلوم)؟

= كانت حكومة الراديكاليين والحزب الراديكالي الفرنسي أقوى الأحزاب الفرنسية. وقد سقطت الحكومة الفرنسية بسبب اشتعال المقاومة في سورية، فقد استمر الإضراب فيها خمسين يوماً، وكان له انعكاس سلبي على حكومة الراديكاليين، إذ تجمعت الأحزاب اليسارية الاشتراكية والشيوعية واستلمت الحكومة بقيادة رئيس الحزب الاشتراكي (ليون بلوم)، وأعلنت الحكومة الجديدة في اليوم نفسه استقلال سورية، ودعوة هاشم الأتاسي وتأليف الوفد المفاوض. ولذلك عدلنا عن اغتيال الشخصيات التي كنا قررنا اغتيالها بموافقة أخينا رشدي كيخيا، إذ رجانا أن نتوقف؛ لأن فرنسا خضعت لمطالبنا، ولم تعد هناك حاجة للاغتيال، وتوقفت حركة المهاجمة والاغتيالات في ليلة واحدة.

س ـ ولكن سبق اغتيال بعض الشخصيات؟

= اغتيل بعض الشخصيات المتعاونة مع فرنسا قبل حركتنا، وهذه حوادث فردية، قام بترتيبها أحمد المصري وأحد الشباب من بيت الداية في المشارقة، ولكن الاغتيالات التي تقررت في كتلتنا نحن، وعلى الأخص الخمسة عشر شخصاً، ومعنا رشدي كيخيا توقفت إثر إعلان استقلال سورية، وكان رشدي الكيخيا حكيماً، إذ أصرّ على التوقف، مع أنه كانت هناك رغبة في الاستمرار، ولكننا وقفنا عند رأي رشدي الكيخيا.

س ـ هل ذهب الوفد إلى فرنسا؟

= ذهب الوفد إلى فرنسا، ولبث ثلاثة أشهر في مفاوضات.

أما نحن فقد انتقلنا من تنظيم فئة الخمسة عشر شخصاً الذين كانوا يقودون حركة النضال إلى تنظيمات عسكرية، فجعلنا في كل حي داراً للتدريب العسكري، استعداداً للمواجهة إذا نكلت فرنسا في عهودها.

س ـ أهذا ما أُطلِق عليه اسم الحرس الحديدي؟

= في الأول أُطلِق عليه اسم الحرس الوطني، ثم اسم الحرس الحديدي؛ وذلك أن إخواننا في دمشق قاموا بترتيب وإنشاء القمصان الحديدية، ونحن بدورنا تخيّرنا اللون الحديدي، ومن هنا جاء اسم الحرس الحديدي. وقسّمنا التنظيمات إلى فئات مختلفة بتشكيلها وألبستها الوطنية؛ فهناك فرقة مسلّحة ترتدي الألبسة الحمراء، وهناك فرقة الكشافة المسلّحة، وهناك فرقة القمصان الحديدية المسلّحة، وبلغ عدد أفراد هذه الفرق في حلب وحدها عشرين ألفاً.

س ـ وهل كان هناك تدريب على السلاح؟

= كان هناك تدريب في كل ليلة في جميع الأحياء، وكانت فئة الدراجات تقوم

بتبليغ الأحياء، فتطوف عليها جميعاً، مبلغةً وجوه الأحياء التعليمات، وتتناوب فرق هذه الفئة كل اثنتي عشرة ساعة المعلومات التي تحملها بشأن التدريب. وفي كل يوم جمعة نلتقي خارج البلد، ونرتّب نزول المظاهرات التي بدأت بمئة متظاهر، ثم صارت خمس مئة، ثم بلغت الألوف. وهنا جنّ جنون الفرنسيين، وراحوا يحتلّون الأماكن التي نجري فيها التدريب، وكلما احتلوا مكاناً انتقلنا إلى مكان آخر، ولم ينقطع التدريب، والفرنسيون على علم بذلك كله.

كانت فئة الدراجات توصل وجوه الأحياء إلى أماكن التدريب، ووجوه الأحياء يعرفون الشباب الذين ينبغي أن يتجهوا إلى الجهة المعينة لهم، وهكذا استمرت الاجتماعات والتدريبات ستة أشهر في الأحياء، ولم تنقطع، بل تزايدت، ثم امتدت هذه الحركة إلى الأقضية التابعة لمحافظة حلب، وأدى هذا الامتداد إلى تدخل الجنرال (هازنجر) القائد العسكري العام في سورية ولبنان، فأبلغ حكومة فرنسا بالأخطار التي تحدق بالبلاد، وأن معروف الدواليبي قام بتنظيمات عسكرية تشبه التنظيمات النازية.

س ـ حتى فرق القمصان الحديدية شملها التدريب؟

= نعم، ولا ينقصها إلا السلاح، بعد أن أصبحت على أتم ما يمكن من التدريب، وهذا ما جعل رئيس وفد المفاوضة الفرنسي (ليون بلوم) يتصل بسعدالله الجابري طالباً منه أن يبلغ معروف الدواليبي بالتوقف عن تنظيماته (القمصان الحديدية) التي صارت منظمة عسكرية لا ينقصها إلا السلاح. وكانت فرنسا في هذه المرحلة التي تحتج فيها على تنظيماتنا العسكرية تطلب في المعاهدة أن لا يجلو الجيش الفرنسي عن سورية إلا بعد عدة سنوات بحجة أن الجيش الوطني السوري ليس من السهل إنشاؤه، وأن إنشاءه لا بد له من عشر سنوات

إلى خمس عشرة سنة على الأقل، ولكن (هازنجر) رفع تقريراً، وهو لا يعلم بما يجري، بأن معروف الدواليبي أنشأ جيشاً لا يقل عدده عن عشرين ألفاً في مدينة واحدة من أكبر وأعلى التنظيمات العسكرية خلال بضعة أشهر.

وجاؤوا يواجهون سعدالله الجابري محتجّين بهذا التقرير، فوجد سعدالله في احتجاجهم هذا خير جواب، فقال لهم: إنكم تجزمون بأن الحاجة إلى إنشاء جيش وطني لا تقل عن عشر إلى خمس عشرة سنة، وتعترفون في تقريركم هذا أن شخصاً غير عسكري أنشأ جيشاً من عشرين ألفاً. إذاً لابد من الجلاء فوراً وإعلان الاستقلال.

لقد أفادنا احتجاج (هازنجر)، ولا سيما بعد أن اصطدمنا بالقوى العسكرية الفرنسية، وضربنا الضباط، وكانت معركة خشي الفرنسيون أن تنقلب إلى ثورة، مع أننا واجهنا الضباط المسلحين بالعصي وتغلبنا عليهم، وكانت فائدة احتجاج (هازنجر) الكبرى حذف فقرة بقاء الجيش الفرنسي من المعاهدة.

س- نعود لذكر بعض الأعمال المتعلقة بالمقاومة، فقد ذكرتم أنكم أفدتم من دخول مكبر الصوت إلى الجامع الكبير، وأن المفتي عارض في ذلك.

= كان لنا تجمّع كل يوم ما عدا يوم الجمعة، وتجمّعنا كان في المسجد حيث تصدر تبليغات للناس المضربين، وكان لي جلسة وعظ أسبوعية يوم الجمعة في الجامع الأموي الكبير، ومن هنا كانت حاجتنا إلى مكبر الصوت كبيرة، ولما قمنا بتمديد مكبر الصوت ضغط الفرنسيون على المفتي ليمنع التمديد، فلم نأبه لهذا المنع، وقمنا بتمديده، وكان المفتي يتذرع بالشكوى من إثارة الجماهير في خطبي، فأمر بنقلي إلى مسجد صغير.

س - هل كان ذلك قبل الأحداث السابقة؟

= نعم، قبل الأحداث، وفي مناسبات متعددة، وفي عهد زعامة إبراهيم هنانو كنا ندعو الناس إلى الصلاة في الجامع الأموي، ومن المعروف عادةً أن الناس لا يدعون إلى الصلاة في الجامع الأموي إلا إذا كان أحد رجال الكتلة الوطنية سيخطب في الناس، وهذا ما كان يضايق المفتي، وهو الذي أمر بنقلي، ولذلك كنا مقررين اغتياله.

س - هل اتخذ قرار اغتياله من اللجنة المؤلفة من خمسة عشر شخصاً؟

= من قبل التنظيمات جميعها؛ لأن الشخص الذي خضع لرغبة الفرنسيين بإسكات صوت معروف الدواليبي ونقله يجب أن يؤدَّب. ولقد تحدينا أمر تدبير النقل، وتحدينا السلطات الفرنسية فدعونا الناس جميعاً إلى صلاة الجمعة في مدينة حلب وفي الجامع الأموي، وكان البرد على أشده في فصل الشتاء، ومع ذلك كان التجمع لا نظير له، إذ امتلأ الحرم والساحة، ولما وصلت إلى المسجد لألقي خطبة الجمعة لم أستطع الدخول إلى المسجد إلا بشق الأنفس، ومن الباب الشمالي، وهو أقل أبواب المسجد ازدحاماً.

ومنذ ذلك اليوم اعتزل المفتي عمله، وانقطع عن النزول إلى دائرة الإفتاء عدة أشهر.

س - ألم يحاصر المسجد بقوى عسكرية؟

= كان المسجد محاطاً بالدبابات، وبعد إلقاء خطبة الجمعة قُبِض عليّ وأُخِذتُ إلى مخفر المجيدية. وسرى نبأ اعتقالي بين الجماهير، فتكهرب الجو وانتقلت جموع الجماهير إلى المخفر وأحاطوا به. وكانت المفوضية الفرنسية على مستوى مندوبية في حلب، وهي على اتصال بالمفوض السامي في بيروت،

فبينوا له أن ليس بالإمكان توقيفي وإلا ستحدث في حلب مذابح، واكتفوا بتوجيه بعض الأسئلة إليّ ثم أطلقوا سراحي.

وبتلك الأحداث التي سبقت سيطرنا على المدينة وفرضنا الإضراب.

س - هل هذا الإضراب هو الذي استمر خمسين يوماً، وهل استمر الإضراب في دمشق؟

= استمرار حلب في الإضراب جعل المدن كلها تستمر فيه. واشتداد الإضراب في حلب واستمراره أدى إلى سقوط الوزارة الفرنسية ومجيء الحكومة الشعبية التي نادت بإعلان الموافقة على الاستقلال بعد إنهاء الإضراب وفتح المتاجر كما سبق بيانه.

٣- قصة الوفد السوري إلى باريس

س - هل لكم تعليقات وذكريات عن الوفد، وهل هناك معالم بارزة في أعضائه؟

= أعضاء الوفد هم: هاشم الأتاسي رئيس الكتلة الوطنية من حمص، جميل مردم من دمشق، سعدالله الجابري من حلب، الأمير مصطفى الشهابي من حلب، وأصبح بعد ذلك محافظاً لمدينة حلب.

س - رشدي الكيخيا ألم يكن من أعضاء الوفد؟

= لا، ما كان من الشباب إلا نعيم الأنطاكي من المسيحيين، كان أمين سرّ الوفد.

س - المعروف أن الوفد لما رجع إلى حلب أجري له استقبال شعبي كبير جداً، وكان فيه استعراض حرس القمصان الحديدية.

= هذه القوة التي أعددناها ونظمناها خلال ستة أشهر من المفاوضات ساعدتنا كثيراً في تنظيم أوضاعنا، ومنها استقبال الوفد استقبالاً حافلاً.

لم ينتقل الوفد بالطائرات، وإنما كان السفر من باريس بالقطار السريع، إذ كان القطار يأتي من باريس عن طريق استانبول إلى حلب.

وكان استقبالنا للوفد بأكثر من عشرين ألفاً من المستقبلين، بموسيقاهم وأزيائهم الشعبية والوطنية، وبرقصاتهم، وامتدت مواكب المستقبلين من المحطة إلى فندق بارون، حيث تقرر أن يقف رجال الوفد يستعرضون مواكب المستقبلين في أربع ساعات كاملة.

مشت المنظمات المختلفة رافعة أعلامها، تصدح موسيقاها، منتظمة صفوفها، في كل صف اثنين اثنين، أما الأحياء فقد انتظمت صفوفها في كل صف عشرة أشخاص، ولكل حي علمه، ومكانه الذي يقف فيه، وكانت فرق الكشفافة منتشرة في كل مكان ترعى النظام، وأذكر أن مدير المحطة جاءني قائلاً: لا يمكنكم حفظ النظام في المحطة، فأجبته: لا عليك، سأرتب بنفسي كل شيء، وحذّر من تعطّل سير القطار في زحمة الجماهير الهائلة فطمأنته، وبالفعل لم يقع حادث ولم تكن فوضى.

وزعنا بطاقات الدعوة لكل فئات الشعب، وخصصنا لكل فئة مكانها في المحطة في مربّعات مرقمة، فوجوه وزعماء الأحياء والعلماء المشايخ يدخلون من هنا ويستقرون في المربع رقم (١)، والموظفون يدخلون من هنا ويستقرون في المربع رقم (٢) والموظفون الفرنسيون يدخلون من هنا ويستقرون في المربع رقم (٣) وهكذا، وكل مربع محاط من جهاته الأربع بفرق الكشافة التابعة للحرس الوطني.

وأعلنا للمستقبلين جميعاً أن رجال الوفد إذا نزلوا من القطار فلا يجوز الهجوم للسلام عليهم، وإنما يتقدم كل مربع بمربّعه فيسلّم ثم ينطلق إلى فندق

بارون، حيث يقف رجال الوفد على الشرفة، ثم يبدأ الاستعراض. ولا أغالي إذا قلت: إن مدينة حلب خرجت كلها للاستقبال، في إطار من التنظيم أدهش الفرنسيين.

س- لا شك أن الناس جميعاً خرجوا شيباً وشباباً نساءً ورجالاً كباراً وصغاراً؟

= نعم، والشيء الذي نعتز به أنه في هذا اليوم المشهود لم يقع حادث ولا حدثت فوضى بسبب دقة التنظيم الذي أحكمناه؛ فكل شخص يحمل بطاقة دعوة يصل إلى مكانه بيسر وسهولة، والممر الذي يسلكه المدعوون يبدأ من باب الفرج إلى شارع محطة بغداد، طريق للذهاب وطريق للإياب، وكانت الجماهير تذهب وتعود، والموسيقا تصدح في تنظيم دقيق رائع، كلما وقفت فرقة عن العزف بدأت الأخرى، خلال أربع ساعات تقريباً. ولو كانت أفلام التسجيل معروفة في ذلك الحين، وسجل ذلك اليوم المشهود لكان حدثاً تاريخياً مثيراً للإعجاب. ولقد أعجب بدقة تنظيمه وترتيبه زعماء سورية الحاضرون ووجوه دمشق، وأذكر أن سعدالله الجابري قال لهاشم الأتاسي وفخري البارودي ولفيف من وجوه دمشق: كل هذه التنظيمات التي رأيتموها اليوم قام بها معروف الدواليبي.

س- أكانت عودة الوفد هذه في سنة ١٩٣٦؟

= نعم. والجدير بالذكر أنه لم يحصل في هذا اليوم الذي كان الازدحام فيه على أشدّه أي حادث ولا فوضى، مع أننا نرى الناس حينما يخرجون في أيام الازدحام تكثر فيهم حوادث الدهس والاصطدام والفوضى، وذلك بفضل التنظيم الرائع الذي ضبط الأمور.

س- هل حضر الفرنسيون هذا اليوم المشهود؟

= نعم، حضروا وأدهشهم النظام الذي شاهدوه، وأذكر أن مندوب المفوض

السامي كان إلى جانب رجال الوفد، وقال لسعدالله الجابري: أهنئكم بهذا اليوم الذي أرى فيه الناس فرحين، فقال له سعدالله: لماذا حرمتم أنفسكم من رؤية هذا السرور؟

س- ما النتائج التي حققها الوفد في المباحثات؟

= تمت الاتفاقية بموافقة الكتلة الوطنية، وفي ذلك النهار كانت تحيات ومجاملات متبادلة بين رجال الوفد والفرنسيين.

س- هل في رأيكم أن المعاهدة تضمنت أفضل ما يمكن الحصول عليه؟

= كل ما في المعاهدة هو الاتفاق على الانتقال من الصدام إلى الوفاق والحوار لاستكمال مراحل الاستقلال الأخرى، وقد عجّلنا بإجراء انتخابات وعدّلنا الدستور الذي وضعه الفرنسيون، وإن كان الوضع لا يخلو من نقائص.

س- هل حدثت انتخابات فورية وعمّ أسفرت؟

= نعم، حدثت انتخابات فورية بأسرع ما يمكن، وأسفرت عن انتخاب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية.

س- هل انتهت مهمة الكتلة الوطنية ومرحلتها بعد أن تم انتخاب مجلس نيابي واستلام هاشم الأتاسي رئاسة الجمهورية؟

= يصدق علينا وعليها بعد الانتخابات واستلام السلطة: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»؛ ذلك أن البلاد كلها كانت قبل استلام السلطة في حالة حرب مع المستعمر، والسلبية في مثل تلك الحالة طريقتها محمودة.

أما بعد الاتفاق على المعاهدة فقد باشرنا نمارس الاستقلال، ومن هنا انتقلنا إلى الجهاد الأكبر، انتقلنا من الدور السلبي المحدود لمقاومة الأجنبي إلى

الدور الإيجابي المتمثل في كيفية البناء. إن كل ما بُنِي في أثناء الاحتلال وفي خلال (٢٥) سنة تقريباً كان لمصلحة الأجنبي، والأيدي التي كنا نقاومها ونعمل على إيقافها عند حدها لم تضع المعاهدة لها حداً إلا ظاهراً. وعلى كل حال كانت المعاهدة صفحة جديدة للوصول إلى الأهداف الوطنية والاستقلال الكامل عن طريق الحوار بعد أن كان عن طريق القتال؛ فالطريق الإيجابي الذي بدأنا نسلكه يتطلب بناءً في الداخل، وتخطيطاً ودراسة للسياسة الخارجية، لقطف ثمار ما أوصلتنا إليه الثورة البيضاء سنة ١٩٣٦. ومن هنا بدأت المشكلات التي لم يكن في الإمكان التفكير فيها في العهد السلبي.

وابتدأت التحركات الصهيونية في الكيد لنا، إذ استأجر اليهود كاتبين من كبار الكتّاب هما (جيروم تارو وأخوه) راحا ينشران كتباً باسم فرنسا يثيران فيها مجلس النواب الفرنسي بدعوى أن هذا الاستقلال ليس في مصلحة فرنسا، ولا في مصلحة الأقليات التي تعيش في سورية، ففي إعطاء السلطة للوطنيين تهديد للأقليات: فهناك الدروز مهددون بوجودهم، وهناك العلويون مهددون بوجودهم، وهناك المسيحيون مهددون بوجودهم. وتمكنت هذه الدعايات التي من ورائها الصهيونية العالمية أن توقف التصديق على المعاهدة من قِبَل فرنسا. أما نحن فقد تسرعنا وصدقنا عليها.

س - هل صدق المجلس النيابي على المعاهدة؟

= حينما أعلنت الاتفاقية سارعت البلاد بإجراء انتخابات وانتخاب رئيس للجمهورية وتشكلت حكومة، وتم التصديق على المعاهدة منذ وصولنا إلى الحكم. بيد أن الإعلام شنّ حملة إعلامية ضد المعاهدة فور تصديقها، ذلك أن فرنسا راحت تماطل في التصديق على المعاهدة، وبقيت على تلكّئها منذ سنة

١٩٣٦ حتى ١٩٣٩، وفي ذلك الحين بدأت مقدمات الحرب العالمية الثانية تظهر، وراح هتلر يندفع في احتلال الدول والتوسع ليعيد لألمانيا وحدتها ويحقق سيادة العنصر الألماني، وهنا راحت فرنسا تتحجج، واستردت السلطة في سورية، وأوقفت العمل بالدستور وجمّدت صلاحيات هاشم الأتاسي، واستعاد المفوض السامي سلطاته جميعها، وكان ذلك في بداية الحرب على ما أذكر، في ١٩٣٩/٩/١٥.

س ـ كيف كان وضع رئيس الجمهورية والمجلس النيابي آنذاك؟

= بقي هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية، ولكن سلبت منه كل الصلاحيات، وكذلك المجلس النيابي بقي قائماً، وسلبت منه أيضاً كل الصلاحيات.

٤- مرحلة الابتعاث إلى باريس

وفي مطالع سنة ١٩٣٩ استأذنتُ الكتلة الوطنية للسفر إلى فرنسا لإكمال دراساتي التخصصية في (الدكتوراه). وكنت عازماً على السفر منذ حصولي على شهادة الحقوق سنة ١٩٣٥ من كلية الحقوق في دمشق لإكمال دراستي في مرحلة (الدكتوراه)، ولكن الثورة وتسارع أحداثها، ثم مرحلة الاستقلال المؤقت وما اكتنفها من أعمال ومسؤوليات، كل أولئك أخر سفري، وكان سعدالله الجابري يطلب مني أن أؤخر سفري ويقول: نحن بحاجة إليك، فبقيت سنة ١٩٣٦، و١٩٣٧، ومعظم سنة ١٩٣٨ وفي أواخر هذه السنة أصررت على السفر، وقلت للمعارضين في سفري إن المشكلات لا تنتهي ولا بد من السفر لإكمال تحصيلي العلمي وأعود بعد ذلك أقوى مما أنا عليه، فإذا كنتم بحاجة إليّ فدعوني أكمل تزوّدي بالعلم وأنهي دراستي.

س ـ وسفركم هذا أكان بعثة أم على حسابكم الخاص؟

= كان بعثة.

س - وأي جهة ابتعثتكم؟

= وزارة المعارف: البعثات العامة.

س - هل ابتعث معكم أحد أيضاً؟

= لا، ولكن من قبل كانت هناك بعثات، لا يقل عددها عن مئتي بعثة من مختلف المدن وفي عدد من التخصصات. وأذكر أن في ليلة سفري في مطالع عام ١٩٣٩ كان الأستاذ محمد المبارك رحمه الله قادماً من باريس في عودته منها بقطار الشرق السريع مروراً بحلب، وما كان في ذلك الحين طائرات والبواخر بطيئة وطريقها طويل، ففي ليلة سفري هذه أقاموا لي حفلة وداع، حضرها محافظ حلب مصطفى الشهابي رحمه الله، وفي تلك الليلة صادف مرور أخينا الأستاذ محمد المبارك بحلب كما أسلفت، وهو أحد المبعوثين.

س - هنا ستبدأ مرحلة سفركم إلى باريس طلباً للعلم وما رافقها من نضال فهل أُعلِنت الحرب حينما وصلتم إلى باريس؟

= لا، لم تكن قد أعلنت؛ لأن سفري كان قبل إعلانها بستة أشهر، وأول عمل قمت به حين قدومي إلى باريس تأليف جمعية الطلاب العرب، وقد كُلِّفتُ برئاستها، وبدأنا بمواجهة المشكلات التي أخذت تتعاظم.

س - هل كانت الجمعية للعرب قاطبة وليست للسوريين فقط؟

= نعم للعرب قاطبة، وكان لكل قطر عربي جمعية طلابية، فلسورية جمعية، وللبنان جمعية، وللعراق جمعية، فجئنا وألغينا تلك الرخص الإفرادية، وسجلنا رخصة باسم الطلاب العرب.

س - وهل كانت هذه الجمعية مرخصة رسمياً؟

= نعم، كانت مرخصة رسمياً. ولقد رأينا من الواجب علينا أن نوحد صفوفنا

تجاه الأحداث، وأن نعمل باسم الطلاب العرب، لا كما كنا كل قطر يتحرك في دائرته الإقليمية، وكان تحرك الجمعيات الطلابية يعنى بشؤون الطلاب لا أكثر ولا أقل. أما التحرك الوطني الذي يعنى بالصالح العام للعرب فما كان متوافراً، مع أن الحوافز الوطنية كانت موجودة عند الطلاب جميعاً.

فكان لابد من جمع الصفوف لنستفيد من المناسبات. وما كدنا ننتهي من تأليف الجمعية حتى كان موعد عيد الحرية عند الفرنسيين في ١٤ تموز، قبل شهر من إعلان الحرب، ودُعينا ممثِّلين لجمعية الطلاب العرب للاشتراك في المهرجانات التي تقام عادةً في هذا العيد، فجمعتُ مجلس الجمعية وقلت: أيها الإخوة، سنرفع برقية إلى رئيس وزراء فرنسا، وكنتُ كتبتُ نصّها، وكان معنا على ما أذكر الأخوان عزت طرابلسي وعوض بركات، وهما زميلان من خريجي الحقوق مبعوثان إلى فرنسا، وكذلك أسعد محاسن وكان يدرس على نفقته الخاصة. جمعت هؤلاء الأخوة وكانت لغتهم الفرنسية أقوى من لغتي لحداثة عهدي بفرنسا، وطلبت منهم أن يترجموا هذه البرقية، ونصها: «إن جمعية الطلاب العرب كان بودّها أن تشترك في أعياد الحرية هذه التي استمرت منذ قيام الثورة الفرنسية قبل مئتي سنة ولا تزال مستمرة تقام كل سنة، على أساس أن الشعب أخذ يمارس السلطة بعد أن كان الملوك وحدهم يأخذون السلطة من الكنيسة، ولذلك هدم الثوار الكنيسة، وأصبحوا يقدّسون العقل كرهاً بهذه السلطة التي يستمدّها الملك من الكهنوت، لتقرير أن السلطة من اللّه فلا يعزل معصوم. وكل سنة تمر على قيام الثورة تحتفلون بها لأن الشعب أخذ حريته، وأصبح هو الذي يعطي السلطة للملوك بعد أن كانت تؤخذ من اللّه عن طريق الكنيسة، كان بود جمعية الطلاب العرب أن تشارك في أعياد

الحـرية مـعكم، لولا أنكم في هذا الشـهـر اعـتـديتم على الحـريات في سـورية، وعطّلتم الـدسـتـور، ومنعـتم رئيس الجـمـهـورية من ممارسـة صـلاحـيـاته، وكـذلك عطّلتم مـجلس النواب، فـأنتم إذاً تقـفـون في أفـراحكم خـلاف أعـمـالكم التي تُسَجَّل عليكم في هذا الشهر».

كانت الأوضـاع في سـوريـة مـتوترة، وكـان من الواجب إرسـال هذه البـرقـيـة الشـديدة. وقـال قسم كبيـر من إخواننا الطلاب، ومنهم فـريد خـان رحـمـه اللّه، قـالوا: إن هذه البـرقـيـة سـتسـبّب لـك مـشكلة كبيـرة؛ لأن الحـرب على الأبواب، فقلتُ: اتركوها لي بتوقيعي فقط. أنتم ترجموها لي، فتُرجِمَت وأُبرِقَت.

وبعـد أسـبـوعين أو ثلاثة أُعلِنَتَ الحـرب، فكان أول شـيء تلقيناه هـو البـحث عني. وأُوقِفت مـخـصـصـاتي وطُلِبتُ للتـحـقيق، وأُحِيلت أوراقي فيمـا بعـد إلى البـحث، وقـيل: إن هذا الرجل من أنـصـار النـازية؛ فـالحـرب قـد أعلنت وأسـهل شيء أن تلصق بي تهمة تقضي علي. بيد أن طلب تسفيري وإعادتي إلى البلاد سيكون بعد التحقيقات.

س - هل كانت مخصصاتك تصرف من الخزينة الفرنسية؟

= لا، بل تـأتي مـن سـوريـة، من مـكتب نفـقـات المبـعـوثين، فـهناك مـدير يوزع المخصصات على الطلاب المبعوثين.

س - هل سجلتم في هذه المرحلة رأساً في كلية الحقوق في السوربون؟

= سجلت في كلية الحقوق في جامعة باريس، وهي الجامعة الوحيدة الموجودة في ذلك الحين في باريس، والآن فيها أربع عشرة جامعة. أما السوربون فكان فيها قسم الآداب.

س- إذا نظرنا إلى الجانب العملي من الدراسة، هل كان التسجيل فيه رأساً للحصول على الدكتوراه؟

= نعم، ولقد سجلت للحصول على الدكتوراه في الحقوق، وعلى الدكتوراه في الآداب.

س- ألم تتابعوا دراسة الآداب بعد ذلك؟

= انصرفت إلى دراسة الحقوق أولاً حتى انتهيت منها؛ لأنها الدراسة الأساسية عندي.

س- كيف كان الدوام؟ أهو فصول دراسية أم تسجيل للرسالة رأساً؟

= الفصول الدراسية أولاً، ثم يأتي تحضير الرسالة.

س- كم مدة الدبلومات التي حضرتها وكيف تم تحضيرها؟

= كان هناك دبلومان، الأول إجباري يتعلق بالمادة التي أتخصص فيها، وهي الحقوق الرومانية، والثاني اختياري وهو في الحقوق الكنسية؛ ولذلك اضطررت أن أدرس تاريخ الكنيسة النصرانية واليهودية، أي العهد الجديد والعهد القديم. فالذي يريد دراسة الحقوق عليه أن يدرس اليهودية والنصرانية.

س- كم سنة أمضيتم حتى سجلتم الدكتوراه؟

= مرت سنة ١٩٣٩ ولم أبدأ في الدبلومات. وفي سنة ١٩٤٠ بذلت جهداً فوق العادة لأنهي الدبلومات الخاصة بي، ولما أُعلِنت الحرب كنت أدرس اللغة اللاتينية لأثري لغتي الفرنسية، وهذه الدراسة تتطلب ثلاث سنوات في الحالة الطبيعية، وبعدها يأتي تحضير الرسالة. ولما قامت الحرب رجع قسم كبير من

إخواننا إلى سورية، قطعوا دراستهم ورجعوا. أما أنا فمع أني كنت حديث عهد فلم أرد الرجوع، مع أن الحكومة الفرنسية أوقفت مخصّصاتي إلى إعلان نتيجة المحاكمة وذلك بعد إعلان الحرب، وكان ماسينيون مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية أحيل إلى التقاعد.

س ـ هل حقق هو معكم في هذه الفترة؟

= كان هو المسؤول عن الطلاب المسلمين الخاضعين للأراضي الفرنسية، فأرسل إلى سورية عن طريق الاستخبارات الفرنسية أن فلاناً متهم بأنه نازي، وجاءت الأجوبة أن فلاناً هذا هو من أشد خصوم الانتداب الفرنسي، وما عُرِف عنه أي ارتباط أجنبي خاص به، وهذه المراسلات استغرقت عدة أشهر، ولما انتهى من التحقيق استدعاني وقال: إننا أجرينا تحقيقاً بشأنك، وأهنئك بأنه لا شيء يثبت أنك نازي، وعندئذ صدر قرار بعودتي إلى سورية، ولو أن التهمة ثبتت عليّ لسُجِنت وعُوقبت. وإذ لم تثبت قرروا إعادتي إلى سورية. ولكن الحرب اتسعت ميادينها وسدت طريق العودة، فصار التمديد عندئذ بحكم الإجبار، لأن العودة غير ممكنة. ورأيت في ذلك الوقت رؤيا وأنا قلق من التحقيقات ونتائجها، رأيت أنني راكب في سفينة، أوشكت على الغرق، فمرت بجانبي سفينة أخرى تعلقت بها ونجوت. وبالفعل بعد شهرين غرقت فرنسا وسقطت، وتوقف البحث الجاري عني وعن إعادتي إلى بلادي، وقد أخذت جمعية الطلاب العرب دورها في الدفاع عني والوقوف إلى جانبي.

ودخلت سنة ١٩٤٠ وأنا في عمل دائم، أبذل جهداً فوق العادة، ليلاً ونهاراً، حتى انتهيت من الدبلومات، وسجلت موضوع الأطروحة، وشرعت بالعمل فيها في أواخر سنة ١٩٤٠.

س- بإشراف من كانت الدكتوراه؟

= بإشراف البروفسور (نووايب) من كبار المتخصصين في الحقوق الرومانية، واستطعت أن أقدمها في آذار (مارس) ١٩٤١.

س- كم استغرق إعداد الرسالة؟

= استغرق ستة أشهر، واضطررت للتوقف عن دراسة الأدب؛ لأن الظروف لم تساعد على ذلك.

س- هل هذا يعني أنكم انتهيتم من تحضير الدبلومات والدكتوراه في سنتين تقريباً؟

= نعم، حصلت على لقب دكتور بأقل من سنتين، مع أن إخواني الذين سبقوني في الدراسة لم ينته أحد منهم من الدكتوراه قبل أربع سنوات.

س- وهل الشهادة التي نلتموها تسمى دكتوراه دولة؟

= دكتوراه الدولة هذه مخصصة لمن يحصل الإجازة (الليسانس) من جامعة باريس، أما من كان يحمل ليسانس من الخارج فلا يعترف بها إلا بالمعادلة، ولا يستطيع الحصول إلا على دكتوراه جامعية؛ ولذلك لما جاء أخونا عبدالوهاب حومد إلى فرنسا كان معه ليسانس، فأعادها حتى حصل على دكتوراه دولة.

س- إذا رجعنا إلى المدة التي سقطت فيها فرنسا وتغيرت الحكومة وصارت موالية للألمان، فماذا نجد؟

= تولى الحكم في هذه الفترة مارشال بيتان ورئيس الوزراء لافال، وبلغت جمعية الطلاب العرب مكانة عالية، حتى إن الألمان صاروا يستشيرونها في القضايا العربية، ويعدونها برلماناً عربياً؛ لأنها تضم في عضويتها أعضاء من البلاد

العربية جميعاً من شمال إفريقيا إلى سورية، وكانت تعمل بحرية لا تُمارَس عليها أي ضغوط. وأذكر أن سفير ألمانيا في فرنسا، وهو رجل من أكبر أصدقاء هتلر ومن كبار رجال حزبه، اسمه آبيس، استدعاني ذات يوم وقال لي: أرجوك أن تدرس ملف المعاهدة السورية السرّي، وكانوا قد وضعوا أيديهم عليه، وما فعل اليهود.

لقد وضع الألمان أيديهم على جميع الوثائق السرية في فرنسا، ومنها القسم السرّي من المعاهدة السورية. ولما درسوا هذا القسم تبين لهم أن فرنسا بعد أن وقعت المعاهدة جاء (وايزمن) رئيس الوكالة اليهودية بسرعة إلى فرنسا وقابل رئيس الوزراء الفرنسي (ليون بلوم) رئيس الجبهة الشعبية، وهو يهودي أيضاً، جاء وايزمن يرجوه ألا يصدّق المعاهدة.

هنا انكشف دور اليهود في تراجع فرنسا عن تصديق المعاهدة.

س- ذكرتم أن المعاهدة وُقِّعت وصُدِّقت، فماذا عن هذه النقطة في تراجع فرنسا؟

= توقيع المعاهدة تم من الوفدين السوري والفرنسي. أما تصديق المعاهدة فقد تم من قِبَلنا فقط حين استلمنا الحكم. أما فرنسا فكانت تماطل في التصديق على المعاهدة من مجلس النواب الفرنسي كما أسلفت، ثم تراجعت. وكنا نرى ونعرف أن فرنسا تتراجع عن موقفها ولا نعرف السبب. ولما أعطاني (آبيس) سفير ألمانيا في فرنسا الملف السرّي لأطّلع على الوثائق السرية فيه، تبين أن هذه المعاهدة كان معها ملف سرّي عن زيارة وايزمن رئيس الوكالة اليهودية إلى (ليون بلوم) اليهودي، وما دار بينهما. وكنا نحن قد استلمنا الحكم في سورية، وشجع إعلان استقلالنا واستلامنا الحكم إخواننا الفلسطينيين على القيام بالثورة، وهنا جاء دور (وايزمن)، وجاء اليهودي ليخاطب يهودياً مثله طالباً منه

عدم تصديق المعاهدة السورية، ويقول له: إذا صدقتم هذه المعاهدة فلا يمكن بعد ذلك أن ننشئ الوطن القومي لليهود في فلسطين، ولذلك يجب أن تعطّلوا استقلال سورية.

وهنا وقع (ليون بلوم) في إحراج كبير، كما جاء في الملف السرّي، عبر عنه بقوله لوايزمن: كيف أعطّل استقلال سورية، وأنا الذي دعوت زعماءها من السجون للتفاوض وعقد المعاهدة؟ وواضح أن زعماء سورية كلهم كانوا في السجون في عهد الراديكالية، وأن الثورة البيضاء في سورية والإضراب الستّيني فيها قد أقضّ مضجع فرنسا، ودفع الجبهة الشعبية في فرنسا إلى التعاطف مع السوريين في حركتهم التحريرية لبلادهم، وبهذا كله انتزعت الجبهة الشعبية الحكم من الراديكاليين، واستدعت الزعماء السوريين وعقدت معهم المعاهدة. ولما قال ليون بلوم لوايزمن: كيف أعطّل استقلال سورية، وأنا الذي دعوت زعماءها لعقد المعاهدة فجاؤوا وعُقِدت معهم المعاهدة، وصدّقوها، وسلمناهم الحكم، كيف أتراجع عن هذا كله؟ أجابه وايزمن: أنا أوجد لك المسوِّغ. سأذهب إلى تركية وأطلب منها أن تطالب بلواء اسكندرون، فإذا طالبت تركيا به تقول أنت لسورية: «مادام هناك خلاف بينكم وبين دولة مجاورة فأنا مضطر للتوقف عن تصديق المعاهدة» وذهب وايزمن إلى تركية، وعقب وصوله ومحادثاته مع الأتراك جاءت برقية من رشدي أراس وزير خارجية تركية إلى حكومة فرنسا تقول: «أنتم وقعتم على معاهدة استقلال سورية، فما هي الضمانات التي اتُّخِذَت لحماية الأقلية التركية في اسكندرون؟» وكانت فرنسا قد أرسلت إلى تركية برقية قبل عقد المعاهدة تسأل الأتراك عما لديهم من مطالب لتُقَّدم آنذاك، فما قدّم الأتراك شيئاً، مع أنهم كانوا يطلبون بين حين

وآخر تأصيل الحدود بين تركية وسورية. إلا أن رشدي آراس أرسل برقية إلى فرنسا يشجع فيها على استقلال سورية ويرحب به، ويؤكد أنه لا مطلب جديداً لتركية، سوى أن يؤخذ العهد على سورية أن ما تم الاتفاق عليه من تأصيل الحدود بين تركية وفرنسا باسم سورية يعدّ ساري المفعول، فأدخلت فرنسا مادة في المعاهدة، نصّها: «جميع الاتفاقات التي وقعتها فرنسا باسم سورية مع تركية تعدّ سارية المفعول»، وقد قبل الوفد السوري بهذه المادة. فلما جاء وايزمن إلى تركية وتحرك في مساعيه لعرقلة استقلال سورية، وجاءت برقية من وزير الخارجية التركية تسأل عن الضمانات المُتَّخذة لحماية الأقلية التركية في اسكندرون، كان على ليون بلوم أن يجيب بقوله: «إننا وضعنا مادة خاصة بذلك»، ولكنه بدلاً من هذه الإجابة أجاب بقوله - وهنا تتضح أبعاد المؤامرة على سورية -: «أقترح أن تكون الضمانة بأن نجعل انتداباً ثلاثياً من تركية وسورية وفرنسا على لواء اسكندرون؛ لأننا أعطينا وعداً بالاستقلال لسورية، ووقعنا عليه، لذلك أقترح سحب لواء اسكندرون من سورية، وفرض هذا الانتداب الثلاثي المؤقت عليه إلى أن يبت في حل هذه المشكلة.

أرسل ليون بلوم جوابه هذا إلى تركية، ثم أبلغ سورية به، متذرعاً بأن تركية اعترضت وأننا رددنا بهذا الاقتراح، وكان عليه ألا يقترح هذا الاقتراح إلا بعد أخذ رأي سورية!!

وهنا قامت المظاهرات الصاخبة في سورية، وإني لأذكر المظاهرة التي قدتها، وذهبنا إلى المفوضية الفرنسية في حلب، وهتفنا بسقوط فرنسا، وقد خرجت جموع الشباب والمدارس جميعاً في تلك المظاهرات.

كان ليون بلوم يدرك أن سورية سترفض هذا الاقتراح؛ ولذلك أسرع

باقتراحه إلى تركية مغفلاً سورية، ولما أبلغ سورية وقامت المظاهرات الصاخبة فيها أعلن اضطراره لتوقيف المعاهدة، وتوقفت المعاهدة.

س ـ هل تعتقدون أن هذه الوثائق السرية التي اطلعتم عليها في وزارة الخارجية الفرنسية قد أُعلِنت رسمياً بعد ذلك؟

= لا، الوثائق سرية لم تُعلَن. وكثير من هذه الوثائق أخذها هتلر، ولا أدري أبقيت أم أخذها أو أخذ نسخة منها، لكن هذا الذي رأيته بنفسي في هذه الوثائق، وهو ما أعطى تفسيراً واضحاً لتراجع فرنسا عن تصديق المعاهدة، ولقد كنت أعلن لبعض الصحف آنذاك كيف كان تراجع فرنسا وأنه كان بتأثير اليهود الذي أثّروا في سياسة فرنسا كما أثّروا في موقف رشدي آراس. ولما أُعلِنت الحرب، وراحت تركية تطالب باسكندرون وتهدّد وتتوعّد قررت فرنسا التنازل عن اسكندرون إلى تركية.

لقد كشفت الإضبارة السرّية التي سلمني إياها سفير ألمانيا لدى فرنسا في عهد بيتان أسراراً خطيرة عن تآمر اليهود وأثرهم في تراجع فرنسا عن تصديق المعاهدة السورية الفرنسية، وهنا احتجت سورية لدى عصبة الأمم وقدمت شكواها إليها بشأن استلاب لواء اسكندرون منها وتسليمه إلى تركية، فقررت عصبة الأمم عندئذ إجراء استفتاء في لواء اسكندرون.

لقد كانت المؤامرة اليهودية قوية محكمة، استطاعت نقل قضية اسكندرون إلى عصبة الأمم، ويظهر أن اليهود اطمأنوا إلى موقف الدول فيها حين تقرر الاستفتاء.

واستدعاني سعدالله الجابري، وكلفني بالذهاب إلى تركية، لأعدّ الرأي العام التركي للاستفتاء ضد تركية.

س ـ الرأي العام التركي في اسكندرون؟

= نعم، الرأي العام التركي في لواء اسكندرون، وكان جزءاً من سورية، وكان المحافظ حسني البرازي آنذاك يسمي سنجق اسكندرون إدارة مستقلة ضمن الحكومة السورية، فأُبلِغ أن معروف الدواليبي عُيِّن أستاذاً للأدب العربي في المدرسة التي في أنطاكية، ولم يكن في سورية كلها مدرسة إلا في دمشق إلى الصف الثاني عشر، وفي حلب إلى الصف الحادي عشر، أما لواء اسكندرون فما كان فيه ثانوية إلا في أنطاكية تعلم باللغة التركية، أنشئت بمعاهدة مع فرنسا تعويضاً لتركية عن كيليكيا التي سلختها فرنسا عن لواء اسكندرون، ولأن في هذا اللواء أقلية تركية.

س ـ هل كان هناك وضع خاص للواء اسكندرون له شبه استقلال؟

= نعم، كان لهذا اللواء وضع مستقل في إطار حكم ذاتي تابع للحكومة السورية؛ فسورية تعين المحافظ، ولكن لهذا اللواء شيء من الاستقلال مراعاة للأقلية التركية.

س ـ أكان هذا مع وجود مدرسة تعليم العربية؟

= لا، المدرسة تشترط أن يكون التعليم باللغة التركية، مع وجود مادة واحدة باللغة العربية هي الأدب العربي، وقد انتُدِبتُ سراً لأجل تهيئة الرأي العام التركي للاستفتاء ضد تركية، تحت شعار ستار تعييني مدرّساً للأدب العربي في تلك المدرسة، ولكي لا يقال: إن سورية أرسلت مندوبها عُيِّنتُ من قبل المحافظ بتكليف من سعدالله الجابري أستاذاً للأدب العربي في مدرسة أنطاكية الثانوية، وذهبت إلى أنطاكية بصفتي مدرساً للأدب العربي، وابتدأنا نجتمع مع القادة العرب هناك، فعرفنا حسن جبارة وزكي الأرسوزي وغيرهما من

الأكثرية، وكانت الأكثرية علوية عربية. أما السنيون فكانوا من الأتراك. وكنت ألتقي بالأتراك دائماً، ونتحدث عن المذابح التي تعرض لها العلماء في تركية، وعن تغيير معالم الدين فيها، ومن هنا سار معنا المسلمون الأتراك ووافقوا على التصويت على أنهم عرب، يودّون الانضمام إلى سورية، والعرب صوّتوا أيضاً من باب أولى على الانضمام إلى سورية، وهنا اكتشف الفرنسيون مسعاي، وبما أن المستشار التابع للمفوضية الفرنسية فوق مرتبة المحافظ وسلطته، فقد قُبِض عليّ وأخرجت من لواء اسكندرون، بحجة أن معروف الدواليبي لا يقوم بعمل تعليمي، وإنما يقوم بعمل سياسي.

جاءت لجنة الاستفتاء التي عينتها عصبة الأمم، وقامت بعملها أسبوعاً ثم أوقفت الاستفتاء؛ ذلك أنها ابتدأت باستفتاء الأتراك، فوجدت الأتراك الذين لا يتكلمون العربية يقولون بالتركية: «بيز عرب» أي «نحن عرب»، وما وجدوا أحداً من الأتراك يقول: أنا تركي.

وهذا يعني أن الأكثرية في لواء اسكندرون من العرب، وهنا أدركوا اللعبة، فأوقفوا الاستفتاء، وأخرجوني من لواء اسكندرون، ولو تم الاستفتاء على النحو المشار إليه آنفاً لكان في مصلحة سورية، وما كان له أن يتم وتركية وفرنسا واليهود له بالمرصاد.

ولما أخرجت من لواء اسكندرون عام ١٩٣٨ طلبت الإذن بالسفر إلى أوروبا لإكمال دراستي العليا، ولكن سعدالله الجابري كان يُعارض في سفري بحجة أنه ما زال بحاجة إليّ، فقلت له: دعني أسافر وأستكمل عدّتي في العلم، فلقد أمضيت ثلاث سنوات بعد عام ١٩٣٥، وبذلك تأخرت عن استكمال تحصيلي العلمي.

ولما وصلتُ إلى فرنسا رأيت الهجوم الذي شنه على المعاهدة جيروم تارو، أحد الكتاب الفرنسيين، و(هنري هيه) محافظ فرساي ورئيس اللجنة السياسية في الحكومة الفرنسية، وهو الذي كتب التقرير الذي قدمته الحكومة الفرنسية إلى مجلس النواب ومجلس الشيوخ الفرنسيين للتصديق على المعاهدة، فتارو كان يهاجم المعاهدة، و(هنري هيه) قدم تقريره برفض المعاهدة ونشرته الصحف.

وكنت في ذلك الحين رئيس جمعية الطلاب العرب، فقمت بزيارة (هنري هيه) ممثلاً للجمعية وقلت له: إنك تقول في تقريرك: إذا أعلنّا استقلال سورية تعرّض للخطر كلٌّ من المسيحيين والدروز والعلويين، وستقع مذابح على هذه الأقليات، ولذلك لا يجوز إعلان استقلال سورية، وليس من مصلحة فرنسا إعلانه. وأنا أطلب منك باسم جمعية الطلاب العرب بعد أن تكلمت باسم هذه الأقليات، وأدعوك لتستمع إليهم، وهم طلاب موجودون في البعثات العلمية معي، على أن يكون النقاش في مجلس النواب الفرنسي في أثناء اجتماعه، فوافق، ولكن رئيس مجلس النواب رفض، فتجمّعنا واستأجرنا مطعماً في الشانزيلزيه قريباً من مجلس النواب، ودعونا إلى الاجتماع في المطعم. وحضر الاجتماع (هنري هيه)، وكان شكري القوتلي وزيراً للمالية في حكومة هاشم الأتاسي، وقد جاء برخصة التداوي، وكان على موعد مع هنري هيه، ويود أن يراه بعد الاجتماع، وقد بعث سكرتيره محسن البرازي ليحضر ذلك الاجتماع في المطعم، وقد استطعنا أن نجمع من الطلاب نحو ٢٠٠ - ٢٥٠ طالباً، وبعد استكمال الحضور ألقيتُ كلمة افتتحتُ فيها الحوار، وقلتُ موجهاً كلامي إلى (هنري هيه) وهو عضو في مجلس الشيوخ الفرنسي: سعادة الشيخ، يشرفني أن أدعوك إلى هذا الاجتماع وأنت صاحب التقرير الذي رفضت فيه

المعاهدة السورية؛ لأن فيها إهمالاً للأقليات، وأن ثمة خطراً عليها إذا استقلت سورية، فرأيتُ أن أجمعك بالسوريين الموجودين هنا، وفيهم السنيون والدروز والعلويون والمسيحيون، لتسمع منهم قبل أن تسمع مني أنا العربي السّنيّ، وأقول لك بكل صراحة: إنه من السهل أن تثير عداوة بين شعبين، إذ يكفي أن تطلق لفظة فيها شتيمة، فتُقابل بشتيمة مثلها، فتستحكم العداوة، ولكن من الصعب أن تكون هناك عداوة فتقلبها إلى صداقة، وأريد منك أن تسلك هذا الطريق الصعب؛ لا أن تسلك الطريق السهل، لأن كل واحد في غير مقامك يستطيع أن يفعل هذا.

فقال: ابدؤوا، فقلت، بل ابدأ أنت، فجاء بحججه التي هاجم بها المعاهدة بأنها ضد الأقليات وتشكل خطراً عليهم، وهنا وقف طالب مسيحي من حلب فقال له: أنت تتكلم عن المسحيين، أنا مسيحي من حلب أقول لكم: من انتدبكم لتتكلموا باسمنا؟ إن الخطر علينا ليس من أبناء بلدنا، وإنما هو من انتدابكم أنتم، وهنا دوّت قاعة الاجتماع بالتصفيق، وكان ذلك صدمة لهنري هيه. وما إن جلس الطالب المسيحي حتى قام طالب درزي وقال له: من الذي انتدبك لتتكلم باسم الدروز؟ نحن معشر الدروز لا ننسى الثورة التي قمنا بها عليكم لتأييد استقلال سورية، فنحن أصحاب الحق بالكلام، وأنتم تفتئتون علينا وعلى الحقائق، فكانت صدمة ثانية لهنري هيه، ثم قام طالب علوي فتكلم بمثل ذلك، فجاءته صدمة ثالثة، زاد في حدّتها وجود الصحافة التي دعوناها لحضور هذا الاجتماع، وتكاثر الطلاب أمامه حتى إنهم شكلوا مظاهرة من أعظم المظاهرات، فحاول حينئذ أن يجيب، ولكنه نظر في ساعته وقال: أنا مضطر أن أستقل سيارة وأعود إلى فرساي؛ لأن لديّ موعداً هناك، وواضح أنه لما رأى المظاهرة الضخمة أمامه تهرب من الجواب وهرب. ومن غريب المصادفة أنه

كان على موعد مع شكري القوتلي في اليوم التالي. ويحكي شكري القوتلي انطباعه عما رأى وسمع بهذه المناسبة فيقول: ما كنت أحسب أن الشباب المثقف في سورية بهذه الدرجة من الوعي السياسي، كما يذكر أن هنري هيه جاء ليعبر عن وجهة نظره، ولكنه تملكته الدهشة مما رأى وأُفحِم، والواقع أن اليهود اشتروه، مع أنه من الشخصيات البارزة في مجلس النواب ومجلس الشيوخ الفرنسيين، ووقع تحت تأثيرهم، فاستسلم لدعاية اليهود وجيروم تارو، معللاً موقفه بأنه نابع من مصلحة فرنسا، ولم يعرّج طبعاً على المصلحة اليهودية، التي كشفت الإضبارة السرية أن مساعي اليهود كانت وراءها وهي التي أدت إلى تعطيل المعاهدة، سواء أكان ذلك من قِبَل جيروم وأخيه الصحفيين أو الكاتبين الكبيرين، أم كان من قِبَل هنري هيه مقرر المعاهدة أو الهيئة التي رفضتها باسم فرنسا.

س - لقد كشفتم فيما تقدم سبب تراجع فرنسا عن تصديق المعاهدة، والآن نسأل عن حكومة بيتان، ولجنة الطلاب العرب التي تمتعت بشيء من حريتها؟

= في عهد بيتان كانت فرنسا محتلة من الألمان، بيد أنها لم تقاسِ كثيراً من الاحتلال كما قاست الدول الأخرى؛ ذلك أن الألمان أعطوا الفرنسيين كثيراً من الحريات في مقابل أن تشتغل مصانعهم في الإنتاج الحربي، وكان بيتان ينتهج سياسة حكيمة يقظة، فكل شيء كان خاضعاً للمراقبة إلا الجامعة، فإنها لا تخضع للمراقبة حسب القواعد الدولية. وفوجئنا في أحد الأيام بإعلان في الجامعة بباريس عن محاضرة بعد أسبوع بعنوان: «سورية أرض فرنسية».

س - من سيلقيها؟

= أحد الفرنسيين. فعرفنا عندئذ أن هذا من إعداد الحكومة الفرنسية، لتفهم

الألمان أن الرأي العام الفرنسي لايزال له وجود؛ ذلك أن حكومة فرنسا لما رأت تجاوب ألمانيا مع العالم العربي ومطالبه هيأت هذه المحاضرة لتفهم الألمان معارضتها لتوجهاتهم، فجئت إلى رئيس الجامعة بصفتي رئيساً لجمعية الطلاب العرب وقلت له: إن جمعية الطلاب العرب تطلب أن يكون للسوريين كلمة في الرد والتعليق على كلام المحاضر، فرفض رئيس الجامعة أن يسمح لنا بالكلام، فقلت له: إذن يمنعكم الطلاب السوريون من أن تقيموا هذه المحاضرة، فأخرجني من غرفته. وبعد يومين أقيمت المحاضرة، وكنا نحن قد أرسلنا إلى كل الطلاب السوريين أن يحضروا المحاضرة فجاؤوا جميعاً، وبعضهم أتى من مكان بعيد، وقبل موعد المحاضرة بسويعات قليلة جئنا إلى قاعة المحاضرة وهي في قلب الجامعة فاحتللناها، وكسّرنا الشبابيك، وحطّمنا الكراسي.

س - أما خفتم من عقوبة الجامعة، وخصوصاً أنت؟!

= هذا الذي حدث، واعتقل عدد كبير منا، أما أنا فقد تمكنت من الهرب، وهكذا تمكّنا من تعطيل المحاضرة فلم تقم في ذلك اليوم، إذ نشبت معركة داخل الجامعة، والشرطة لا تستطيع اقتحام الحرم الجامعي. ومنذ ذلك اليوم بدأت النقمة عليّ تزداد، وأُخضِعت الجامعة ودروسها كلها للمراقبة. وكان بعض الفرنسيين يتعاونون مع ألمانيا لما ابتدأت حوادث العدوان على الجيش الألماني بشكل فردي، وهؤلاء يسمونهم «ملّيس»، كان لهم معي شأن سيأتي بعد قليل.

في أوائل أيار من سنة ١٩٤١ أنهيت دراستي، وأصبحت متفرغاً للمشكلات المبينة آنفاً، وابتدأ قصف باريس لوقف المصانع الحربية، وكان بيتي قريباً من أحد هذه المصانع، فكان يهتز بمن فيه من القصف، فاضطررت إلى الانتقال إلى قرية في جنوب باريس تبعد عنها/٣٠٠/كم. وكنت أتقاضى مخصصاتي

من مفتش الطلاب الفرنسي، بعد أن انقطع اتصالنا بحكومتنا، فكانت الحكومة الفرنسية تدفع مخصصاتنا لحكومة فيشي باسم قرض شرف للحكومة السورية، وبذلك تعهدت فرنسا بدفع رواتب البعثة التي كنت فيها، وعدد أفرادها/٢٥٠/طالباً، فكنت آتي كل شهر وآخذ مرتبي من باريس. وقد حدث هذا كله بعد ذهاب لجنة من الحكومة الألمانية إلى سورية، وبحثت وضعنا في فرنسا مع الحكومة السورية. واستمرت هذه الحال حتى احتلت إنكلترا سورية.

في هذا الوقت طلبت السلطات الفرنسية مني أن أعين مكان سكني، فرفضت، فكان جواب السلطة: إن لم تفعل قطعنا عنك المخصصات. أما إذا عيّنتَ مكان سكنك أوصلناها إليك. وما كان أمامي إلا أن أعين لهم مكان سكني؛ وعندئذ دخلت الشرطة عليّ، وعرفت عنواني. وبعد معرفة عنواني طوّق رجال «الملّيس» الفرنسي القرية التي أنا فيها، وقبضوا على كل الرجال فيها، وهي قرية لا يزيد عدد سكانها من الرجال على ٢٠٠ شخص، وكنت أنا في جملة من قبض عليهم، ووضعوا المقبوض عليهم في ساحة، وراحوا يطلقون النار عليهم واحداً إثر واحد!

س ـ هل كان إطلاق النار من قبَل الألمان؟

= كان من «الملّيس» الفرنسي، وقائدهم ضابط ألماني.

س ـ ما أصل كلمة «ملّيس»؟ إنها كلمة معروفة في سورية في عهد الانتداب الفرنسي.

= (الملّيس) هو الجندي الذي ينضم إلى الجيش رافداً ومساعداً له، دون أن تكون له صفة الجندية الرسمية. فهي كلمة فرنسية.

وهكذا بدأ رجال (الملّيس) يقتلون رجال القرية، يسجلون اسم الرجل ويتعرفون عليه، ثم يطلقون عليه النار، فيسقط، وبقية الرجال ينظرون وينتظرون دورهم.

وجاء دوري، وطلبوا أوراقي، فقدمتها لهم وفيها التوصية من الجيش الألماني التي ذهبت بها إلى ألمانيا بسبب الخلاف بين المفتي الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني، وكان الضابط الذي يطلب الأوراق ألمانياً، والمنفّذون من (الملّيس) الفرنسي. وقرأ الضابط التوصية، وفيها طلب من القيادة العليا بمساعدة فلان في المرور، فصفعني الضابط الألماني وقال: هذه الأوراق مزوّرة، وأنت ثابت عليك أنك مشترك في مقاومة الألمان في القرية الفلانية التي قُتِل فيها عدد من ضباطهم، فعرفت حينئذ الأسباب التي دعت إلى هذه الحملة على القرية، وقلت لهم: عليكم أن تتصلوا بالسفارة الألمانية لتتأكدوا من صحة كلامي والوثائق التي أحملها. وبذلك كنت الوحيد الذي نجا من تلك المَقْتَلَة، فقبضوا عليّ ووضعوني في السجن حتى يحقّقوا في أمري. وهنا كانت زوجتي أم محمد رحمها الله تطلّ على الساحة الواقعة أمام بيتنا، وشهدت مقتل رجال القرية جميعاً، ورأت كيف صفعني الضابط وشكّ في الوثائق التي قدمتها إليه، فأدركت أن عليها أن تسرع بأقصى طاقتها إلى السفارة الألمانية لإنقاذي، وكانت مهمتها صعبة جداً، إذ القصف في الطرق على أشدّه، والقطارات معطّلة بسبب القصف، والناس تتنقّل بالدراجات، ومع ذلك وصلت السفارة وأبلغتها بوضعي الذي أنا فيه، وجاء الأمر بالإفراج عني.

هنالك وجدت أن التآمر عليّ لم يعد يطاق، وإذا ما نجوت هذه المرة، فما ينبغي أن أعرّض نفسي مرة أخرى للخطر، وعليّ أن أرحل، ورحلت إلى ألمانيا.

وهنا تنتهي الصفحة التي سطرنا فيها ما يتعلق بمرحلة القضية السورية والوثائق السرية ومرحلة الدراسة.

- زواج في الغربة

س. هنا نعود إلى ذكر المرحومة أم محمد، كيف تم زواجكم منها، وأنتم في الدراسة، لعلها كانت طالبة؟ وما دورها في دعمكم ومساعدتكم في أعمالكم الجهادية؟

= هذه لها قصة جاءت على خلاف ما أريد في فترة سفري إلى الدراسة.

س. كم كان عمركم لما دخلتم باريس؟

= كان عمري ٢٨ سنة.

س. ألم تفكروا بالزواج من فتاة سورية؟

= كنت من أنصار الزواج من فتاة سورية، وأنتقد الشباب الذين يتزوجون بأجنبيات، ولذلك كنت بعيداً عن الزواج بأجنبية. وكانت لغتي الفرنسية بحاجة إلى تقوية وتمرين، فرأيت أن من الأفضل لي أن أسكن عند عائلة فرنسية لا في فندق، لأقوّي لغتي بالحديث مع أفرادها، فأعلنت في جريدة حسب عادة الطلاب الذين يفتشون عن سكن عند عائلة، ويشترطون ما يريدون من شروط. وكان معي ابن نبيه العظمة، فأعلن كلٌّ منا إعلاناً. وسبب رغبتي في أن أقوم بصلواتي وعباداتي في جو هادئ نظيف، اشترطت أن تكون العائلة مؤلفة من شخصين مسنّين، لا يكون عندهم غيري، وليس لديهم أولاد، وما ذكرت البنات، وكانت رغبتي أن آكل وأشرب معهما على مائدة واحدة لتقوية لغتي. وكنت وزميلي نمرّ بالبيوت مفتشين عن بغيتنا، فمررنا ببيت، الزوج والزوجة فيه جاوزا الستين من العمر، وليس عندهما طالب آخر، ولا أولاد. وكان من شروطي أيضاً ألا يكون في الطعام لحم خنزير ولا مشروبات كحولية، وصادف أن الزوجين يعانيان من ضغط في الشرايين، وقد حرّما على نفسيهما الخمر.

ولذلك أسرعا في إرسال جواب الموافقة لتوافر الشروط، ولرغبتهما بمستأجر يستأنسان به. ولما زرناهما وقع الاختيار على السكن معهما.

س ـ في أي حي في باريس؟

= في حي باب أورليان، سكنت عندهما، وبعد مضي بضعة أشهر قالا: نحن لدينا بنت، هي الآن في مدرسة الراهبات في لندن وستأتي قريباً لزيارتنا، ونحن قلنا لك ليس لدينا أولاد، لأنها في لندن.

س ـ ما السبب في اختيارهم لندن؟ هل مذهبهم بروتستانت؟

= لا، مذهبهم كاثوليك، ولكن الأم أخوها راهب، والأب أخوه راهب، وهما محافظان، ولذلك أرسلا ابنتهما إلى لندن، لا لتكون راهبة، ولكن لتدرس المرحلة الثانوية في مدرسة دينية بعيدة عن الوسط المتحلّل.

وكان لديهما حفيدة من ابنة ثانية لهما متوفاة، احتفظا بها ذكرى لابنتهما الراحلة، وعمر هذه الحفيدة ٦-٧ سنوات، وهكذا تم التعارف بيني وبين هذه الأسرة التي أقمت عندها.

ومما اعتادت على رؤيته مثل هذه الأسر التي تؤجر غرفاً للطلاب أن ترى الفتيات داخلات خارجات من عند الطلاب الشباب، وقد يكون في الغرف المؤجَّرة لقاءات وعكوف على شرب الخمر وغير ذلك من التصرفات التي يعدونها من الحرية الشخصية التي لا يتدخلون فيها.

ولما سكنت عند هذه الأسرة رأت من سلوكي ما لم تره من غيري؛ فقد مرّ على سكني ثلاثة أشهر لم يروا خلالها فتاة دخلت عليّ أو خرجت من عندي، ورأوني لا أشرب الخمر، وأصلّي، فاسترعى ذلك كله انتباههم، وكان يحدث

بيننا حوار ونقاش حول الصلاة، ما هي؟ وكيف تكون؟ وكلما التقينا على مائدة الطعام كان الحديث كله يدور حول الإسلام والصلاة وما إلى ذلك.

وجاء في هذه الأثناء شكري القوتلي رحمه الله، وكانت المعركة محتدمة بيننا وبين هنري هيه، فتحدث الزوجان عن فرنسا ومظالمها وسيئاتها واستعبادها الشعوب، وقال الزوج صاحب البيت، وهو ضابط قديم، يحمل أعظم الأوسمة الحربية في الحرب العالمية الأولى، قال: «إني أريد بعدما سمعت منك معاناتكم الاستعمار الفرنسي ألا تبقوا فرنسياً واحداً في بلادكم». وكانت زوجته تحمل المشاعر نفسها في مثل هذه الأحاديث.

وجاءت ابنتهما، ورأيا أن من عادتي ألا أبادر إلى الحديث مع الفتيات، ففاتحاني بشأن الزواج منها بقولهما: نحن ليس لدينا سوى هذه البنت، وإنا من الناس المحافظين، ولذلك وضعناها في مدرسة الراهبات لنخفظها من المحيط المتحلل، ولقد رأيناك تصلي وتصوم وتؤدي عباداتك، ولا تدخل عليك فتاة ولا تخرج من عندك، ولهذا نريد أن نزوجك ابنتنا! فتملكتني الدهشة، وقلت لهما: ولكنني رجل مسلم، وابنتكما مسيحية، فقالا: لقد فهمنا منك الإسلام، ولا مانع لدينا أن تُسلِمَ ابنتنا إذا أرادت! ولم أدر ماذا أقول لهما؟!...

وجاءت الفتاة، وقدّماها إليّ، وجرى التعارف بيننا، وبقيت ملتزمة غرفتها تنام فيها. وأذكر أنني قلت لها: يا آنسة، إنك اعتدت على العيش في أعظم أحياء باريس وأرقاها حياة أرستقراطية متحضّرة، فكيف تستطيعين العيش معي في بلدي، حيث لا توجد سيارات تجوب الشوارع، بل الشوارع ممتلئة بالحمير والبغال والجمال والبقر، وأخذت أعدّد لها أسوأ الجوانب المعروفة في ذلك الزمن عنا، وأطوي عنها المحاسن إلا عن الإسلام، رغبة مني في صرفها

عن فكرة الزواج بالحسنى، وأكرر عبارات الثناء على الحياة عندهم، مثل أنتم متعودون على حياة باريس، بلد الحضارة والنور، وأذكّرها بأنني مسلم، وأنها ليست مسلمة، والنساء عندنا محجبات، وأكثر من ذكر السلبيات والجوانب غير المشجّعة في حياتنا. فما كان جوابها إلا أن قالت: أما الإسلام، فقد فهمت من أهلي أشياء عنه حبّبتني فيه، فهو ليس عقبة، وإني لعلى استعداد لاعتناقه، قلت: والحياة في بلادي وقد عرضت لك صوراً منها، فقالت: أنا سأتزوجك لأعيش معك لا لأعيش في الشوارع، فنحن محافظون كما رأيت من حياة أهلي، نحب المحافظين، وأنت محافظ، وهذا يكفيني. إن الشباب عندنا يتزوج، ويكون له بعد زواجه عشرون صديقة. أما أنتم المسلمون فتعيشون مع زوجة وليس لكم خدينات، وإن كل ما يهمني أن أكون لشخص يخلص لي وأخلص له. فأوقعتني في حرج كبير، إذجاءتني من نقطة الضعف، وأفهمتني أن إسلامها متوقف على الزواج مني. وكنت في ريعان الشباب، فترجّح لديّ أن أحصن نفسي وأحصنها، فضلاً على مثوبة دخولها في الإسلام.

س ـ هل حدث هذا الحوار والتفاهم بينكما فور حضورها؟

= ما أبدته من اقتناع بالزواج مني كان بعد مجيئها وسماعها من أهلها عني الشيء الكثير؛ فحديثي مع أهلها يومياً على مائدة الطعام عن الإسلام، وكان الطلاب يجتمعون عندي بصفتي رئيس جمعية الطلاب العرب، ونصدر نشرات ضد فرنسا من البيت، فكوّن والدها عن ديني وسلوكي فكرة واضحة، وأبديا تجاوباً في العمل الإعلامي الذي أقوم به مفنّداً مساوئ فرنسا، وكنت أرسل هذه النشرات إلى شكري القوتلي مع صاحب الدار والد زوجتي فيما بعد، وتردني الجرائد من سورية إلى البيت للتعرف على أخبار سورية، ومن هذا كله كوّن والداها عني فكرة واضحة أنني صاحب مبادئ أضحّي في سبيلها، وأبتعد

عن نزغات الشيطان وأنا في ميعة الصبا وريعان الشباب؛ ولذلك وصلا إلى نتيجة أفضيا بها إليّ: إذا كان إسلام ابنتنا هو الشرط الأساسي عندك، فنحن لا مانع لدينا من إسلامها، فتفاهم أنت معها. ومن هنا بدأ الحوار بيني وبينها.

س ـ في أي سنة تم الزواج؟

= في مطلع سنة ١٩٤٠، أي بعد سنة من وصولي إلى باريس.

س ـ هل أتمت دراستها؟

= لا، حصلت على الثانوية فقط.

س ـ هذا يعني أنها لم تفدكم علمياً كما حصل لطه حسين الذي علمته زوجته الفرنسية اللغة اللاتينية.

= لا لا، لم تكن تعرف سوى الفرنسية، وشيء من الإنكليزية، ولم تتجاوز في دراستها الثانوية.

س ـ هل أسلمت قبل الزواج؟

= نعم، أسلمت، وكانت قد أبدت استعدادها للإسلام فوراً، وهذا ما شكّل عندي نقطة الضعف كما أسلفت، فلم يعد أمامي إلا الموافقة.

س ـ لا شك أنكم كسبتم في إسلامها ثواباً كبيراً.

= لقد تغلب عليّ الدافع الديني، والرغبة في إحصان نفسي، وما كانت جميلة تغريني بجمالها، ولكنها مستقيمة. ومما لا ريب فيه أنني كسائر الشباب كنت أجد صعوبات جمّة في التغلب على الإغراء بفضل الله ولطفه؛ فمن اليوم الأول لوصولي مرسيليا، دخلت القطار في الدرجة الأولى، فرأيت وأنا في الطريق إلى باريس شاباً أطبق على شفتي فتاة يقبلها جهاراً، وهذا الانحلال الخلقي

كثير في فرنسا، وكل يوم كنا نشاهد منه صوراً مثيرة لم نألفها في بلادنا. فلما يسّر الله لي أمر الزواج على النحو الذي بسطته آنفاً، قلت: هذا أمر يريده الله لي ليلطف بي ويحفظني.

وبعد الزواج أسهمت المرحومة أم محمد معي في كثير من المواقف والمعارك وفي تهريب الحاج أمين الحسيني. وقد أسلفت صنيعها يوم اعتقالي في القرية بسبب تعطيلنا الجامعة، وكيف أسرعت إلى السفارة الألمانية وأبلغتها تأخير قتلي حتى يتثبتوا من صحة الوثيقة التي أحملها، فأصدرت أمرها بالإفراج عني، وأطلق سراحي.

ومنذ ذلك اليوم أحسست أنني لست بآمن على حياتي، إن لم ينجحوا هذه المرة بقتلي، فسينجحون في مرة قادمة، ولذلك عقدت العزم على الهرب بالاتفاق مع الحاج أمين الحسيني، وانتقلنا إلى ألمانيا، ولبثنا هناك إلى أن سقطت فرنسا.

٥- الدواليبي يكشف دور فوزي القاوقجي

س - ذكرتم أن الوثيقة التي كانت معكم وأنقذتكم من القتل كانت بسبب تدخلكم في الخلاف بين رشيد عالي الكيلاني والحاج أمين الحسيني، فما قصة هذا الخلاف؟

= وقع الخلاف بين هذين الرجلين بعد وصولهما إلى ألمانيا عقب إخفاق رشيد عالي الكيلاني في ثورته في العراق ضد الإنكليز، وكان فوزي القاوقجي مكلفاً من الإنكليز بمهمة الإفساد بينهما. وما كان أحد يعرف عن فوزي القاوقجي إلا أنه بطل ثائر على الإنكليز في فلسطين، وأنا كنت واضعاً صورته في بيتي على

أنه مجاهد. ولقصة تعامله مع الإنكليز ولعبه على الحبلين تفاصيل، أجملها فيما يلي:

وصل القاوقجي إلى باريس، وجاء إليّ قائلاً: يا أخي، هذا الحاج أمين رجل يريد أن تكون القضية قضية فلسطين فقط، ولا يريد أن تكون القضية عربية، في حين يريد رشيد عالي الكيلاني أن تكون القضية عربية شاملة، ولذلك اختلفا. وطلب منّا كتاباً في تأييد رشيد عالي الكيلاني، فقلنا له: يا أخي، نحن لا نعرف هذه الشخصية ولا هذه الشخصية. وجمعتُ الهيئة الإدارية لجمعية الطلاب العرب في باريس، وكان فيها عزت الطرابلسي من سورية، وعمر الحكيم من سورية أيضاً، وإبراهيم حافظ من تونس، واستمعوا إلى فوزي القاوقجي، وقالوا: نحن لا نستطيع أن نشجب واحداً ونؤيد الآخر، لأننا لا نعرف عن الاثنين إلا أنهما يجابهان إنكلترا. وإذا أردتم أن نجعل المفاوضة لرشيد عالي فقط وليست لاثنين فإننا نقدم رأينا مكتوباً كما يلي: تتألف هيئة من رشيد عالي الكيلاني والمفتي، يكون المفاوض فيها رشيد عالي لإقامة حكومة عربية، ويكون المفتي وجماعته مستشارين كمجلس نواب يؤيدونه، وبذلك نتيح لرشيد عالي أن يفاوض إذا كان يطلب المفاوضات، ولكنه خاضع لمشورة مجلس النواب برئاسة المفتي. وكان هناك عادل أرسلان، ويمكن أن ينضم إلى الحاج أمين في جملة المستشارين. وقلنا لفوزي القاوقجي: هذا رأينا، ولن نحيد عنه. فوافق على ذلك، وكان معه منير الريّس من الذين اشتركوا معه في جبهة العراق، وسلمناهما الكتاب.

وبعد شهر جاء منير الريّس وقال: يا سيدي تبين لنا من أمر فوزي القاوقجي ما لم يكن في الحسبان، وأن الدائرة تدور علينا. كنا مع القاوقجي

في الجيش لمقاومة الإنكليز فكان يمنعنا من مقاومتهم. والآن غيرّ الكتاب الذي أعطيتموه، وكتب كتاباً آخر جاء فيه: إن جمعية الطلاب العرب تؤيد رشيد عالي الكيلاني، وقدمه باسمكم مزوراً إلى الألمان، فذهبنا إلى السفير الألماني واعترضنا على الكتاب المقدَّم، وبيّنا له أننا لم نسلّم فوزي القاوقجي الكتاب كما وصلهم، وعندئذ طلبت وزارة الخارجية الألمانية في أن آتي إلى ألمانيا لأجل المصالحة أو التفاهم لمعرفة الحقيقة. وهكذا كشف منير الريس حقيقة القاوقجي، وبين أننا كنا مخدوعين فيه.

وذهبت إلى ألمانيا بدعوة من وزارة الخارجية، فنزلت في فندق. وبعث إليّ الحاج أمين، وكنت لا أعرف شخصه بعد، ولكن أعرف سمعته الطيبة. وكذلك زارني رشيد عالي الكيلاني، وكنت لا أعرف شخصه، ولكن أعرف أنه ثائر ضد إنكلترا. وقد جاء كل من الرجلين لزيارتي، وطلبا أن تكون نفقتي في ألمانيا على حسابهما. فقلت لهما: نحن لجنة مؤلفة مني ومن عزت الطرابلسي وعمر الحكيم، جئنا لنوفّق بينكما، لا نستطيع أن نتحمّل نفقتنا، ولا نقبل أن تكون نفقتنا على حساب أحدكما، ولذلك نقترح أن يدفع كل واحد منكما ٥٠٪ من قائمة النفقات كل أسبوع، فوافقا. وكانت السيارة تأتينا في الصباح، فنذهب إلى المفتي ونسمع منه، ثم نذهب إلى رشيد عالي الكيلاني ونسمع منه. وقد كذّب المفتي كل ما قيل عنه، وقال: رأيي على العكس تماماً، القضية العربية قضية واحدة، من الرباط إلى إسكندرون، وإني لما رأيت الألمان يتقاربون مع إيطاليا، ويفكرون بجعل سورية تابعة لها إرضاء لموسوليني بعد النصر، هددت بالانسحاب من التعامل مع الألمان، وأفهمتهم أن القضية العربية قضية واحدة. أما فوزي القاوقجي فقال: إن الألمان أبلغوا المفتي أن له أن يبحث في قضية

فلسطين، ولرشيد عالي أن يبحث في قضية العراق، وليس لهما أن يتدخلا في شيء آخر. ولما نقلنا هذا الكلام إلى المفتي قال: هذا كذب، أنا هددت ألمانيا من جراء سياستها، وأصررت على أن قضيتنا العربية واحدة من مراكش - لأن شمال إفريقيا في ذلك الوقت سقط في يد فرنسا - إلى سورية والعراق أيضاً، وأما رشيد عالي فهو الذي قبل أن تكون قضيته محصورة في العراق فقط. وانتقلنا بعد الظهر إلى رشيد عالي وقلنا له: أنت تقول: قضيتك العراق، والمفتي يقول: قضيته القضية العربية، وفوزي القاوقجي يقول العكس: أنت تريد القضية العربية، والمفتي يريد قضية فلسطين. فقال: الذي نقله لكم فوزي هو الصحيح: المفتي يريد فلسطين فقط، وأنا أفهمته أنني لا أتنازل عن القضية العربية، ولا أقبل بقضية العراق فقط. وعدنا إلى المفتي وطلبنا منه أن يقدم الأدلة المقنعة بكذب الطرف الآخر.

ووقعنا في حرج وحيرة: فنحن جئنا لأول مرة للاتصال بهؤلاء الزعماء والتوسط فيما بينهم، وهذا الذي سمعناه منهم، فمن تصدّق؟

كان هذا الاتصال بهم بعد ثورة ١٩٤١ في العراق. وفي هذا العام كنت قد أنهيت دراستي وأعددت الأطروحة. أما عزت الطرابلسي فكان عليه أن يعود إلى البلاد لأنه مرتبط بعمل تدريسي، وكذلك عمر الحكيم يود الرجوع، فكدت أقرر الرجوع معهم، لولا لقائي بواصف كمال أحد الإخوة الفلسطينيين الذي صار فيما بعد مدير البنك الوطني الفلسطيني، ولا يزال حياً يرزق، وكان من المعادين للإنكليز، ولم يكن من جماعة المفتي، وإنما هو ممن لجؤوا إلى سورية، وكنت أعرفه فقلت له: يا واصف، القصة بين المفتي ورشيد عالي كيت وكيت. هذا يكذّب هذا، وهذا يكذّب هذا، ونحن في حيرة لا نعرف أيهما الصادق!

الحاج أمين يقول: أنا أفهمت ألمانيا أن القضية العربية واحدة، والألمان وافقوني على هذا الأساس، وعليّ أنا الباقي. وأما رشيد عالي فقيل: إنه لا يريد غير العراق، ولما قابلناه قال العكس، إنه رفض تجزئة القضية العربية والمفتي هو الذي قبل. وأنا رئيس جمعية الطلاب العرب ما الذي يوصلني إلى وزير الخارجية الألمانية لأبحث معه الموضوع بالتفصيل؟ فرجاني واصف كمال أن أبقى بعد أن أنهيت دراستي، وألا أترك المفتي وحده، وزاد: أنا لست من جماعة المفتي، ولكن الكذاب هو رشيد عالي، والذي يثير المشكلات هو فوزي القاوقجي، وثبت لنا الآن أنه هو مصدر الفتنة.

أشرت على الإخوان أعضاء اللجنة بالسفر، وبقيت لمتابعة القضية التي جئنا من أجلها، وكان عليّ أن أتصل بوزارة الخارجية الألمانية بوصفي مدعوّاً من طرفها لأصلح بين الرجلين، وكان هناك وزير الشؤون العربية، فحاولت الاتصال به أكثر من مرة، ولما وجدته قلت له: أنا فلان رئيس جمعية الطلاب العرب، ومعي دعوة منكم، وجئت إلى هنا في مهمة الإصلاح بين الرجلين، ووصلت إلى مرحلة في المباحثات تتطلب كشف الحقيقة عن طريق وزارة الخارجية الألمانية، وإلا سأعود مخفقاً في وساطتي، فالرجاء تعيين موعد لي ألقاكم فيه، وكان الوزير يتكلم الفرنسية. وفي اليوم الثاني قابلته، وذكرت له أن رشيد عالي يقول: إنكم أبلغتموه بأنه لا توجد في حسبانكم قضية عربية، وأن قضيته هي العراق، وقضية المفتي هي فلسطين، فرفض رشيد عالي وقبل الحاج أمين. وإذا هو يثور ويقول بانفعال: هذا كذّاب. قلت له: وهل ما قاله المفتي خطأ؟ قال: المفتي يقول الصحيح، لكن من الذي خبّركم بهذا الكلام عنا؟ قلت: الذي خبّرنا هو فوزي القاوقجي. قال: هذا الرجل إذاً يهدّم فينا. قلت له:

أحضره. فأحضروا أولاً رشيد عالي وأنا حاضر، وبحضور وزير الشؤون العربية في وزارة الخارجية الألمانية، فأعدت الحديث الذي رواه المفتي علي لسان رشيد عالي وهو: إنكم أبلغتم الاثنين أن لا قضية عربية، وإنما واحد في فلسطين وواحد في العراق، فرفض رشيد عالي إلا أن تكون القضية عربية شاملة أما المفتي فيقول: لا، لقد قبلتم أنتم أن تكون قضيتنا قضية عربية شاملة، ولكن رشيد عالي رفض أن يشتغل إلا لقضية العراق. وهنا اصفرّ وجه رشيد عالي، وقال: ربما هناك شيء من الإبهام، فقلتُ: أنا سمعت هذا الكلام من فوزي القاوقجي بحضور منير الريس. وفي اليوم الثاني قابلوا منير الريّس وأحضروا فوزي القاوقجي ووضعوه تحت المراقبة وعنّفوه. وقلنا لهم: هذا هو الكتاب الأصلي وقدمناه لهم، فقالوا: هذا إذن فوزي القاوقي الذي تلاعب علينا، فزوّر الكتاب، وخبّر بشيء غير صحيح.

وكان لفوزي القاوقجي مكتب تجسّس في تركية لحساب ألمانيا، يأخذ نفقته من وزارة الخارجية الألمانية دون علم الجيش الألماني، ويأخذ نفقته أيضاً من الجيش دون علم الخارجية، وهذا أيضاً مما جعل الألمان يضعونه تحت المراقبة. وكان له رسول يرسله ليأتي بالأخبار عن إنكلترا من وراء الخطوط، فكان في الواقع ينقل الأخبار إلى إنكلترا عن مواقع السلاح الخطِر الذي اخترعه الألمان، من قنابل ذرية وغيرها، وقد ضربت هذه المواقع كلها.

س - ألم تكشفه ألمانيا؟

= اشتبهوا به بعد الحادث، ووضعوه تحت المراقبة إلى أن انكشف أمره، وقبضوا على رسوله الخاص به، وأمسكوا الرسالة التي كان ينقلها، وأعدموه. ولكن بعد فوات الأوان، إذ كانت المعامل الذرية كلها قد نُسِفت، وكان غو بلزر وزير

الإعلام الألماني يقول سننتصر، وانتصارنا متوقف على اختراعنا للأسلحة، وما كان يدور في خَلَده أن أسرار مخترعاتهم تصل إلى إنكلترا أولاً بأول.

كانت هناك حوادث ووقائع تثبت تعامل فوزي القاوقجي مع الإنكليز في الوقت الذي ارتسم في أذهان الناس أنه بطل يقاوم الإنكليز، ومن هذه الوقائع: مرابطته في الصحراء للتصدي لكلوب باشا: وحدث هذا بعد إخفاقه في ثورة سنة ١٩٣٦ في فلسطين، ولجوئه إلى العراق الثائر ضد الإنكليز بزعامة رشيد عالي الكيلاني، فقد شاع بعد الانقلاب الذي قام به رشيد عالي على الإنكليز واستلامه السلطات أن كلوب باشا سيأتي من الأردن لنجدة الإنكليز، فتقدم فوزي القاوقجي وتطوع أن يؤلف قوة ترابط في الصحراء للتصدّي لكلوب باشا، فأرسل رشيد عالي معه قوة لهذا الغرض. وتقدمه للمرابطة دليل على تعامله مع الإنكليز.

ومن هذه الوقائع ما حكاه رفاقه من الثوار الذين كانوا معه، من أن طائرة إنكليزية كانت تأتي إلى الصحراء، وتلقي مواسير فيها رسائل، وكلّف أشخاصاً بجمعها وتسليمها إليه، فكان يأخذ الماسورة ويقرأ الرسالة التي في داخلها، وما كان يطلع أحداً على الرسالة، إلى أن مرت القوات الإنكليزية ومنعنا من التصدّي لها، وبعد مدة سقط مطار الحبانية ثم سقطت بغداد.

كان فوزي القاوقجي يهدف إلى الإيقاع بين الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني؛ لأن إيقاع الاثنين – وهما خصمان لإنكلترا – في الحبال يسقط الاثنين، ويحمل ألمانيا على التخلص منهما، أو جعلهما على الهامش، وهذا ما كان يعمل له فوزي القاوقجي بالتآمر مع الإنكليز.

ولما قامت الثورة الفلسطينية بعد توقيع المعاهدة السورية الفرنسية طلب المفتي من ألمانيا السلاح عن طريق الأمير عادل أرسلان، فوافقوا على إعطائه سلاحاً على أن يعين مكان إنزاله، وكنت أنا في ذلك الحين منتدباً إلى الإسكندرون، كما سلف القول، فاستدعاني شكري القوتلي، وكان نائباً لرئيس الوزراء جميل مردم، وقال لي: يا فلان أريد أن تدرس لي مكاناً في إسكندرون، ننزل فيه أسلحة سرية، ومن غير أن أسأله عن شيء درست المنطقة وعينت المكان ورتّبت المراكب الصغيرة التي ستفرغ فيها الأسلحة، وهيأت العرب الذين سينقلون الأسلحة إلى المكان المحدد من تلك المراكب. وبعد شهر أخبرني شكري القوتلي بإلغاء العملية، وما سألته عن السبب. وعلمت فيما بعد من (غروبا) وزير الشؤون العربية في الخارجية الألمانية أنه أطلع فوزي القاوقجي على تلك العملية السرية، فنقلها إلى إنكلترا، وهذا ما دعا الحكومة الألمانية إلى عزل غروبا من وزارة الشؤون العربية، ويأمر هتلر بالتحقيق معه وإعدامه، ويبدأ التحقيق معه، ويرسلونه إلى باريس ليقوم مؤقتاً بترجمة الوثائق السرية من الفرنسية إلى الألمانية، وهو مهدد منفي، وكنت في باريس للاجتماع بالمفتي، فاستدعاني غروبا وقال لي: يا سيدي، أنت لم يكشف لك أحد تفاصيل القصة. قلت: وما تفاصيلها؟ قال:

طلب المفتي سلاحاً من الألمان، على أن يأتي عن طريق سورية، ثم طلب المفتي أن يتحول إلى بغداد عن طريق ياسين باشا الهاشمي، وقد كلفني هتلر بذلك، فاتفقت مع ياسين باشا وبحضور المفتي على إنزاله في سورية، ولكن خشية انكشافه حولوه إلى بغداد، ومنها يُنقَل إلى الثورة في فلسطين عام ١٩٣٦ التي بدا عليها الإخفاق، فأحبوا أن ينجدوها. وكان إرسال الأسلحة سراً

بيننا نحن الثلاثة. وكان فوزي القاوقجي عائداً من فلسطين الثائرة، ويُستقبل استقبال الفاتحين، فرأيت من الضروري التعرف عليه.

س ـ هل طلب التعرف عليه في بغداد؟

= نعم، قال: فبعثت إليه أنني أود أن أراك في المكان الذي تَحدده في بغداد . وحدّد لي فوزي القاوقجي المكان والزمان، وذهبت إلى لقائه مصطحباً معي أحد رجال المخابرات التابعين لي، وببلاهة أفضيت إليه بخبر الأسلحة، وأنا متأثر بالاستقبال الذي استُقبل به على أنه بطل ضد الإنكليز، وقلت له: إنك أنت ستقود الباخرة التي تحمل السلاح قريباً في عرض البحر. وهذا خبر ما كان يعرفه سوى الحاج أمين الحسيني وياسين باشا الهاشمي.

ويستأنف غروبا حديثه قائلاً: بعد أربع وعشرين ساعة من هذا اللقاء، تلقّى ياسين باشا الهاشمي إنذاراً من إنكلترا مفاده أن الذخائر والأسلحة وصلت البحر الأبيض المتوسط؛ فإما أن تردّوها، وإما أن نعزلكم، فيجيء ياسين باشا إليّ، وهو في أشد حالات الانفعال والغضب، ويبلغني الخبر، وهو يشتم المفتي، ظنّاً منه أن المفتي أفشى سر الأسلحة. ولما حضر المفتي أقسم الأيمان أنه لم يحدث بالسرّ أحداً، وما دار في ذهن أحد الرجلين أنني أنا الذي أفشيت السرّ حين حدثت فوزي القاوقجي بأمر الأسلحة. وما كنت أظن بفوزي القاوقجي، لولا أنك حدثتني بأمر الرسالة التي زيّفها وانكشاف القاوقجي لدى الألمان ووضعه تحت المراقبة. وإني الآن متهم ومؤاخذ بإطلاع القاوقجي على أسرار الألمان، والتحقيقات جارية في ذلك، ولذلك عُزِلتُ من وظيفتي، وأبعدتُ إلى فرنسا مؤقتاً ريثما تتم التحقيقات، وإني مهدد بالقتل من هتلر، ولا ينقذني إلا المفتي، فرجائي أن تتوسط لي لدى المفتي بأن يدخل على هتلر، ويبين له أن

ما فعلته كان عن حسن نية وبراءة وما كنت أحسب أن فوزي القاوقجي كان يعمل لحساب إنكلترا. ولم يسعني إلا أن أذهب إلى المفتي وأبلغه ذلك.

س - هل نجا غروبا من الإعدام؟

= نعم، لم يعدم. أما أنا فأول شيء فعلته بعد هذه الحادثة أنني مزقت صورة فوزي القاوقجي التي كنت أعلقها في بيتي.

س - أو لم يفكر الألمان بإعدام فوزي القاوقجي؟

= إعدامه كان سيحدث ردة فعل عند الحاج أمين وعند العرب؛ ولذلك اكتفوا بوضعه تحت المراقبة، وتبين لهم أن هناك رسائل وخرائط كان يرسلها إلى أماكن معينة.

س - كيف اشترك فوزي القاوقجي بعد ذلك في حرب فلسطين أيام شكري القوتلي؟ وكيف كانت له قيادة الجيش سنة ١٩٤٨ لما ذهب المتطوعون الإسلاميون وعلى رأسهم الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله؟

= ما كان يعرف حقيقة فوزي القاوقجي غير المفتي، والمفتي رفض أن يسلموه الجبهة، وياسين باشا الهاشمي كان يعتقد أن المفتي هو الذي أفشى سر الأسلحة، والحقيقة أن المفتي بريء من هذه التهمة، وعنده المعلومات الكافية عن القاوقجي، وصادف أن توفي ياسين باشا الهاشمي فوضعوا أخاه طه الهاشمي قائداً للجيش، ومعه القاوقجي لأن سمعته لازالت طاغية. وقد اعترض المفتي على اشتراك القاوقجي في القيادة فلم يردّوا عليه، ولم يأبهوا باعتراضه. وهكذا كان شأن القاوقجي الذي منع السلاح عن عبدالقادر الحسيني حتى قُتِل وسقطت القدس، وبعد ذلك أعطى الإنكليز دبابات لسورية ودبابات للقاوقجي، فدخل بها من الخليل وسلمها لإسرائيل عند انسحابه من

الجليل، وكان أخي مصطفى معه، فما أخذا من دبابات معاً بقيت مع أخي، أما الدبابات التي استلمها القاوقجي وحده فسلّمها إلى اليهود.

ولما قُتِل حسني الزعيم، وانتُخِبت الهيئة التأسيسية، وجاء هاشم الأتاسي إلى الحكم في سنة ١٩٥٠، جاء وفد من العراق من أجل ضم سورية إلى العراق، وهو مشروع كنت قاومته وعارضته. وفي هذا الوقت قَدِم من بيروت فوزي القاوقجي وعادل العظمة، ليروِّجا للمشروع، فأسرعت وأبلغت هاشم الأتاسي رئيس الجمهورية وناظم القدسي رئيس الحكومة بمجيئهما، وقصصت عليهما قصة القاوقجي، فقال هاشم الأتاسي: لقد بلغني هذا الشيء، وقال ناظم القدسي: يلزم أن نوقفه، فقلت: لا توقفوه، فإيقافه سيسبّب مشكلات؛ لأنه رجل يتعاون من الإنكليز والجيش الإسرائيلي، ولكن الرأي العام يعدّه بطلاً مجاهداً، فاعتقالكم إياه سينكره الرأي العام، ويتوجه إليكم بتهمة التنكيل بالأبطال المجاهدين. فدعوه لي، سأحمله على الهرب. وجئت إلى فندق أورينت بالاس حيث كان ينزل هو وعادل العظمة، وقلت له: يافوزي بك، لقد قدّم الجيش السوري تقريره وذكر فيه أنك مسؤول عن الإخفاق في الجليل، وهو يجمع الآن الوثائق التي تدينك، وإنك في نظره متهم. وإنك لتعلم مكانتك عندي من دخولك بيتي ورؤيتك صورتَك معلقة على الجدار، وإني أنصحك الآن ألا تبيت هذه الليلة هنا. وما إن سمع مني هذا الكلام حتى جمع ثيابه وأغراضه وغادر الفندق هو ونبيه العظمة، وكفى الله المؤمنين القتال. وما قلته له من اتهام الجيش إياه كان حقيقة، فأخي مصطفى ورفاقه أثبتوا للجيش أنه كان يتعاون مع إسرائيل. وبعد ذلك عاد إلى مسقط رأسه طرابلس، وبقي فيها حتى مات.

س ـ ما أصوله وماضيه؟

= هو طرابلسي من طرابلس، كان في أثناء الانتداب ضابطاً في الجيش الفرنسي، وكان الجيش موحداً في سورية ولبنان. ولما هرب من الجيش الفرنسي والتحق بالثورة الفلسطينية كان التحاقه بغرض تخذيلها، وقد حقّق ذلك، وأخفقت الثورة الفلسطينية.

س ـ نعود إلى قصة وساطتكم بين رشيد عالي الكيلاني والمفتي، هل من فضل بيان فيها؟

= أوضحت فيما تقدم أننا عندما جئنا للوساطة والإصلاح كان رشيد عالي يقول: إنه لا يستطيع العمل مع المفتي؛ لأن المفتي يريد القضية الفلسطينية فقط، ويسعى للخلافة، والمفتي كان يقول العكس. ولم يعد بالإمكان كشف الحقيقة إلا بالاتصال بالخارجية الألمانية، واتصلنا بالخارجية الألمانية وتبين لنا أن الكذب كان من جانب رشيد عالي، وناقله فوزي القاوقجي لإسقاط الحاج أمين الحسيني كما أسلفت.

س ـ ما الغرض من اتهام المفتي ومحاربته؟

= الغرض إضعاف موقف المفتي؛ لأنه كان يقف موقفاً صلباً من إنكلترا، وتبين أن فوزي القاوقجي كان يتجسّس في ألمانيا لحساب إنكلترا لأغراض، منها إقصاء المفتي عن القيادة العربية، وقد انكشفت لعبة القاوقجي للألمان وعرفوا كل شيء، ولكن بعد فوات الأوان، إذ كانت الحرب في أواخرها. صحيح أنهم وضعوا القاوقجي تحت المراقبة، لكن بعد أن قدّم كل المعلومات لإنكلترا، وضُربت كل المناطق الذرية التي كانت تحت الأرض، وما كان يعرفها غير فوزي القاوقجي الذي زود الإنكليز بها، فزيارتي لألمانيا كشفت تلاعب فوزي القاوقجي الذي كان

جاسوساً لإنكلترا على ألمانيا برشيد عالي الكيلاني الذي كان متصفاً بالسذاجة والسطحية، لإقصاء المفتي، وما كان رشيد عالي خائناً، فقد قام بالثورة على إنكلترا، ولكن خطؤه أنه اعتمد على القاوقجي في منع إنكلترا من التدخل من الأردن لضرب الثورة في العراق، وكانت النتيجة أن القاوقجي ساعد في إدخال إنكلترا إلى العراق وسقوط رشيد عالي؛ وكان الناس يظنون القاوقجي ردءاً للثورة في العراق، في حين كان يتعاون مع الإنكليز لإسقاط رشيد عالي الكيلاني وقد نجح في ذلك، وطمع الإنكليز أن يقصوا الحاج أمين عن القيادة العربية بالطريقة نفسها، وإنه لسهل عليهم أن يحققوا بغيتهم ما دام لديهم مثل القاوقجي الذي لعب ذلك الدور القذر الذي تقشعر له الأبدان.

واتضح للألمان أخيراً أن لديهم عنصرين خطرين: رشيد عالي وفوزي القاوقجي، وأن الأخير هو المؤثر في الأول والدافع له؛ ومن هنا ازدادت قيمة المفتي عندهم. وكانت الفترة التي بين كشف وضع فوزي القاوقجي والانهيار الألماني قصيرة جداً، في سنة ١٩٤٤. وفي ربيع ١٩٤٥ انتهت الحرب العالمية الثانية. ولما سقطت ألمانيا صادر الفرنسيون بيتي، واضطررت للارتحال إلى ألمانيا.

٦- الرحلة الثانية إلى ألمانيا

س- هل يمكن الآن أن نتابع رحلتكم الثانية إلى ألمانيا، كيف دخلتموها؟ وهل قابلتم الحاج أمين الحسيني؟

= جاء ضابط ألماني ونقلني إلى ألمانيا، واتصلت فور وصولي بالحاج أمين الحسيني، وبقيت معه في برلين حتى اضطر الألمان أن يخلوا برلين بسبب القصف الشديد.

س ـ من كان معكم أيضاً غير الحاج أمين الحسيني؟

= كان معنا أكثر من خمسة عشر شخصاً، منهم: يوسف الرويسي من تونس، واصف كمال من فلسطين، وابن أخته إسحاق درويش، ظافر الرفاعي من حلب، رمزي آلاجاتي من حلب. حشرونا جميعاً في برلين التي تركّز عليها القصف الشديد، إذ تقوم في كل ليلة من أربعين إلى خمسين طائرة بقصفها، فصدرت أوامر هتلر بإخراجنا من برلين إلى المكان الذي يريد أن يلجأ إليه لمتابعة القتال، وهو التيرول النمساوي، ومدخله من نفق ومخرجه من نفق في جبال عالية. وكان مقرراً أن ينقل إلى هناك مكتب هتلر ومكتب المفتي ومكتب السفير الياباني فقط. وبعد استقرارنا في ذلك المكان شهرين كانت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، فقد ضُرِبت معامل الأسلحة الألمانية كلها، بما فيها المعامل الذرية، وأصبح الاستسلام أمراً لابد منه.

هنالك خابت آمال هتلر، ولم يُنقل مكتبه إلى المكان الذي نحن فيه، وإنما نُقِل مكتبا المفتي والسفير الألماني. وسلّم هتلر القيادة لغيره، وانتحر كما هو معروف، بعد أن أصدر أمره بنقل الحاج أمين ونقلنا معه بطائرة بعيدة المدى إلى المملكة العربية السعودية، ووعدت القيادة العامة بتنفيذ أمر هتلر، غير أن المطارات التي تحطّ الطائرات بعيدة المدى قُصِفت كلها، ودخلت قوات الحلفاء برلين، فقرر الألمان عندئذ نقل الحاج أمين في طائرة خاصة تقلع من أعالي الجبال، تحمل راكبين فقط إلى جانب الطيار إلى أحد المطارات التي لم يسيطر عليها الأمريكان بعد، وكان هذا بعد توقيع الهدنة، ونُقِل الحاج أمين ومعه راسم الخالدي وهو شاب من آل الخالدي المعروفين في فلسطين، وبقي ابن أخته معنا. ولما مرت الطائرة من سويسرا التي لم تطلق فيها صفارات

الإنذار طوال مـدة الحــرب من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٤٥، وأطلقت في هذا اليوم لمرور طائرة ألمانية فوقها، أُنزِلت الطائرة، وكانت تبليغات الحلفاء قد صدرت إلى الحكومة السويسرية أن المفتي إذا لجأ إليكم فاقبضوا عليه وسلموه إلى أقرب منطقة أمنية. وقُبِض على الحاج أمين وسُلم إلى أقرب جيش مرابط على حدود سويسرا، وكان الجيش الفرنسي. وكنا نحن نرصد الأخبار فعلمنا بعد ساعتين أو ثلاثة من إقلاع الطائرة أنه قُبِض على المفتي. وفي اليوم الثاني وصلت إلينا طليعة الجيش الأمريكي القادم من إيطاليا. فقد سقطت إيطاليا، والجزء التابع لها من أرض التيرول، وهو في شمالي إيطاليا. وكلفت سلطات الحلفاء أن يجمعوا جماعة المفتي كلهم في مكان واحد، فجمعونا في انتظار مجيء الجيش لاستلامنا. وهنا وقعت مَناحَة بين تسعة عشر شخصاً أحسّوا بدنوّ آجالهم بعد أن قُبِض على المفتي، وبأنهم سيُقتَلون، ويُشاع أنهم قُتِلوا في الحرب، ومن سيسأل عنا؟ ولذلك اجتمعنا في الليل لبحث هذا الأمر، وأصرّ الإخوان عليّ أن أهرب، وأذكر منهم الأخ فرحان الجندلي، وكان متحمساً لهربي، فقلت له: يا أخي، كيف أهرب وفي صحبتي زوجة وولد، ولا يوجد قطار ولا سيارة تقلنا، فأين الهرب؟

س ـ قبل الدخول في قصة الهرب من ألمانيا، نسأل: كم كانت المدة التي بقيتم فيها في ألمانيا في رحلتكم الثانية إليها؟ وهل هي أطول من الرحلة الأولى؟

= المدة في الرحلة الثانية كانت من شهر آب ١٩٤٤ إلى أيار ١٩٤٥.

س ـ والمدة في الرحلة الأولى كم كانت؟

= كان المقرر للرحلة الأولى خمسة عشر يوماً، نقوم فيها بالوساطة والمصالحة، ولكن حينما وقعت المشكلات المبسوطة آنفاً، رجع رفاقي، وأصرّ عليّ واصف

كمال أن أبقى لمعالجتها، فبقيت شهراً، اتصلت في خلاله بوزارة الخارجية الألمانية، وكشفنا عن طريقها حقيقة الخلاف بين المفتي ورشيد عالي الكيلاني.

س - هل قمتم في الرحلة الثانية بأعمال ذات بال؟

= لا، لا شيء.

٧- مغامرة الهرب من ألمانيا

س - والآن نرجو أن نسمع منكم قصة خروجكم من ألمانيا إلى فرنسا، وبصحبتكم أسرتكم، وما تعرضتم له من مخاطر، وألمانيا على وشك السقوط.

= كان الخروج من ألمانيا مرحلة من مراحل المغامرة الخيالية التي كتب الله لي القيام بها؛ ذلك أن الحاج أمين اعتُقِل، ونُقِل بطائرة خاصة، والجيش الأمريكي تتقدم طليعتُه من شمال إيطاليا، ولديهم معلومات عنا وعن مكاتبنا وتحركاتنا، وقد جمعونا كما ذكرت في انتظار مجيء الجيش الأمريكي لاستلامنا. وكان من الضروري جداً أن يهرب واحد منا، لينقل أخبارنا إلى العالم أننا أحياء بعد انتهاء الحرب، وإذا استطاع أحد منا الهرب فإنهم لا يجرؤون على قتلنا؛ لأن الهارب صار حجة عليهم وطلبوا مني الهروب، والهروب لا يكون ولا يمكن إلا في اتجاه روسيا؛ لأن روسيا في الشرق، والطرق في المنطقة التي نحن فيها تعجّ بالحركة، إذ كان فيها مليون جندي فرنسي أسرى في الجبال، ويجري نقلهم في قوافل سريعة إلى فرنسا، والطريق المفتوحة الوحيدة إلى فرنسا.

ولما وقع اختيار رفاقي عليّ للهرب، وبينت لهم صعوبة هربي مع أسرتي، عرضت فكرة الهرب على رمزي ألاجاتي وفرحان الجندلي وغيرهما، فقالوا: نحن خرجنا بعد أن سقطت حكومة فيشي، ودخل الجيش الإنكليزي سورية، وهربنا مع الألمان، فلا نستطيع أن نتجه إلى فرنسا، فقلت لهم: وأنا هارب من سجون فرنسا.

قالوا: أنت تجيد الفرنسية، وأقدر منا على تدبّر الأمر كيفما كان. وهكذا وُضِعتُ أمام أصعب قرار؛ لأنني خرجت من سجنهم وسأعود إليهم، وسيكون مصيري مجهولاً، ووقع سهم الاختيار عليّ، فجلست أفكّر في كيفية الخروج.

كان أمام البيت ساحة تجمّع للأسرى الذين بلغ عددهم أربعة ملايين، وكانوا ينادون كل يوم مَنْ هو من فرنسا، ويرغب بالعودة إليها فليركب في سيارة الشحن وينقلون كل يوم من مئة إلى مئتي أسير إلى فرنسا. وكان الألمان في أثناء احتلالهم فرنسا نزعوا بطاقاتنا وجوازاتنا التي تثبت أننا من رعايا دولة مستقلة تحت الانتداب وأعطونا بطاقات دولة تحت الحماية، وكنا رفضنا في ذلك الحين تلك البطاقات، ودخلنا في مشادّة مع المسؤول الفرنسي بلغت حدّ الضرب، ولكننا أُرغِمنا في النهاية على حمل تلك البطاقات، لأننا لا نستطيع أن نقبض رواتبنا ونتحرك إلا بتلك البطاقات الجديدة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي استفدت فيها من تلك البطاقة، إذ وقفت في الساحة التي يتجمّع فيها الأسرى أمام بيتنا، وأبرزت البطاقة قائلاً: أنا تحت الحماية فهل في الإمكان أن أخرج معكم؟ قال الضابط فوراً: هيا. وبذلك تقرر في هذه الليلة أن أسافر صباحاً، فجمعت أغراضي في الليل بكل سرّيّة، وكان ولدي محمد صغيراً في أول نطقه بالألمانية، وكان دائماً مع الخادمة في المطبخ، فسمعَتْ منه أننا مسافرون، وجاءت ورأتنا نحزم أمتعتنا، وكانت عيناً علينا تنقل أخبارنا إلى المسؤولين أولاً بأول، وكذلك صاحب البيت، فلما علِمَتْ بنيّتنا على السفر خرجت لتخبّر عنا، ولكن الدورية التي ستخبرها لن تصل قبل أربع وعشرين ساعة، وأُسقِط في يدي لمعرفتها عزمنا على السفر، فأسرعتُ بالخروج إلى الساحة، ومعي أسرتي وأمتعتي، وحُشِرنا في الشاحنة (الكميون) على أساس أننا رعايا دولة تحت الحماية، وراحت الشاحنات تخبّ بنا من

جبال التيرول إلى الألزاس واللورين على الحدود الفرنسية، والتي هي الآن ملحقة بفرنسا، وعاصمتها ستراسبورغ، وكان الوقت في الشتاء، وسمك الجليد متر. أوقفونا هناك على الحدود مع جموع الأسرى في العَراء، حيث يوجد ٤٠٠ - ٥٠٠ محقق، يجلسون تحت خيمة يتقدم إليهم الأسرى ونحن معهم، وقد قُسِّمنا إلى فئات، كل فئة تقف أمام محقق، يطرح على كل شخص أسئلة سريعة: هات هُوِّيتك، ما قصتك؟ ما سبب مجيئك؟ ماذا معك؟ لماذا أنت موجود هنا؟ ويسجل المحقق هذه المعلومات في ورقات أربع، بينها ورق (الكربون). وكان جوابي: اعتقلتني حكوم فيشي؛ لأنها عدّتني من الديغوليين، فهربت إلى ألمانيا عند الطلاب الألمان. فكتبوا على أوراقي: يتابع سفره إلى دمشق؛ لأنه تحت الحماية، وعذره أنه اعتُقِل.

س ـ هل اُعطيتم الأوراق لتملؤوها بأيديكم؟

= لا، هم يملؤونها، ويسلّمون كل واحد أربع نسخ، ويقف في الدور، وكنا مصطفّين بالمئات، وكل واحد يأتي دوره يستلمون منه ثلاث أوراق، ويدعون معه ورقة واحدة، هي كل ما لديه، من وثائق، لا يستطيع أن يتحرك أو يأكل إلا بها.

س ـ وزوجتكم، ألم يكن لديها وثيقة فرنسية؟ أو أي شيء آخر؟

= لا، هي تابعة لي، وأنا مسؤول عنها، وكلانا من رعايا دولة تحت الحماية. وكانوا كلما انتهوا من التحقيق مع أحد استحلفوه الأيمان أنه ما كتم شيئاً من المعلومات، وقلت لهم: ما كتمنا شيئاً من المعلومات. وجاء بعدي في الصف أحد الأسرى الفرنسيين من الذين كانوا يعملون في السوق السوداء، ويبيعون الزبدة وغيرها من المواد الغذائية، جاء وقال للمحقّقين: هذا فلان، رأيته مع المفتي والسفير الياباني. فأقبل عليّ المحقق يفتشني ويجرّني ويضربني، ويقول: أنت كذاب! ماذا كنت تعمل

عند السفير الياباني والحاج أمين الحسيني؟ هيا امش معي، فمشيت معه، ولما اقتربت من الذي يعطي الأوراق، يأخذ ورقة منها ويعطي ثلاثاً، أدركت أنه في زحمة العمل ليس لديه وقت لتغيير الأوراق، وإنما سيعدّل في بياناتها، فبدلاً من أن يكون مكتوباً عليها: يتابع سفره إلى دمشق، سيكتب: يُعتَقل، فسحبت ورق الكربون عن النسخ التحتية الثلاث، وفعلاً شطب عبارة (يتابع سفره إلى دمشق) وكتب مكانها (يُعتَقل)، واستلمت النسخة الأولى التي فيها عبارة (يعتقل)، وذهبت وسلّمت النسخ الثلاث وفيها كلها عبارة: (يتابع سفره إلى دمشق) وساعدني على هذا التدبير شدة الزحام الذي كان كالمحشر، وبذلك ضمنت سلامة أصل الوثائق التي سيرجعون إليها. ونقلونا بالقطار إلى الحدود الفرنسية.

وصرت كلما مشى القطار مسافة كيل من الأمتار مزقت جزءاً من الورقة التي معي وألقيتها من الشباك، حتى لا يمكن جمعها، حتى إذا وصلنا إلى ستراسبورغ في منتصف الليل كان الجيش محيطاً بالمحطة والأسرى واقفون وراء السياج، مزدحمون وقد علَتْ جلبتهم وضوضاؤهم وصياحهم: يا جورج، يا ميشيل، يا فلان، وأنا ليس معي ورقة، وقفت أنتظر دوري. وكنت أعرف أن هدايا من التبغ التركي كانت تأتي إلى مكتب المفتي؛ لأن تركية ما كانت داخلة في الحرب، وهدية الدخان أثمن هدية في فرنسا، حتى إنهم ليقولون: يستطيع المرء أن يشتري وزيراً في أثناء الحرب بسيجارة، والفتاة تبيع نفسها بسيجارة، ولهذا أحضرت معي (كروزاً) صندوقاً من السجائر الفاخرة، مع أني لا أدخّن، فأخرجته من الحقيبة وأعطيته إلى مراقب المحطة بجانب السياج وقلت له: زوجتي مريضة ومعي طفل، ولا أستطيع الانتظار حتى يأتي دوري، وأبرزت له جواز سفر زوجتي، فرنسية مريضة ومعها طفل، فنادى الجندي وقال له: أركبهم سيارة الشحن (الكميون) وأوصلهم إلى المكان الذي يريدون.

وفي منتصف الليل وصلت إلى بيتي في باريس، ولما رأتني البوابة طار عقلها من الدهشة والخوف، وقالت: البيت مصادر، والسلطات تفتش عنك، ويسكن البيت الآن شيوعيون، فإياك أن يشعروا بقدومك، واصعد إلى غرفة الخدم في السطح، فصعدت ونقلت طفلي الصغير محمداً وأمه، وخرجت مفتشاً عن أحد من إخواننا ومعارفنا، وهداني تفكيري أن أهتف إلى عمة الملك فاروق ناجية هانم ذي الفقار، وهي امرأة عجوز تقيم في فرنسا، ويأتيها مرتّبها من القاهرة عن طريق أخيها يوسف باشا ذي الفقار السفير السابق لمصر في إيران، وأبو زوجة فاروق، وكان فاروق قد تزوج أخته لشاه إيران، ولذلك كانت مخصّصات هذه المرأة العجوز تأتيها من القاهرة إلى يوسف باشا في طهران، ومن طهران تأتي إلى السفير الألماني في إستانبول، ومن إستانبول تأتي إلى الخارجية الألمانية، والخارجية ترسلها إليّ لأسلمها إياها بناء على طلب الحاج أمين، عن طريق سفير ألمانيا في باريس آبيس، وكان من أخلص رجال هتلر، فتدور بذلك دورة كاملة، وكان يقوم بهذه المهمة الحاج أمين، ثم أنا. وقد خطر لي أن أتصل بها بالهاتف، عسى أن أجد لديها ملجأ، واتصلت وأخبرتها أن بيتي مصادر، فوافقت على لجوئي إلى بيتها، وكنت مقدراً ذلك، لما كنت قد قدمت لها من خدمات. وذهبت من فوري، ونقلت زوجتي وابني إلى بيتها، وكان بيتها معدوداً في (البروتوكولات) لأنها معدودة من العائلة المالكة، فهي عمة الملك فاروق، ومعروفة في الأوساط (الديبلوماسية). وكان عليّ أن أظهر في النهار لأرى إخواننا، فذهبت ورأيت عزت الطرابلسي، فقال لي: يا أخي، لقد اعتقلوني لأن رئيس جمعية الطلاب العرب يتعاون مع النازية، وهارب إلى ألمانيا، فنفيت أن تكون لي علاقة بالجمعية فتركوني، واعتقلوا عدداً من إخواننا أيضاً، وذهبت إلى عبدالوهاب حومد فقال لي الشيء نفسه، وذهبت

إلى عدنان الأتاسي، وكان سفيراً لسورية في فرنسا، فلما دخلت عليه أمسك برأسه من الدهشة وقال: ما الذي أتى بك؟ أليس لديك علم بأن فرنسا ضربت دمشق من ثلاثة أيام، وأن العلاقات بين سورية وفرنسا قد انقطعت، وإنني سمعت من وزير الخارجية الفرنسية عنك كلاماً، لا أستطيع قوله، وكنت أتهيأ للمجيء إلى ألمانيا بطريقة من الطرق لأرى كيف يمكن أن ننقذك من ألمانيا، فكيف جئت؟ وما االذي جاء بك؟ فحكيت له القصة، وقلت: وقع عليّ الاختيار، وتقرر مجيئي إلى هنا، من أجل سلامة بقية الإخوان المعتقلين. والآن يجب أن نفكر بتهريب الحاج أمين، فقال لي: اذهب وهرّب نفسك! نحن كنا نفكر كيف نهرّبك أنت، لا كيف نهرّب الحاج أمين.

س ـ ماذا كان الإجراء في حق مَنْ بقي في ألمانيا من إخوانك؟

= اعتُقِلوا جميعاً، فقد ذهبت الخادمة وخبّرت بهربي، فجاءت السلطات واعتقلتهم جميعاً، ولم يعد في إمكان هذه السلطات أن تعدمهم؛ لأنني أنا الهارب شاهد على أنهم جميعاً أحياء بعد الحرب؛ ولذلك اكتفت بإرسالهم إلى معسكر إنكليزي في بروكسل بصفتهم من جماعة المفتي.

٨- الدواليبي يهرّب مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني من فرنسا

كنت هرّبت معي أيضاً من ألمانيا سوّاق الحاج أمين خالد رمضان، وهو من حمص.

س ـ هل جاء معكم إلى باريس؟

= نعم، هرّبته معي ليساعدني، فكنا أنا وزوجتي وابني وخالد رمضان.

س ـ هل كان تهريبه بالطريقة نفسها، بأنه من رعايا دولة تحت الحماية؟

= كان يمشي معنا، ومنذ استلم المراقب (كروز التبغ) لم يعد يسأل، وخرجنا وخرج معنا.

وقال لي السفير السوري عدنان الأتاسي: يجب أن تختبئ. فقلت له أنا مختبئ عند يوسف باشا. ولكن المهم أن نبذل جهدنا في تهريب الحاج أمين: قال يا أخي السفراء العرب كلهم يسألون عنه، وفخري باشا بأمر من فاروق يسأل عنه، هو في قبضة العسكريين، ولا يعلم أحد عنه شيئاً، فيئست من عدنان الأتاسي، واتجهت إلى خالد رمضان سواق المفتي، فأعطيته بعض النقود وطلبت منه أن ينزل في فندق، وأفهمته أن مجيئنا بالأصل من أجل معرفة مكان سجن المفتي وتهريبه، ولا توجد طريقة لذلك كله إلا إذا سلّمتك للسلطات فتعتقلك، وفي الغالب إذا اعتقلوك أخذوك إلى حيث يوجد المفتي، وعندئذ ما عليك إلا أن تبعث إليّ بطريقة من الطرق مبيناً مكان وجودكما. بذلك ينفتح لنا الطريق. ونحن على كل حال في قبضة الفرنسيين، وسنبقى في خطر ما دمنا في قبضتهم، وعلينا أن نعمل.

أما الطريقة التي سنتّبعها لتسليمك للسلطات فهي الطريقة الآتية: سآخذك إلى رجل اسمه قدّور، لجأ إلى فرنسا، وله صاحب مسؤول من البرابرة، وهو الآن شيخ الجامع، ويعدّه الفرنسيون رئيساً على كل المسلمين في باريس.

س ـ هل هو متعاون مع السلطات الفرنسية؟

= نعم، ومركزه في الجامع، ونحن الطلاب كنا مقاطعين الجامع لمعرفتنا به. قلت له: سآخذك إلى قدور هذا شيخ الجامع، فتدخل عليه وتقبّل يده وتقول له: أنا سوّاق الحاج أمين الحسيني، لجأت إليك بصفتك شيخ الجامع لتساعدني بشيء من النقود لئلا يعتقلني الفرنسيون، وتقول له: إنك رجل من علماء الدين، والحاج أمين من علماء الدين، وهو معتقل، وأنا معرّض للاعتقال إذا سمع بي الفرنسيون، لأنني هارب. وقلت له: بهذه الطريقة سوف تُعتَقل في الغالب، وسيأخذونك إلى عند الحاج أمين، ومن هناك تَهرّب لي رسالة فيها مكان وجودكما.

فاستجاب الرجل، وأخذته ومعنا أم محمد، لتكون معنا دوماً امرأة تبعد النظر قليلاً عنا، وأوصلته بالحافلة إلى الجامع، وعينت له مكان غرفة الشيخ قدور، وبقيت أنا وأم محمد في موقف الحافلة حتى لا نلفت الأنظار. وبعد عشر دقائق جاء خالد رمضان وقال: لقد فعلت ما رسمته لي: قبّلت يد الشيخ وسردت عليه قصتي، فقال: يابني أعطني عنوانك، وأنا أتصل بك. ركبنا عندئذ الحافلة، ونزلنا قبل الفندق الذي ينزل فيه بمسافة مئة متر تقريباً، وقلت له: اذهب الآن من هذا الرصيف، وأنا أمشي من الرصيف الآخر، والطريق عريض وبين الرصيفين ثمانون متراً تقريباً، مشيت أنا وأم محمد نراقبه من بعيد، فما إن وصل إلى الفندق حتى خرج إليه رجال الأمن، وسألوه عن هُوّيته، وكانوا قد سبقوه إلى الفندق وأنزلوا حقيبته، وقبضوا عليه، واقتادوه في السيارة إلى السجن. فقلت في نفسي: هذه أول مرحلة.

ولبثت أنتظر يومين فثلاثة فأربعة.. فعشرة، ولم يجئني شيء. كنت واثقاً أنه سيصل إلى الحاج أمين، ويهرّب لنا خبراً عنه، وما كان في وسعي أن أفعل غير ذلك؛ فالسفراء لا يعرفون شيئاً عن مكان الحاج أمين، وأنا مطارد يفتشون عني، وما علينا إلا أن نعمل. لقد نفذنا من ستراسبورغ بحيل ووصلنا إلى هنا، ونحن الآن ندبّر الحيل الأخرى التي توصلنا إلى هدفنا وهو تهريب الحاج أمين.

كنت أوصيت خالد رمضان أن يرسل رسالة إلى بوابة البناية، وكنت قد أكرمتها، وأوصيتها إذا جاءتها رسالة من صديق لي أن ترسلها لي إلى عنواني، ووضعنا لهذا الصديق اسماً مستعاراً، وكنت أمر عليها كل يومين فأسألها هل وصل إليك شيء؟ وبعد خمسة عشر يوماً سلمتني رسالة وصلت إليها، ففتحتها فإذا فيها: نحن موجودون على نهر اللوار في جنوبي باريس، في قرية صغيرة،

في منزل مستقل (ڤيلا) هي سجن خاص بالمفتي، ومع المفتي راسم الخالدي وابن أخته إسحاق درويش، على مسافة ٣٠ كم تقريباً من باريس، والقرية فيها عدة بيوت، وفيها شرطة.

س. هل عينوا لكم اسم القرية؟

= كتبوا اسم القرية، ورقم الڤيلا. وللفيلا نوافذ على الشارع، وفي داخلها شرطة وفي خارجها أيضاً، يوقفون كل شخص يمر ويسألون عنه، فانتبهوا واحترزوا. ويطلب الحاج أمين منكم أن تأتوا وتهرّبوا إلينا رسالة، وليكن مجيئكم بعد الاتصال بنا، وكونوا حذرين. فقررت في اليوم الثاني أن آخذ سيارة وأذهب إلى القرية. وحتى الآن ما كنا نقول للعجوز عمة الملك فاروق (ناجية ذو الفقار) إننا نبحث عن المفتي. فلما قررت الذهاب إلى القرية لدراسة وضع سجن المفتي، أجمعت أن أخبر زوجتي والعجوز ناجية ذو الفقار بنيّتي؛ لأن ذهابي محفوف بالمخاطر، فقد أُعتَقل ولا أعود، فقلت لهما: القصة كيت وكيت. وهنا انفجرت زوجتي بالبكاء، وقالت ناجية ذو الفقار: لا خروج من البيت، وغلّقت الأبواب. فأجبتها: يا أختي لا يجوز أن أتهاون في مسعاي، فقد حملت سائق المفتي على دخول السجن لهذه الغاية، فقالت أم محمد: أنا أذهب. أما أنت فلا تذهب. وفعلاً كان اقتراحها أبعد من الشبهة.

وفي اليوم الثاني، وكان الوقت في حزيران، يبدأ اليوم بصحو، وبعد ساعتين تتكاثف الغيوم وتهطل الأمطار كأفواه القرب، في هذا اليوم خرجت أم محمد ترتدي ألبسة صيفية، وفي منتصف الطريق جاء الغيث وانسكبت الأمطار غزيرة سخية، فبدت المرأة كأنها خارجة من نهر، تقطر ماء من رأسها إلى أخمص قدميها، ومع ذلك تابعت مسيرتها حتى وصلت القرية، وبلغت الشارع الذي فيه المنزل، ووقفت أمامه، ولكن غزارة الأمطار لم تبق لها مكاناً

تقف فيه، فلجأت إلى منزل ثانٍ ومعها دراجتها لتستتر من الأمطار في دهليزها. وكان المفتي ومَنْ معه منذ إرسالهم الرسالة الأولى في مراقبة دائمة للطريق من الشباك ليلاً ونهاراً. وكان الحراس لا ينقطعون عن الحراسة والمراقبة ليلاً ونهاراً، ولكن غزارة الأمطار ألجأتهم إلى الدخول. وفي هذه الأثناء كان دور خالد رمضان في المراقبة، والشرطة حوله يجلسون مع المسجونين، فرأى أم محمد، فصاح: أم محمد، أخذته الوهلة، فاستدعى بصياحه انتباه الشرطة فركضوا مستفسرين غير فاهمين معنى أم محمد، وهنا أنقذ المفتي بذكائه الموقف إذ تبع الشرطة ووقف وراءهم وأشار إليها، وهم يضحكون، وأوحى إليهم أنها امرأة مسكينة، غطّتها المياه من كل جانب، فهي تقطر ماءً من شعرها وملابسها، فأثار استغرابهم لمنظرها، وبعد قليل أغلقوا الشباك وعادوا إلى أماكنهم. أما الحاج أمين فقد صعد إلى الدور الثاني وكتب رسالة، لفّها بعدة أوراق وأشار إلى أم محمد، وكانت لا تزال واقفة والأمطار تهطل بغزارة، وألقى بها إلى أم محمد فأخذتها، والشرطة كلهم في الداخل، وركبت دراجتها وعادت وسلمتنا الرسالة، وفيها أن المفتي بحاجة إلى شيء من المال. وذهبت إلى عدنان الأتاسي وأطلعته على الرسالة بتوقيع المفتي، فبُهِت وقال: نحن منذ شهر نسأل عنه دونما جدوى، وأنت لقيته وأتيت برسالة منه في عدة أيام؟ وفتح الخزينة وأعطاني مئة ألف فرنك فرنسي، وقلت له: إن المفتي يوصينا بألا نذهب إليه إلا بعد الساعة الثانية ليلاً؛ ولذلك أريد سيارتك الدبلوماسية، فهي على الأقل لا توقفها الشرطة أو هي أقل مراقبة من غيرها، فقال: أعطيك السيارة، ولكن لا أعطيك سائقها، فقبلت. وكنت على اتصال بأحد أبناء الشام، اسمه عزت شيعي، وهو تاجر، وكان يربح ويقيم لنا معشر الطلاب سهرات، فباع صفقة سيئة للجيش الألماني فيها غشّ، فقبضوا

عليه وكادوا يعدمونه، وجاءتني امرأته تبكي، فاتصلت بالحاج أمين في برلين، فتوسط له وأُفرِج عنه.

جئت إلى هذا الرجل وقلت له: يا عزت الرجل الذي أنقذ حياتك ذات يوم هو بحاجة الآن إلى إمداده بالمال في الساعة الثانية ليلاً، وكنت أعلم أنه ساكن في القرية نفسها منذ مجيئه من سورية قبل عشرين سنة، لأنها بعيدة ورخيصة الأجور، وتسير إليها قطارات وأوتوبيسات، فإذا كنت تجيد قيادة السيارة فسأحضر لك سيارة ديبلوماسية تقودها إلى قريتك التي تسكن فيها، فوافق الرجل، ولم ينسَ أننا أنقذنا حياته ذات يوم، وذهب معي إلى السفارة السورية، فأخذنا السيارة إلى بيتي، حتى إذا كانت الساعة الثانية ليلاً، ركبنا أنا وأم محمد معه، وسار بنا وهو يرتجف من الرعب، حتى وصلنا إلى القرية، وأوقفنا السيارة في غابة من الغابات. وقالت أم محمد: لا تنزل أنتَ. أنا سأنزل. وجلسنا نحن الاثنين في السيارة، وذهبت هي، وكنا قد وضعنا المبلغ ١٠٠ ألف فرنك في صرّة وفيها حجر. وبعد الساعة الثانية حسب الموعد ألقت الصرّة من الشباك، وعادت برسالة من المفتي تقول: إن لديه أشياء يريد أن يكتب بها إلينا، ولكن يخشى من القبض على الرسالة، لأنها تتضمن أسراراً خطيرة لا يجوز كشفها، ولذلك يلحّ عليّ أن يرتّبوا ترتيباً أدخل به السجن.

س ـ أتدخل أنت لتذهب إليهم؟

= نعم، وأنا لم أنس بعد، أن بيتي مصادر، وأنا هارب!

كان الترتيب أن آتي ليلة ١٤ تموز بعد الساعة (٢) ليلاً، فأجتاز طريقاً محجَّراً يوصل إلى الباب الداخلي للفيلا، فأدفع الباب، ويكون المفتي جالساً وراءه، فأدخل إليه.

ذهبت إلى أحد أصدقائنا المراكشيين المشتغلين بالحركة الوطنية هو عبدالهادي الدوري، وهو رجل كسّاب وهّاب، عنده دار تجارية في باريس، ودار تجارية في بروكسل، ودار تجارية في الرباط، وينفق على الحركة الوطنية، وقلت له: إنني بحاجة إلى سائقك، وهو سائق مأمون؛ لأن اجتماعاتهم كلها ضد فرنسا، وكنت بحاجة إلى سيارة وسائق؛ لأن عدنان الأتاسي لم يعد مستطيعاً إعطائي السيارة، وعزت شيعي انقطع عن المجيء، ولا بد لي من سيارة، فقال لي عبدالهادي: أعطيك السيارة والسائق. وفي ليلة ١٤ تموز خرجت بها أنا وأم محمد بعد منتصف الليل من باريس ولكننا لاحظنا دَرّاجة نارية تتعقّبنا أينما مشينا، يميناً أو شمالاً، وظلت تتابعنا إلى مسافة/٣٠/كم، لقد لفتنا نظر الدورية، إذ رأت سيارة تخرج بعد منتصف الليل وتخرج من باريس إلى القرية، ونحن في أيام أواخر الحرب. فقلت للسائق: قف مكانك ولا تتكلم، ونزلت إلى الدورية، فأبرزت جواز سفر زوجتي وقلت لهم: نحن فرنسيون، نفد من عندنا البنزين، أرجو أن تساعدونا بإعطائنا ليتراً من البنزين، أو تدلونا على محطة بنزين قريبة، فنحن نسير من مكان إلى مكان ولا نجد مكاناً لبيع البنزين. فأجابوا: مالك إلا أن ترجع، وتذهب إلى الجهة الفلانية حيث محطة للبنزين. حييناهم، وتركونا وانصرفوا.

عدت إلى أم محمد وقلت لها وللسائق: انتبها جيداً حتى أعود. ودخلت في ظلمات الليل إلى المنزل بأقدام ثابتة واجتزت الممشى الحجري، ووصلت إلى الباب الداخلي، دفعته، فخرج الحاج أمين، وكان الدهليز مظلماً، ودخلنا غرفة وراء الباب فيها مذياع (راديو)، وسألته كيف استطعت أنا الدخول، وأين الحرس؟ قال: اطمئن، في ليلة ١٤ تموز أكرمنا الحرس، وجلس معهم إسحاق درويش، فسقاهم كثيراً حتى أسكرهم، وأخذنا المفاتيح منهم وفتحنا الباب،

فاطمأننت، ولكن لم نكد نجلس نتحدث، على صوت الراديو الخفيف، وعلى ضوئه الخفيف أيضاً، حتى سمعنا صوت انغلاق الباب، وهذا معناه أنهم استيقظوا، فطار عقلي من الفزع، ونظرت فرأيت نافذة مرتفعة عن الشارع مسافة ثلاثة أمتار، ولم يبق أمامي إلا أن ألقي بنفسي من الشباك الذي نرسل منه الأموال والرسائل، فلحقني الحاج أمين يريد أن يمسكني، ولكنني تدلّيت متراً ونصف ثم ألقيت بنفسي، ورجعت إلى السيارة.

س- هل عرفتم فيما بعد كيف أغلق الباب؟

= نعم، عرفنا فيما بعد أن أحد أولئك السكارى حصره البول فانتبه لقضاء حاجته، فرأى باب المنزل مفتوحاً، فطار عقله، ووجد باب الغرفة مفتوحاً أيضاً، ودخل علينا ووجد اثنين في الغرفة، فذهب ليأتي برفاقه ليقبضوا على الرجل الثاني، ولما جاء والم يجدوا سوى المفتي؛ لأنني كنت قد ألقيت بنفسي من الشباك وهربت، فسألوا المفتي: أين الرجل الثاني، فضحك المفتي وقال: أنتم سكارى، خُيِّل إليكم أن شخصاً آخر معي في الغرفة، وأنا وحدي، لا أحد معي، فاتهموا رفيقهم بالتخيل من شدة سكره، وانصرفوا.

٩- الدواليبي يقنع ديغول باستقلال سورية ولبنان

ثم اتصلت بالمحامي أوجاد صديقنا، وهو صديق ديغول، وكان قد عمل معنا في الحركة الوطنية لما نظّمنا جمعية الطلاب العرب من أجل استقلال سورية، اتصلت به في هذه الفترة، فرجاني أن أختبئ حتى يدبّر لي مخرجاً، وقال لي: سأتصل بديغول وأرتّب لك مقابلته، فقد جاء دورك لتشرح له حقيقة الوضع في سورية، وكنا نحن في الجمعية نشرح القضية السورية في محاضراتنا واجتماعاتنا، وفي هذه الفترة ضربت فرنسا دمشق، وتدهورت العلاقات بين سورية وفرنسا، وظهر الجيش الفرنسي في

سورية كأنه معتقل أمام الجيش الإنكليزي، وديغول منزعج من هذه الأوضاع.

س ـ هل كان لأوجاد منصب؟

= كان رئيساً لغرفة (دي جوفنير) لما كان هذا مفوضاً سامياً في سورية، وأوجاد من كبار المحامين، وقد بلغ التسعين من عمره، ولا يزال حياً. قال لي: إن ابن أخته يعمل في مكتب ديغول، ويستطيع أن يفهمه مَنْ هو معروف الدواليبي، ومن الضروري أن تجتمع بديغول وتفهمه الوضع في سورية.

وفي اليوم الثاني أبلغني أن الأوامر صدرت من ديغول إلى جورج بيدو ليجتمع بي في الخارجية، وأنا لا أزال تحت المراقبة والمتابعة، وبيتي مصادر، ولا يعرفون أين أقيم، وقد أعطيتهم رقم هاتف العجوز عمة الملك فاروق، فهتفوا لي من الخارجية أن وزير الخارجية الفرنسية جورج بيدو يدعوك لمقابلته، فذهبت إلى مكتب وزير الخارجية، وكم كانت دهشتي كبيرة إذ رأيت الشخص الذي خرج لاستقبالي هو الذي ضربته يوم سحبوا منا هويّاتنا وجوازاتنا وأعطونا بطاقات الحماية، واسمه شمبار، وهو الذي فتّش الأوراق ووجد اسمي، ودلّهم على بيتي فصادروه. وهو الآن يستقبلني؛ إذ الأمر أعلى منه وأكبر.

والتقيت بالوزير، وتحدثنا في المشكلة السورية، وأذكر أنه قال لي: لقد طلب مني الجنرال ديغول أن أجتمع بك لتفهمني القضية السورية، فأنا أجهل كل شيء عن سورية؛ لأنني معلم ثانوي بعيد عن هذه القضايا. وكان بومبيدو هذا قد قاد حركة العصيان على الألمان، وشكّل عصابات، ونظّم حركات المقاومة ضد الألمان في فرنسا كلها؛ ولذلك كافأه الجنرال ديغول لما رجع إلى فرنسا فجعله وزيراً للخارجية. قلت له: أنا أعرفك ومن المصلحة قبل البدء

بالحديث أن تعرف من أنا، أنا جندي مجهول قاوم احتلال فرنسا لبلاده. وأنت جندي قاوم الاحتلال الألماني لبلاده. إلا أن الاحتلال كلما زادت مدته زاد الشعور الوطني لدى المقاومين، فأنا أعرفك وأعرف وطنيتك وأقدرك، لقد خرجت على الاحتلال الألماني لبلادك، ولكن وطنيتك وشعورك الوطني بنسبة ست سنوات، وأنا وطنيتي وشعوري بنسبة ربع قرن. فإذا كنت تريد أن نصل إلى درجة واحدة في المشاعر الوطنية ضد المحتل، فتعال ندعو الله أن يعيد هتلر إلى الحياة، ويحتل فرنسا مرة أخرى، وتصبروا على الاحتلال خمساً وعشرين سنة حتى نتساوى في الشعور بالنقمة على المحتل، فقال: لا، يكفينا خمس سنوات، وقلت: ونحن يكفينا ٢٥ سنة. هكذا افتتحت الحديث بترطيب الجو، وإشعار بومبيدو بأنني زميل له في المقاومة ضد المحتل، وبأنني أحترمه وأقدّر صنيع الجنرال ديغول بتعيينه وزيراً للخارجية، تقديراً منه للمواطنين العاملين، وبأنهم لم يصبروا على احتلال خمس سنوات، فكيف احتلال خمس وعشرين سنة. واسترسلنا في قصة الاحتلال الفرنسي لسورية. قال: لقد أعلنت إنكلترا وأمريكا استقلال سورية بعد ثورة العراق سنة ١٩٤١، دون أن يستشيروا الجنرال ديغول.

والآن بعد أن انتهت الحرب طلب ديغول أن تُوقَّع معاهدة كمعاهدة ١٩٣٦ فرفض السوريون. وجاء الإنكليز والأمريكان إلى جيوشنا فاعتقلوها. فنحن لا نستطيع أن نخرج من سورية بهذا الذل، وإنكلترا تدعونا اليوم إلى اجتماع ثلاثي للبت في قضية سورية، تحضره أميركا وإنكلترا وفرنسا. وديغول يرفض هذه الدعوة؛ لأنهم تجاهلوه ولم يسألوه الرأي، ولذلك هو يرفض دعوتهم اليوم، ولا يقبل إلا باجتماع خماسي، يكون فيه الاتحاد السوفييتي والصين، أي الدول الخمس، فقلت له: يا معالي الوزير، بعد أن وقعت فرنسا معاهدة ١٩٣٦، عادت

وسحبت توقيعها تحت تأثير اليهود، فهل اطلعت على ما تم في تلك المرحلة؟ وشرحت له ذلك، ثم قلت له: عندنا مثل يقول: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ولقد لدغنا منكم لدغة واحدة كافية، ولا يمكن أن تجد سوريّاً واحداً يقبل أن يعيد معكم الكرّة. قال: لكننا نحن الآن غير فرنسا القديمة. قلت: دعنا يا معالي الوزير نتكلم بصراحة ووضوح وبشعور ودي، نحن نعطف على قضيتكم ونتفهّم تخوفكم، وأرجو أن تفهمونا جيداً، أنتم ترفضون الاجتماع الثلاثي، ولكن في النهاية ستخرجون من سورية. أما المعاهدة فاغسلوا أيديكم منها، فلن تقبل سورية بها. قال: إذاً فلنخرج، ولكن لا يمكن أن نجتمع مع خصمين لديغول: إنكلترا وأمريكا. أما إذا كان الاجتماع بحضور صديقين آخرين: الاتحاد السوفييتي والصين فيمكن أن نجتمع. قلت له: إذاً دعنا ندرس الموضوع برويّة وأناة. أنتم ستُجبَرون على الخروج من سورية في الأحوال جميعها ولكن أتعلم إذا حضرتم الاجتماع الثلاثي ماذا نقول نحن؟ سنقول عندئذ: الفضل لإنكلترا وأمريكا، وليس لكم. ولو اجتمعتم الاجتماع الخماسي سنقول: الفضل لإنكلترا وأمريكا والاتحاد السوفيتي والصين، فأنتم في الحالتين خاسرون، ونحن كنّا سندفع العمولة لدولتين، فجعلتمونا ندفع لأربع دول. فما رأيك أن ندفع العمولة لكم وحدكم؟ قال: وهل هذا ممكن؟ قلت: نعم، لقد أهانت إنكلترا وأمريكا ديغول إذ تجاهلوه ولم يستشيروه في قضية استقلال سورية، وأثاروا الرأي العام العربي ضده إذ ضرب دمشق، وفوق ذلك حملوكم على اعتقال الحاج أمين الحسيني، وبذلك وجّهوا ضربتين على الرأس؛ فقضية استقلال سورية وقضية الحاج أمين قضيتان ستبقى إنكلترا تستخدمهما لتسويد سمعتكم في البلاد العربية قاطبة، بحيث لا تستطيعون التحرك فيها. وأنا بصفتي رئيساً لجمعية الطلاب العرب حريص على أن أنشئ معكم صداقة

وأضع بين يدكم طريقة للحل الأمثل بيننا وبينكم، تعلنون قرار الانسحاب من سورية في أقرب وقت، وتعترفون باستقلال سورية، وتقدمون معدّات الجيش الفرنسي وإمكاناته هدية للجيش السوري، دونما حاجة إلى اجتماع أو توقيع أو معاهدة، وبذلك توجّهون صفعة موجعة لإنكلترا، وتستغنون عن الاجتماع الثلاثي والاجتماعي الخماسي. وعندئذ يمكننا القول: إن فرنسا اليوم غير فرنسا الأمس، وتنقلب عداوتنا إلى صداقة. وهنا انفجر بومبيدو ضاحكاً، وقال والابتسامة تعلو شفتيه: يأتي على الإنسان كثير من الأوقات يكون فيها بليداً حيواناً لا يرى الحقيقة! معك الحق. قلت: أقبلتَ الفكرة؟ قال: نعم، وسأتبنّاها. قلت: بذلك تغيظون إنكلترا، وتكسبون سورية إلى جانبكم، وتثبتون للعالم بإعلانكم استقلال سورية من طرف واحد: أن فرنسا اليوم غير فرنسا القديمة. قال: انتظر مني هاتفاً في الغد، وفي طريق عودتي إلى البيت مررت بعدنان الأتاسي، وقصصت عليه ما جرى، فلم يصدق، وظل متخوفاً من اعتقالي. وفي اليوم الثاني هتف لي الوزير بومبيدو قائلاً: أهنئك، لقد قبل ديغول الفكرة، وكلف الكونت سترولو بالسفر إلى لبنان، ليعلن من هناك استقلال سورية دون قيد ولا شرط ولا مفاوضات.

س ـ من هذا الكونت؟

= هذا من كبار الضباط في المفوضية الفرنسية في بيروت، ثم صار سفيراً لفرنسا في الهند. وقلت لبومبيدو: أخّروا سفر الكونت سترولو، ريثما تفكرون بإعلان استقلال لبنان أيضاً. وينبغي ألا ننسى أن الجنرال غورو لما احتل بيروت احتل دمشق، فإذا أعلنتم استقلال سورية وعاصمتها دمشق، وبقيتم في لبنان، فكأنكم لم تفعلوا شيئاً. قال: يا أخي، لا يسألك أحد الآن عن استقلال لبنان. قلت: لا يقبل السوريون أن تعلنوا استقلال سورية فقط. إذا أردتم

تصحيح الأوضاع فأعلنوا استقلال سورية ولبنان؛ لأن نقطة الاحتلال تتمثل في دخول غورو دمشق وبيروت، والآن نقطة الخروج تتمثل في الخروج من دمشق وبيروت. وعاد بومبيدو إلى ديغول بهذا الرأي الأخير، ووافق ديغول، وأُعلِن عن طريق رياض الصلح في بيروت أن فرنسا توافق على استقلال لبنان أيضاً، وكانت صفعة لإنكلترا.

س- هل أعلنت فرنسا استقلال سورية ولبنان في آن واحد؟

= نعم، في آن واحد.

س- والجلاء متى تم؟

= إعلان الاستقلال كان في سنة ١٩٤٥. أما الجلاء فقد تم في سنة ١٩٤٦. وبقي عليّ بعد إعلان استقلال سورية ولبنان أن أتفرّغ لقضية الحاج أمين وبيتي المصادر.

أما البيت فقد وكلت المحامي أوجار فاستطاع أن يحصل على قرار بإخلاء البيت، وأخرِج الشخص الذي كان يحتلّه، وباستعادة البيت لم يعد ثمة مجال لاعتقالي أو ملاحقتي، ولا سيما بعد أن عُرِف في الأوساط السياسية أنني أصبحت عند ديغول الشخص الذي يُسمَع كلامه.

س- هل كان البيت ملكاً لأحد؟

= نعم كان ملكاً لأهل زوجتي.

١٠- عودة إلى تهريب الحاج أمين الحسيني

أما قضية الحاج أمين فقد علمت أنها في يد قونصوه المفوض السامي، وهو سفير في الخارجية الفرنسية، والأوراق السرية المتعلقة بقضية المفتي لا يطلع عليها

غيره. فقلت لعدنان الأتاسي السفير السوري: أحب أن أتعرّف على قونصوه، فعرّفني عليه.

اجتمعت بقونصوه، وكانت القضية السورية قد انحلّت، وبلغ قونصوه أنني شخص عمل شيئاً في هذه القضية، فقلت له: ما مصلحتكم في اعتقال الحاج أمين؟ لقد كانت إنكلترا تشوّش عليكم في قضية استقلال سورية حتى إنكم ضربتم دمشق، وهي تشوّش عليكم باعتقالكم الحاج أمين. إنها تريد أن يبقى معتقلاً عندكم! قال: أنت مخطئ. إنكلترا وأمريكا تطالبان باستلامه ونحن نرفض. قلت: إنهم يكذبون؛ لأنهم لواستلموه لقامت عليه ضجّة في العالم، تنتقل منكم إليهم. إن لنا قضيتين، قضية سورية، وقد وصلنا فيها إلى حل، وقضية الحاج أمين، وينبغي أن نصل فيها إلى حل؛ ذلك أن الحاج أمين زعيم الحركة الوطنية ضد الاستعمار، ليس في فلسطين والعالم العربي فحسب، بل في العالم الإسلامي؛ لذلك جعلت إنكلترا قضيته نقطة الجرس الذي تلعب فيه. وإذا كنت غير مقنع بما أقول فخذ موافقة الجنرال ديغول فقط، وقل للسفير البريطاني: سنسلمكم الحاج أمين، وانظر ردّة الفعل قال: يا أخي لا تحملنا على أمر صعب. قلت: والله إنهم يكذبون. قال: ما دليلك؟ قلت: لما استقلينا قامت ثورة في فلسطين سنة ١٩٣٦ دعمتها سورية. وكان الفلسطينيون يريدون أن يستقلوا بثورة كما استقللنا نحن بثورة. فلما توقفت ثورتنا من أجل المفاوضات توقفت الثورة في فلسطين، وبدأ المفتي يعدّ لثورة ثانية قبيل الحرب. فإذا كانت الثورة ستتفجّر بعد سنة فاعتقال المفتي يفجرّها في اليوم التالي لاعتقاله. ففكر الإنكليز أن يشعروه عن طريق ابنه أنه سيعتقل فاضطر للهرب، وبدأت الثورة الثانية، وجاء إلى بيروت، حتى إذا أعلنت الحرب بدأ الضغط من الإنكليز على لبنان لتسليمه، فهرب إلى العراق حيث إنكلترا هناك فما اعتقل في العراق، ولو اعتقل في العراق لقامت ضجة ضد إنكلترا في العالم العربي

والإسلامي. لقد طلبه الإنكليز من لبنان المسيطرة فيه فرنسا، ولما لجأ إلى العراق المسيطرة فيه إنكلترا لم يطلبوه. وهذا دليلي على أن الإنكليز لا يريدون أن يتعرضوا لنقمة العالم العربي والإسلامي، ويريدون ذلك لفرنسا.

ذهب قونصوه وحدّث ديغول بالفكرة التي أبديتُها دليلاً على أن إنكلترا لا تريد تسلّم الحاج أمين، فقال له ديغول: جَرِّب. استدعِ السفير الإنكليزي وحدّثه بالفكرة، فاستدعى قونصوه السفير الإنكليزي وقال له: لقد كلّفني الجنرال ديغول أن أبلغك بأننا بعدما أعلنّا استقلال سورية لم تعد لدينا رغبة في التدخل في الشؤون العربية، وأننا قررنا إطلاق سراح الحاج أمين وتسليمكم إياه، فأجابه السفير الإنكليزي بقوله: يا سيدي أرجوك، أنا عندي تعليمات أننا لا نريد أن نتسلّمه، ونريد أن نطمئن ببقائه عندكم. قال له: بلِّغ حكومتك. فبلّغ حكومته، وجاء الجواب: لا، لا نريد استلامه، نريد فقط أن تطمئنونا بأنه لا يخرج من عندكم! وأبلغ قونصوه الجنرال ديغول جواب الحكومة الإنكليزية، فزادت مكانتي عند الجنرال ديغول؛ إذ رأى سداد رأيي في القضية السورية، وفي هذه القضية الثانية قضية المفتي، كما توثّقت صلتي بقونصوه، وأصبحت أتردد على بيته بعد الامتحانات كصديق، وذلك لاعتقاده بصحة الخطط التي أرسمها.

ودعا قونصوه السفراء العرب إلى حفلة شاي، وجئت معهم إلى بيته، وقلت له: أي دولة عربية تطلب استلام الحاج أمين فسلموها إياه، وستجدون إنكلترا ستمنعه من الدخول إليها، وبذلك تكونون أنتم قد أعلنتم للناس قاطبة إطلاق سراحه، ولكن إنكلترا هي التي لا تريد الإفراج عنه وتقف في وجه لجوئه. وما كان من السفراء العرب غير فخري باشا عن مصر، وعدنان الأتاسي عن سورية، وفؤاد حمزة عن السعودية، وأحمد الداعوق عن لبنان. وقبل حضور حفلة الشاي ذهبت إلى عدنان

الأتاسي وأخبرته بأنهم سيستلمون اليوم الحاج أمين، فكاد يطير من الدهشة والفرح، وما علم بنبأ الإفراج عن المفتي غيره.

ولما تكامل جمع المدعوّين أعلن قونصوه أنه مكلف من الرئيس ديغول بتسليمهم الحاج أمين، وكان الحاج أمين موجوداً في غرفة ثانية، وأي دولة تقبل استلامه يستطيع اللجوء إليها، وفتح الباب وظهر الحاج أمين، وكانت مفاجأة السفراء جميعاً ما عدا عدنان الأتاسي. وذهب السفراء وأبرقوا إلى حكوماتهم بالنبأ، وجاءت أجوبة الدول العربية مصر وسورية ولبنان إلى عدنان الأتاسي بأنهم كلّفوا رياض الصلح بأن يأتي إلى فرنسا ليرى الحاج أمين.

وفي اليوم الثاني طلبت إخراجه من المعتقل إلى بيت خفيّ، إذ لم يعد من الجائز أن يبقى في المعتقل بعد الإعلان عن تسليمه إلى إحدى الدول العربية، وكانت ملاحظة الفرنسيين أنه معرّض للخطر، فقلت: نستأجر له بيتاً خفياً ينتقل إليه، وأنتم تساعدوننا في حمايته. وذهبت إلى خارج باريس واستأجرت بيتاً، وقلت لهم: يلزمنا هوية باسم مستعار لهذا الساكن في البيت، ويلزمنا أيضاً أسلحة، وأنا سأحضر حراساً من عندنا من شمالِ إفريقية.

وتسلّمتُ الحاج أمين، ونقلته إلى البيت الجديد الذي لا يعرف عنوانه أحد سوى قونصوه ورئيس الشرطة العسكرية الذي يعطينا الحماية اللازمة من سلاح فقط، وليس من الرجال. ولما جاء رياض الصلح كنا قد نقلناه إلى البيت الجديد، ولما طلب رياض الصلح من الخارجية الفرنسية إيصاله إلى الحاج أمين كانت تعليمات الخارجية أن لا يتصل به أحد إلا عن طريقي، وكذلك أبلغ مدير الشرطة العسكرية جنده أن كل شخص يسأل عن الحاج أمين ترسلونه إلى معروف الدواليبي. وهكذا صحبت رياض الصلح إلى المنزل وكان معه حميد فرنجيه وزير الخارجية اللبنانية، وتناولنا طعام

الغداء، وبعد الطعام راح رياض الصلح يرجو الحاج أمين ويطلب منه باسم الجامعة العربية أن لا يخرج من فرنسا؛ لأن إنكلترا موجودة في مصر وفي سورية وفي لبنان وفي العراق، ووجودك في إحدى هذه الأقطار يعرضك للاعتقال. أما فرنسا فنحن مطمئنون لها في عهد ديغول، هكذا جاء التبليغ، ووقفت الأمور عند هذا الحد.

وبعد يومين أو ثلاثة كتبت الصحف أن فرنسا خارجة من الحرب محتاجة إلى قرض، وكلفت سفيرها في أميركا أن يطلب قرضاً منها. وبعد شهر تقريباً نشرت الصحف أن أمريكا اعتذرت، فتأثر ديغول لذلك، وكان حوله يهود، أشاروا عليه أن يبعث إلى أمريكا سفيراً فوق العادة هو ليون بلوم اليهودي، الذي كان رئيساً للوزارة، ووضعت المعاهدة السورية الفرنسية في عهده، فهذا السفير يستطيع الحصول على القرض؛ لأنه يهودي. واستجاب ديغول لهذه المشورة، وأعلنت الصحف بعد شهرين أن ليون بلوم قد تعين سفيراً فوق العادة، وأنه ذاهب لهذه المهمة التي لم ينجح بها سلفُه. وهنا قلت للحاج أمين: اختاروه يهودياً، وسيستعين باليهود، فإذا حالفه التوفيق فأنت الضحية والثمن. ولذلك دعنا نعد العدّة من الآن للرحيل.

كان الحاج أمين لما استلمناه ودخل البيت الخفيّ خاضعاً لمراقبة شديدة، فالفرنسيون اشترطوا علينا ألا يدخل عليه أحد، سوى المرأة الخادمة التي أرسلوها هم لخدمته وهي تابعة للمخابرات، والطباخ التونسي الذي كان معه في المعتقل، وهو تابع للمخابرات أيضاً.

وفهمنا يومها أن هذين للمراقبة، ولذلك كنت أتهيب أي تصرف يؤخذ عليّ، وأمشي في خططي على مراحل. فكرت بالتخلص من هذه المراقبة الداخلية. وكنت بحاجة إلى صورة للمفتي وهو حليق، لأضعها على جواز مزوَّر، فإذا أقدمت على حلق لحيته لفتُّ نظر المراقبة، وأثرت لديها التساؤل: لماذا حلق ذقنه؟ ولهذا ذهبت إلى أكبر مصوّر أرمني، يعدّ أحد المصورين الستة في العالم، وكنت تعرّفت عليه من قبل،

ومعي صورة للحاج أمين، فقلت له: هذه صورة والدي، أود أن أحتفظ بها للذكرى، وأود أن تخفّف اللحية قليلاً بعمل تشذيب (رتوش) أنت قادر عليه بوصفك مصوراً كبيراً. فأجرى الرجل عملية التشذيب (الرتوش) فظهرت اللحية خفيفة. وبعد ذلك انتقلت إلى مصور آخر، وقلت له ما قلته للمصور الأول، على أن تزيل اللحية تماماً بعملية (الرتوش)، ودون عمامة. وبذلك هيأت الصورة المطلوبة.

وكنت قد سرقت جواز سفر من السفارة السورية. أما جواز سفري فقد أخذت عليه تأشيرة خروج بالسرقة أيضاً؛ لأنني ممنوع من الخروج إلا بإذن خاص. صحيح أنني ما كنت موقوفاً، ولكن تحركاتي مراقبة، وخروجي لا يكون إلا بإذن خاص. وقد دبّرت هذه التأشيرة مع بنت صديقة لأحد إخواننا، كانت الأختام بيدها، بعد أن أكرمناها، فوضعت الموافقة على الخروج دون استئذان. وجئت إلى الجواز الجديد المسروق وجوازي، وكانت الجوازات الجديدة في ذلك الحين مخروزة خرزاً، ففككت خرزة الجوازين، ونقلت الورقة التي في جوازي وعليها تأشيرة الخروج إلى الجواز الجديد، ولصقت صورة الحاج أمين التي أعددتها كما أسلفت، وهو حليق ودون عمامة.

وبذلك كان بيد المفتي جواز سفر عليه صورته، ولكن الاسم: معروف الدواليبي، الذي يؤذن له بالخروج بالتأشيرة التي سبق تدبيرها.

وجئنا بعد ذلك إلى تدبير أمر الحجز بالطائرة، وما كان هناك طيران مدني، كل الطيران كان عسكرياً، فرنسياً أو أمريكياً. حجزت له بالرشوة والوساطة على الطيران الفرنسي وبلّغتُه فتخوّف؛ لأن الطيران الفرنسي سيخرج من فرنسا ويمر بتونس إلى ليبيا إلى القاهرة حتى يصل إلى سورية، ولذلك تخوّف من كثرة المراقبة، وعدل عن السفر في الطيران الفرنسي. وأرسلنا شخصاً من إخوان الحاج أمين اسمه أكرم الجاعوني إلى المطارات ليصف لنا المراقبة فيها، فذهب وأبرق لنا: أنه لا توجد مراقبة

ولبثنا ننتظر، ونتتّبع الأخبار، إلى أن أعلنت الصحف والإذاعات أن ليون بلوم نجح في مهمته، وحصل على قرض لفرنسا من أمريكا، وأنه سيصل إلى فرنسا في يوم كذا. أخبرت المفتي بذلك فانزعج كثيراً، وقلت له: ليس أمامنا إلا الطيران الأمريكي، إذ يحسن ألا نلفت الأنظار بالسفر على الطيران الفرنسي بعد أن احتلنا عليهم بواحدة والطيران الأمريكي لا يسمح في كل رحلة إلا براكب مدني واحد، فتوجّس المفتي خيفة، ولكنني قلت له: يجب أن تمشي هذه الليلة؛ وفيها طائرة أمريكية مسافرة. وذهبت إلى مكتب الطيران الأمريكي، وكان مديره فرنسياً، وقلت له: أنا أريد السفر إلى القاهرة، وبسرعة، لأني رجل أعمال تاجر. قال: يا أخي هذه طائرة عسكرية، ولا يُسمَح فيها إلا بكرسي واحد لمدني، وبإذن من السفارة الأمريكية، والأمكنة محجوزة من شهر أيار إلى نهاية آب. قلت له: يا أخي أنا عندي صفقة تجارية سأربح منها عشرة ملايين فرنك، إذا وصلت غداً إلى القاهرة. وإني مستعد أن أعطيك مليون فرنك، إذا حققت لي الحجز، وأخرجت له مئة ألف فرنك دفعة على الحساب. قال عد إليّ بعد ساعة. وبعد ساعة عدت إليه فقال: دبّرتُ لك الحجز، على أن تأتي في منتصف الليل. أعطني رقم هاتفك، فأعطيته، وذهبت إلى البيت.

كان لابد لي من التخلص من المراقبين: الخادمة والطباخ، بل كان من الضروري جداً ألا يكونا موجودين حين تحين ساعة الرحيل، ويحلق المفتي لحيته، ويصبغ شعره باللون الأشقر، ويرتدي بزّة (طقماً) ذات لون بُنّي فاتح أشقر اللون، ويضع قبعة على رأسه، وهذا ما كنت أعددته لساعة الرحيل.

كانت مراقبة الخادمة والطباخ محكمة مستمرة؛ فالخادمة تقوم بعملها من الصباح حتى المساء أما الطباخ فكان يأتي في الصباح أيضاً. فكنت أرسلهما أو أرسل أحدهما ليجلب لنا من القرية الفلانية زبدة وجبنة وبيضاً؛ لأن كل شيء في

الحرب خاضع للسوق السوداء، ومفقود. وكنت أفعل هذا بين حين وآخر، وحينما تغيب الخادمة يقوم الطباخ مقامها في التنظيف، وحين يغيب الطباخ تقوم هي مقامه، وبذلك تبقى التقارير من الداخل مستمرة. وقبل السفر بيوم جئت إلى الخادمة وكانت قد نظفت البيت، فأعطيتها مبلغاً من المال، وقلت لها: لا تحضري غداً وسينوب عنك زميلك، وتذهبين إلى القرية الفلانية وتشتري لنا كيت وكيت، وسأعطيك إجازة مدتها خمسة عشر يوماً. وجئت إلى الطباخ وقلت له: لا تأتِ غداً، وزميلتك ستطبخ، واذهب إلى القرية الفلانية وأحضر لنا بعض الحاجات، وهكذا تخلّصت منهما وغيّبتهما عن البيت يوم السفر، لئلا ينكشف أمر تهريب المفتي إلا بعد عودة أحدهما إلى البيت.

وأخذت سيارة ديبلوماسية من عدنان الأتاسي، وكنت قد تعلمت قيادة السيارة، وخرجت بها في منتصف الليل، ودخلت على المفتي في البيت الذي هو فيه، وأجرينا الإجراءات التي ألمعت إليها آنفاً، وبعد أن ارتدى البزّة ذات اللون البنيّ الفاتح، في سمته الحليق وقبعته وبشرته الحمراء أصبح في هيئة لو فاجأني بها ما عرفته.

وقلت للإخوان: الليلة سيكون تهريب المفتي، فإذا براسم الخالدي يبكي ويقول لا أترككم تسافرون حتى أسافر أنا إذا سافر المفتي فسيعتقلونني غداً. وكنت دبّرت جواز سفر لراسم الخالدي، فقلت له: هيا.. فركب إلى باريس، ومنها إلى مرسيليا حيث يركب الباخرة إلى بلاده.

وكان ترتيبي لهروب المفتي أن آخذه إلى بيتي في الساعة التاسعة، ومن هناك ننطلق إلى المطار، ولكننا ما كدنا نصل إلى البيت حتى رنّ جرس الهاتف يخبرني أن زوبعة هبت في لندن، والطائرة لا تستطيع الخروج إلا في الساعة الثامنة من صباح الغد. واضطررنا إلى النوم في بيتي تلك الليلة، وفي الساعة السادسة صباحاً علمنا

أن الزوبعة مستمرة، وأن زمن مجيء الطائرة غير معروف ورحنا نراقب محطات الإذاعة، ونستعرض المراحل السابقة التي جرى فيها تهريبه وقُبِض عليه، وما وصلنا إليه الآن من إعداد لتهريبه، فقد هيأت له على مراحل: الجواز والصورة والتأشيرة كما أسلفت، كل مرحلة مستقلة عن الأخرى، كنت أقوم بها بنفسي؛ لأنه لا يجوز أن يطلع عليها أحد. والشخص الوحيد الذي كان يساعدني هو أم محمد.

ويسّر الله تسفير المفتي على طائرة أمريكية TWA، وكان طريقها من فرنسا إلى إيطاليا (روما) إلى القاهرة. ولم يكن من الدول العربية السبع دولة مستعدة لاستقباله وحمايته غير مصر. والملك فاروق كان يسعى لحمايته ويحذر من الإساءة إليه. ولذلك فكرنا بنقله إلى مصر، فهرَّبنا رجلاً من جماعة المفتي اسمه أكرم الجاعوني إلى مصر، ليتصل بشخص فيها ممن يعتمد عليهم المفتي من التجار اسمه على رشدي، ليهيئ مكاناً لاختفائه حين وصوله مصر، على أن يبقى هذا كله سراً لا يعلم به أحد. أما التخطيط لسفري والذي أصبح للمفتي فكان الحجز إلى سورية ولكن جوازي مكتوب فيه TRANSITE MOIS أي مرور بالقاهرة بدون إقامة. فغيّرت العبارة إلى TROISMOIS، أي إقامة ثلاثة أشهر؛ وذلك بالاستعانة بالمزيل في طمس الحروف وتعديلها وإزالة الخط من فوق MOIS، وتثبيت الحروف بلون الحبر نفسه. وبذلك صار لديّ إقامة ثلاثة أشهر في القاهرة بدلاً من ترانزيت، وأخذ ذلك كله المفتي.

ولما وصل المفتي روما كان رابط الجأش مستريح الأعصاب، نز ل في المطار واتصل بأحد أصدقائه من الطليان، وهو من الشخصيات المتعاونة مع العرب أيام هتلر، ذهب إليه وزاره في بيته، إذ كان يعرف بيته من قبل، وكان ذلك من المفتي خطوة جريئة بلا ريب. وبعدها سافر إلى القاهرة، فبلغها في منتصف الليل. وقام بزيارة صديق له يعرف بيته، فطرق بابه في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، فخرج الرجل،

فرأى أمامه رجلاً حليقاً، يرتدي الملابس الفرنجية، فدُهِش لهذه الزيارة المفاجئة، وسأل نفسه: مَنْ يا تُرى ذلك الذي أيقظني من نومي في هذه الساعة المتأخرة، ثم قال لهذا الزائر: خير إن شاء الله يا خواجة؟ ما رأيت إلا أن تأتيني في هذه الساعة؟ قال المفتي: عندي صفقة قطن أريد أن أتممّها. قال: يا أخي، توقظني من النوم في الساعة الثانية بعد منتصف الليل لتشتري قطناً!! وهناك كشف المفتي عن رأسه وخلع القبعة، وقال: أنا أمين الحسيني، وكانت المفاجأة المذهلة!!

س ـ هل كان هذا الرجل يعرف المفتي من قبل؟ وما درجة المعرفة؟

= طبعاً، هو من جماعته وإخوانه الذين يعملون معه منذ زمن بعيد، إذ كان المفتي يتردد على مصر كثيراً، ولذلك كانت فرحته بلقياه كبيرة.

وكانت الخطة أن يختفي مدة خمسة عشر يوماً فلا يظهر، ولا يدري بوجوده أحد، وأخفينا نحن الخبر وكتمناه مدة خمسة عشر يوماً إلى أن أطلق لحيته، وعاد إلى سمته المعروف، وبعد ذلك أذيع نبأ وجوده في مصر، فاتصل بيوسف باشا ذي الفقار أبي زوجة الملك فاروق، وكان بينهما مراسلات حين كان ذو الفقار سفيراً لمصر في إيران في أثناء الحرب. استدعاه المفتي وقال له: بلّغ الملك فاروق أن فلاناً وصل، وكان الملك فاروق دائم السؤال عنه، ويريد إنقاذه، فذهب يوسف باشا وخبّر الملك، فأمر بإنزاله فوراً في قصر التين في الإسكندرية، وكان في داخل هذا القصر مطار، وخشية أن تأتي طائرة إنكليزية فتختطفه وضع سيارات شاحنة (كميونات) في المدرج بحيث لا تستطيع الطائرة الهبوط.

وبعد شهر من وصول المفتي إلى مصر وشيوع وجوده فيها قامت قيامة إنكلترا. وفي هذه الأثناء اعتُقِلتُ، وعُزِل مدير الشرطة العسكرية الفرنسية، وبدأت التحقيقات معي في هرب الحاج أمين، كيف تم، ومن وراءه فأصررت

على الكتمان، وهم يريدون مزيداً من المعلومات. وكان اعتقالي نوعاً من التوقيف الإداري؛ إذ القانون الفرنسي لا يساعد عليه، والقانون محترم في الأراضي الفرنسية، ولذلك أوقفوني في غرفة مدير الشرطة، وكتبت برقية لعزام باشا الأمين العام للجامعة العربية أنني اعتقلت دون قرار قضائي، وسلمتها إلى مدير الشرطة العسكرية المعزول، وكان معي في غرفة الاعتقال؛ ليبلغ السلطات الفرنسية ويحملها مسؤولية التأخر في الإفراج عني. وكانت ظروف الجامعة العربية في ذلك الحين طيبة. وبلّغ السلطات فسمحت لي أن أخرج إلى البيت، على أن أعدهم ألا أهرب. وكان الفرنسيون يريدون تبرئة أنفسهم من تهمة تهريب الحاج أمين الذي أحدث فضيحة سياسية، اتهم بها ديغول نفسه، الذي أقسم لهم أن لا علم له بها، وعنّفه بسببها الأمريكان، واستمرت الحملة على ديغول بسببها مدة شهر، إلى أن كشفت التحريات براءته منها. فقد أحاطت إنكلترا بالبحر الأبيض المتوسط، فما تركت باخرة تمخر عبابه إلا أوقفتها، إذ الحرب لم تنتهِ إلا منذ شهر. واستُنفِر أسطول أمريكا وإنكلترا وفرنسا لهذه الغاية، لم تفلت من أيديهم سفينة من التفتيش، فما عثروا على شيء.

ومن عجائب المصادفات أن رشيد عالي الكيلاني كان هارباً في إحدى البواخر، وكذلك راسم الخالدي الذي أعطيناه اسماً آخر، ومع ذلك كانت حالته النفسية سيئة جداً، يخشى أن يكشف أحد الخبراء أنه فلسطيني كان مع المفتي؛ لأنهم استعانوا بخبراء فلسطينيين ليتعرفوا على جنسية الركاب. وقد نجا راسم الخالدي، إذ لم يهتدوا لاسمه الحقيقي، وساعد على ذلك أنه منذ سنوات منقطع عن الظهور. أما رشيد عالي الكيلاني، فقد نجا أيضاً، لأنه كان يلبس لباس الحمّالين في الباخرة.

ولما ثبت لهم من تحريات البحر والجو والبرّ أن لا شيء يدل على تهريب المفتي، عمدوا إلى قوائم المسافرين ليستعرضوها، ووقفوا عند قائمة فيما اسم معروف الدواليبي، وأنا موجود. وهنا عظمت مكانتي لدى ديغول وتوثقت الصلات بيني وبينه، وأكبر صنيعي في قضية إعلان استقلال سورية، وفي نجاحي بتدبير تأشيرة الخروج دون موافقة السفير الأمريكي، وواضح أني احتلت على الفرنسيين وأخذت تأشيرة منهم دون علم السلطات، لأنني كنت ممنوعاً من السفر.

س. ألم يتخذ الفرنسيون أي إجراء قضائي؟

= لا، لأنني لست موظفاً عندهم، وإنما أبقوني في البيت.

س. ألم يؤاخذوك بإعطائك جوازك إلى الحاج أمين؟

= ما كانوا يعرفون.

س. ولما عرفوا بعد شهر من تهريبه ألم توجه إليك تهمة مساعدته على الهرب؟

= كانت الأوضاع قد تغيرت، والأفراح أقيمت في العالم العربي، حتى إن ديغول كان في ذلك الحين من أنصار التهريب. والعالم العربي قدّر موقف فرنسا. ولا شك أن الرأي العالمي أدرك أن ديغول سدّد ضربتين لكبرياء إنكلترا، عبّر بهما عن كراهيته لها، الأولى إعلان استقلال سورية ولبنان، والثانية تهريب الحاج أمين وإفلاته من يد إنكلترا، وقد تم هذا كله بما بذلنا من مساعٍ سلف ذكرها.

وجاء التحقيق، وكل ما طلبوه مني إقامة جبرية في بيتي. وأقبل مراسلو الصحف العالمية في أمريكا وغيرها على باب البناية التي أسكن فيها، يريدون

أن يسألوني كيف خرج المفتي وغادر فرنسا؟ وتضايق الفرنسيون من هذه الزحمة الصحفية، ومنعوا بعض الوفود الصحفية من المرابطة أمام باب البناية، وطلبوا مني أن أخرج إلى بيت آخر يكون تحت المراقبة بعيداً لا يعرفه أحد، فذهبت إلى بعض ضواحي باريس التي تبعد ٣٠ كم عن المدينة، وحجزت غرفة في فندق لي ولعائلتي وأمضينا المدة المطلوبة.

١١- العودة إلى الوطن

وعندما هدأت الضجة حولي رجعت إلى باريس، وطلبت السماح لي بالسفر، وكان ديغول في غاية السرور مما جرى. ونبّهني الفرنسيون من خطر الاعتقال، وكنت على علم بما طرأ على الجو من تطورات ومخاطر، وأقدّر خطورة حركة وكيد الصهيونية العالمية، ولا سيما بعد معرفتها اسمي؛ ولذلك كان عليّ أن أسافر بأسرع وقت ممكن، ولكن لأن سفري غير ممكن إلا بالباخرة، وقد تأخر بعض الوقت.

س- هل سافرتم بالجواز الذي باسمكم؟

= حصلت على جواز سفر جديد باسمي، وحجزت على أكبر باخرة فرنسية كانت تزمع الرحيل من مرسيليا إلى الإسكندرية، ومنها إلى بيروت. وقد أصدر ديغول أمراً بُلِّغ إلى كابتن الباخرة بأن يعطوني مقصورة في الباخر من الدرجة الأولى، فيها أربعة أسرّة، لا يدخل عليّ فيها أحد، وإذا توقّفت الباخرة فلا يُعطَى اسمي لأحد، وكنت حاجزاً إلى بيروت، وهذا في الظاهر، للتضليل، تحسّباً من أن يكون هناك تجسّس فيُقبَض عليّ في بيروت، وكنت عازماً على النزول في الإسكندرية.

وهرّبت معي عادل مسكي، وهو دكتور من الشام، من جماعتنا، كان موقوفاً أيضاً، وقد اعتقل لأنه كان يدرس في المعهد الذي أسسه هتلر لدراسة اليهودية، وأخرجناه من السجن بكفالة، وعلى أساس أنه سوري. وسورية قد اعترفت فرنسا باستقلالها، ولم يعد يسوغ سجنه، وقد أُفرِج عنه بكفالة مؤقتة. ولما شاع خبر هرب الحاج أمين كنا على صلة به.

س ـ وبقية الأشخاص الذين كانوا معه في ألمانيا، ما مصيرهم؟

= هؤلاء بعد هربي من مدينة بالفاشتاين من جبال التيرول كانوا في البيت الذي جمعونا فيه، وما إن عرفت السلطات نبأ هربي حتى أحاطت بالبيت وقبضوا عليهم جميعاً، وكانوا ١٩ شخصاً.

س ـ أي السلطات قبضت عليهم؟

= السلطات الإنكليزية، وقادوهم إلى بروكسل، وكانوا متخوفين من أن يُقضَى عليهم، دون أن يدري بهم أحد، وألبسوهم لباس جنود إنكليز؛ لأن النظام في قضايا المعتقلين لا يبيح للإنكليز أن يعتقل على الأراضي البلجيكية إلا من كان جندياً إنكليزياً، فهؤلاء اقتادوهم على أنهم جنود إنكليز إلى بلجيكا، وانقطعت أخبارهم عنا، وكان بينهم رئيس فوج الكشافة المسلم من بيروت.

س ـ غير فوج النجدة؟

= فوج النجدة تابع لعدنان الحكيم، أما فوج الكشافة المسلم فهو غيره، وقد مرض في السجن، وأصاب دماغه شيء من الخلل، واقتضت حالته المرضيّة أن يفرجوا عنه. وبصفته لبنانياً وصل إلى باريس وقابل سفير لبنان في فرنسا أحمد الداعوق، وكنت على صلة به، وفهمنا منه أن مجموعة المعتقلين الذين كان معهم في حالة سيئة، يائسون من الخروج من السجن. وعلمنا منه أين

يوجدون، وأن حجزهم باسم جنود إنكليز، وعلى ضوء هذه المعلومات اتصلت بالمحامي أوجون الذي مازال حياً، وطلبت إقامة دعوى على إنكلترا، إذ حجزتهم باسم جنود إنكليز، وهذا مخالف للبلاغ الذي صدر عندما أوقفت الحرب باسم الحلفاء، ومفاده أن كل من تعاون مع ألمانيا إذا وقع في يد أي سلطة من السلطات يُرَدُّ إلى الجهة التي هي صاحبة الحق في محاكمته. واستناداً إلى هذا البلاغ أقمنا الدعوى بأن بين هؤلاء المعتقلين سوريين؛ منهم ظافر الرفاعي ورمزي ألاجاتي وفرحان الجندلي.

س- وعلى من أقمتم الدعوى؟

= على إنكلترا.

س- ومن سينظر في الدعوى؟

= المحاكم البلجيكية، والحجة أن هؤلاء معتقلون سوريون يجب تسليمهم إلى سورية. ومع أن التحريات والتحقيقات كانت لا تزال تدور حول وجودي في أي مكان، كان مقتضى المصلحة العامة أن أذهب إلى المعتقلين وأطمئنهم قليلاً، وأنتشلهم من وهدة اليأس التي هم فيها، وأي واحد غيري لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة؛ لأنهم لن يصدّقوه، ولذلك قررت الذهاب إليهم مع الأخذ بشيء من الاحتياطات. فجئت إلى عدنان الأتاسي وقلت له: نحن قررنا أن نرفع دعوى على السلطات الإنكليزية لدى المحاكم البلجيكية حسب بلاغ الحلفاء بألا يُعتَقل إلا العسكريون، وهؤلاء اعتقلوا مدنيين وألبسوهم لباس العسكريين، وبما أنهم سوريون نطالب باسم السفارة السورية بالإفراج عنهم، واسمي معهم، فإذا ذهبت إليهم ودخلت عليهم فلا أخرج، ولذا أرجو أن تعطيني وثيقة تثبت أنني مستشار حقوقي في السفارة السورية، تكون لي حصانة من الاعتقال. وإني ذاهب إليهم

مع المحامي، وكان المحامي قد اتصل بالمسؤولين عن السجن، وقال: إن مندوب السفارة السورية سيأتي يوم كذا ليزور المعتقلين السوريين، ولم نعط لهذا المندوب اسماً. وفي الموعد المحدد ذهبت ومعي المحامي وطلبت زيارة المعتقلين كلهم، فأجابني الكولونيل المسؤول عن المعتقلين؛ بوصفك سورياً لا أستطيع أن أسمح لك أن ترى إلا السوريين فقط. قلت: لا بد إلا أن أرى المعتقلين جميعاً. وكان الرجل مهذّباً، ورأيته يتناول الهاتف، فسألته ماذا تريد؟ قال: سأستأذن لك من لندن. فنظرت في الأمر، إذا استأذن لندن فسيعلم أن اسمي عندهم، فتداركت الموقف وقلت: أخشى أن يتأخر الهاتف والسفارة تنتظرني، ويجب أن أستقل القطار الذي سيأتي الليلة، ولذلك أكتفي برؤية السوريين، وهم يبلغون غيرهم.

وأركبني معه في سيارة عسكرية هو يقودها، ووصلنا إلى باب السجن، وكانت غرفة المعتقلين فوق باب السجن، ولديهم علم بأن محقّقاً جاء يسأل في اليوم السابق عن كيفية هربي، وقد سألهم أيضاً. فلما رأوا الكولونيل ينزل من السيارة وأنا معه، بُهِتوا وأصيبوا بصدمة شديدة إذ حسبوا أنني معتقل، وانهارت آمالهم بالفرج، وما دار في خلدَهم أنني جئت لأتفقّدهم وأنني أقمت لهم دعوى للإفراج عنهم. وأدخلني الكولونيل إلى غرفة خاصة، وأعلن أن مندوب السفارة السورية جاء ليرى المعتقلين السوريين، ونادى على كل من فرحان الجندلي ورمزي ألاجاتي وظافر الرفاعي، فجاؤوا وهم يرتدون ملابس جنود إنكليز. ولم يضعونا تحت المراقبة، فدخلنا الغرفة وأغلق الكولونيل علينا الباب وقال: معكم نصف ساعة. قال لي ظافر الرفاعي: ما الذي جاء بك؟ بالأمس كان التحقيق عنك جارياً، أخشى أن ينتبهوا إليك، قلت له: تحرّر الحاج أمين وخرج من السجن، وصاحبكم رئيس الكشافة قد أفرج عنه، وأقمنا دعوى من أجلكم ناجحة بإذن الله ١٠٠٪، وستخرجون قريباً إن شاء الله فاطمئنوا.

كان بين المعتقلين رجل من تونس اسمه يوسف الرويسي، قضيته خطيرة؛ إذ حُكِم عليه بالإعدام من الفرنسيين، فإذا أُخرج من السجن فبلِّغوه أن يطلب عدم تسليمه إلى فرنسا، وأنا سأرسل له جوازاً سورياً على أنه مواطن سوري، وحصلت له من عدنان الأتاسي على جواز وأرسلته إليه مع المحامي، ولكن يجب ألا يمر بفرنسا، وأفرجوا عنه. وذهبت بسرعة قبل أن ينكشف أمري، وبلغت الحاج أمين، وبذلك اطمأن الإخوة المعتقلون. وقد أُفرِج عنهم جميعاً بعد ذلك.

س ـ نعود الآن إلى ركوبكم الباخرة الفرنسية وتهريبكم الدكتور عادل مسكي.

= بعد سفر المفتي كنت أريد أن أسافر، وقبل السفر بيوم جاءني عادل مسكي وكان مسجوناً وأخرجناه بكفالة مؤقتة من السجن، جاء ومعه أبوه بيكيان، وتعلق بي عادل وهو يقول: لم يبق أحد يسأل عنا، وليس لي إلا أن أهرب معك، فقلت له: كيف تهرب؟ وأنا مسافر غداً، وأمام إلحاحه قلت له: تعال إلى مرسيليا لننظر ماذا سنفعل، وجاء معي في القطار إلى مرسيليا وحده. ولما وصلنا إلى مرسيليا نزلت أنتظر على الرصيف وأرى حالة الطلوع والنزول ما بين المرفأ والباخرة. رأيت الناس يتقدمون نحو المرفأ، يبرز كل واحد بطاقة السفر وجواز السفر ويُعطى بطاقة صعود إلى السفينة ويدخل، والخفير على درج السلم يراقب، ومتى رأى الخفير البطاقة والجواز قال للمسافر: مع السلامة. والشرطة فوق عند المركب تتأكد من جواز المسافر وشخصيته لئلا يكون ممنوعاً من السفر، فالتحقيق فوق عند المركب، والناس مزدحمون، ويتقدم كل واحد بدوره، حتى إذا تَجمّع ١٠-١٥ شخصاً ونظروا في أوراقهم وتثبّتوا من شخصياتهم أدخلوهم، واستقبلوا غيرهم، وهكذا. وقفت وتأملت وضع المسافرين ودخولهم إلى الباخرة، ثم قلت لعادل: انتظر هنا. إني ذاهب لاستلام غرفتي

على ظهر السفينة قبل أن أخرج إلى الانتظار ولا أذهب إلى الشرطة، وأبعث لك بالجواز مع حمال في ظرف، وأنا على ظهر الباخرة، مشيراً إليه أن أعطِ هذا الظرف إلى فلان من المودّعين. ووصل إليه الظرف وفيه جوازي وبطاقتي، فأخذهما وتقدم وأبرزهما للخفير، وكان الخفير لا ينظر متأكداً من الاسم ولا من الصورة من شدة الزحام، ولما صعد أخذته ووضعته في غرفتي وكنت قد استلمتها، ورجعت ووقفت في الدور لتطبع على الجواز تأشيرة الخروج.

كانت الغرفة مقصورة من الدرجة الأولى فيها أربعة أسرّة بعضها فوق بعض، ولكل شخص سرير، لي ولأم محمد ولابني محمد البالغ من العمر أربع سنوات، ولعادل مسكي وفيها صالون.

وكانت التعليمات من الخارجية الفرنسية أن لا يدخل عليّ أحد، وأكدتُ هذه التعليمات للقائمين على شؤون الباخرة، خشية أن يدخل عليّ أحد، فينكشف أمر تهريبي الشخص الذي معي.

ولما أقلعت السفينة علمت أن عدنان الأتاسي مسافر معنا، وكذلك سفير فرنسا الذي عينه ديغول بعد استقلال سورية، وهذا السفير يعرف قصتي كاملة في حل المشكلة السورية. ولما اتجهت الباخرة إلى الإسكندرية جئت إلى عدنان الأتاسي، وأفضيت إليه بسرّ تهريبي عادل مسكي، وأفهمتُه أنني لن أبقى على ظهر السفينة إلى بيروت؛ لأنني إذا نزلت بيروت فسأعتَقل، ولذلك سأنزل في الإسكندرية، وهذا الذي أهرّبه ليس معه تأشيرة ولا ورقة تثبت شخصيته، فينبغي أن يبقى في الغرفة حتى تدبّر أمره باتصالك برياض الصلح رئيس وزراء لبنان؛ فهو متى علم أنه من جماعة المفتي يدبّر أمره ويبعث من يستلمه من السفينة؛ لأن رياض الصلح يقدّر المفتي وجماعته. ولن يغادر عادل

الغرفة حتى تكون قد قمت بمسعاك ودبّرت أمر نزوله من السفنية. وقام عدنان الأتاسي بالمهمة خير قيام - رحمه الله - فاتصل برياض الصلح، فأرسل إليه شخصاً أنزله من السفنية ومضى إلى شأنه.

س ـ لماذا فضلتم النزول في الاسكندرية، وهي تحت قبضة الإنكليز؟

= لأن لدى فاروق شيئاً من الحماية. وقد أعلن أنه أعطى الحماية للمفتي، وأنزله في قصر التين، ولم يتجرأ الإنكليز على الاصطدام به، خشية تفجر الأحداث ضدهم؛ لأن فاروق كان في أوج عظمته؛ وكان هو والمفتي على اتصال واتفاق بأن الألمان متى وصلوا إلى حدود مصر فإن فاروق سيعلن الثورة على الإنكليز. وقد اتخذ كل الاحتياطات لسلامة القصر الذي ينزل فيه المفتي. ولو أن الإنكليز أرادوا الاقتراب من القصر لحدثت ثورة هائلة. وأنا نزلت في مصر، لأنه ليس أمامي طريق آخر؛ هنا يوجد فاروق، والمفتي مرابط في قصر التين، وهناك في بيروت ليس لدينا فاروق ولا المفتي. ولما وصلت إلى مصر اتصلت فوراً بقصر التين، وأبلغت المفتي بوصولي ومعي ابن أخته إسحاق درويش، فأرسل من استقبلنا في المرفأ. وكان عندي عفش بيت وضعته في صناديق حديدية، فاستودعته في المرفأ. ونزلنا في فندق باسم المفتي وضيافة فاروق، وأمضينا شهراً في مصر، قررنا بعدها السفر إلى دمشق على طائرة مصرية، وكنت متخوفاً من بيروت.

س ـ ألأن الإنكليز ما يزالون في بيروت؟

= الإنكليز موجودون في سورية ولبنان، ولكن الظروف في سورية تبقى أكثر أمناً من لبنان.

وجئت لأستلم أمتعتي من المرفأ المصري، فإذا هي غير موجودة! فاحتججنا

وبلغنا الملك فاروق واحتج على المرفأ، ولكن دونما جدوى، إذ تبين أن المرفأ فيه استخبارات إنكليزية؛ وهذه يهمها أن تتحرى الأمتعة لعل فيها وثائق الحاج أمين، ولذلك صادروا العفش كله، دون علم المرفأ، ولم نحصل على معلومات عنه. وسافرت بحقيبة السفر فقط.

س ـ أكان في صناديق العفش وثائق سياسية أو نحوها؟

= لا توجد وثائق. ولكن الاستخبارات رأت صناديق مغلفة بشرائط حديدية فظنوا أن فيها شيئاً فصادروها. وأمضيت شهراً في مصر أسأل عنها. وكان السنهوري باشا يضع القانون المدني وحضرت في بيت نهاد القاسم في أول قدومي مصر حفل التنويم المغناطيسي، وكان الأستاذ أبو زهرة والسنهوري موجودين، وكان الرجل المنوَّم يخبر بأشياء مغيَّبة تسأله عنها، ويخبر برقم ورقة البنكنوت وأنت تمسكها بيدك، ويقرأ الرسالة التي في جيبك.. فقلت له: أنا فقدت أشياء، ما هي؟ قال: حقائب، وقد حُوِّلت إلى مركز آخر إنكليزي في عمان! قال هذا وهو نائم. فقلت في نفسي: عجيب! وبعد مدة اعترفت سلطات المرفأ أنها بلغها أنني ذاهب إلى عمان فحولتها خطأ إلى عمان وتبين أن المراقبة الإنكليزية أمرت بتحويل صناديق العفش إلى عمان، ومع أن التحويل موضوع عليها إلى دمشق، وعلمنا أن المراقبة الإنكليزية فتحتها وعاينتها آملة أن تجد فيها شيئاً، فما وجدت، وحولتها إلى دمشق، واستلمناها من هناك.

وكانت المفاجأة الكبيرة لسعدالله الجابري حين أعلنت فرنسا استقلال سورية ولبنان، إذ لم يخبره عدنان الأتاسي بتفاصيل المساعي التي وفقني الله إليها، وكان سعدالله يتساءل: من أين جاء لفرنسا هذا العقل والحكمة فأعلنت استقلال سورية ولبنان دون سبب، وأعطوا المعدات للجيش السوري، وقد حكى

السفير الذي عينه ديغول والذي جاء معي على السفينة القصة كاملة للسوريين لما استقبلوه، وهو أول سفير عينه ديغول.

س ـ في أي سنة كان نزولكم إلى سورية؟

= سافرت إلى سورية في ١٤ تموز ١٩٤٦، فنزلت في مصر مدة شهر ثم توجهت إلى سورية، بعد أن تم تهريب الحاج أمين في أيار ١٩٤٥، وقبل سفره بقي حراً بضعة أشهر، وقبل وصولي إلى سورية كان الجلاء الفرنسي قد تم، وبقي الإنكليز.

١٢ـ الاختلاف مع الكتلة الوطنية ومقدمات إنشاء حزب الشعب

س ـ بعودتكم إلى سورية دخلنا في مرحلة جديدة، فهل كان سعدالله الجابري رئيساً للوزارة؟

= لا أذكر تماماً، كان رئيساً للوزارة أو وزيراً للخارجية. وكان قد بدأ الخلاف بينه وبين رشدي الكيخيا، وكنا نحن الشباب منظمين أنفسنا داخل الكتلة الوطنية.

س ـ ما عوامل الخلاف الذي أدى بعد ذلك إلى إنشاء حزب الشعب؟

= الخلاف بدأ منذ سنة ١٩٣٨، إذ راح الشباب يعترضون على السياسة القديمة التقليدية المتَّبعة، ويرون أن البلاد خرجت من العمل السلبي ضد فرنسا إلى العمل الإيجابي والبناء، وهذا يتطلب تفكيراً وخططاً ودراسات. وكان الشباب يرون الشيوخ من أمثال جميل إبراهيم باشا وحسن بك وإبراهيم باشا أوصياء على العمل السياسي، ومن هنا بدأ الشبان يشتكون من سوء تصرف الكتلة الوطنية، فأدخلونا في مجلس الكتلة، واجتمعنا في قدسيا سنة ١٩٣٨، وأبدينا ملاحظاتنا على السياسة الحاضرة التي لم تنتج شيئاً مثمراً في

الداخل. وكان سعدالله الجابري وفارس الخوري وجميل مردم يقفون في وجوهنا، ويتذرعون بأن الظروف لا تسمح بالبدء في العمل الإيجابي البنّاء، إذ لا يزالون في موقف ضعيف ولاسيما بعد سلخ لواء إسكندرون عن سورية. ولم يكن أحد من الشبان معترضاً على الشيوخ من ناحية الثقة بوطنيتهم، وإنما كانوا يرون الحاجة ماسة إلى البدء بالعمل الإيجابي والتخطيط العلمي المدروس. لقد انتهى عهد السلبية التي كانت تجمع كل من يهاجم فرنسا، ويصفق لكل من يتصدّى لمحاربتها ولو كانت مومساً، وجاء عهد العقل والعلم والتخطيط، وهذا ما رفض الشيوخ أن يفهموه أو يأخذوا به، وقد ألححت على سعدالله الجابري بضرورة الأخذ بالإصلاح والتطور، وقدمنا نحن الشبان مطالب في مؤتمر قدسيّا في الجلسة التي كان رئيسها فارس الخوري، ووعدونا، ولكن لم يُنَفّذ شيء.

كان الجيل الجديد يرى ضرورة الأخذ بالتنظيم الحديث، بكل ما تعني كلمة التنظيم، ويرى الجيل القديم أن الجيل الجديد مستعجل؛ ولذلك ترجح لديّ أن الجيل القديم ليس لديه الاستعداد للتطوير والإصلاح والتخطيط والأخذ بالأفكار الجديدة البناءة، وترجح لديّ ضرورة السفر لإكمال دراستي العالية، وكنت كلما لوّحت بفكرة السفر اعترض سعدالله الجابري وقال لي: يا ابني تأخر تأخر، فنحن ما نزال بحاجة إليك. ولكن لما اصطدمنا في قضية الإصلاح وأصرّ الشيوخ على موقفهم قررت السفر، وقلت لسعدالله: لقد قمت بواجبي وأنتم في باريس، فنظمت الحرس الحديدي، ورتّبت الاستقبالات التاريخية لكم، ودعمتكم بكل ما أستطيع، والآن لم يبق لي عمل، مادمتم تصرون على موقفكم من الأخذ بالجديد من الإصلاحات.

س ـ وما قصة الخلاف بين رشدي الكيخيا وسعدالله ومتى بدأ؟

= كان الخلاف بينهما قبل عودتي. فقد جرت انتخابات قبل مجيئي، ونزل رشدي كيخيا وناظم القدسي بقائمة واحدة.

س ـ ما سبب الخلاف بين رشدي وناظم من طرف وسعدالله من طرف؟

= سبب الخلاف إصرار الجيل القديم على وضع العناصر القديمة في القائمة الانتخابية، كالشيخ عبدالقادر السرميني وعبدالرحمن الكيالي وغيرهما، واتجاه الشباب إلى العناصر الجديدة الشابّة، كرشدي الكيخيا وناظم القدسي..

س ـ هل كان رشدي الكيخيا في سنّ سعدالله الجابري؟

= رشدي أصغر من سعدالله بعشرين سنة. وقد بدأ الخلاف بينهما على القائمة الانتخابية، وقد يكون هناك جزئيات أخرى جرت في غيابي. وكانت نتيجة الانتخابات أن قائمة رشدي سقطت ما عدا رشدي وناظم، ونجحت قائمة سعدالله، فتعمقت الخلافات بين الفريقين.

ولما عدت إلى البلاد وجئت للسلام على سعدالله طلب مني التأهب للسفر سفيراً إلى المملكة العربية السعودية، وكنت عرفت أبعاد الخلاف بين سعدالله ورشدي وناظم، فقلت له: قبل السفر إلى الخارج دعنا نعمل لإصلاح الداخل، وأنت تعرف رأيي في هذه المسألة، ويجب أولاً أن نزيل الخلاف الذي بينك وبين رشدي وناظم، فأجاب: لا فائدة، ولا يمكن أن نتعاون معهم، ورفض رفضاً باتاً البحث في هذا الموضوع، على ما كان يحمل لي من مودة وتقدير.

س ـ ألم يكن في شخصية سعدالله مرونة؟

= سعدالله لم يكن مرناً، كان شديداً جداً.

س- هل يمكن أن تعطونا رأيكم في تقويم هؤلاء الشخصيات من الرعيل الأول مثل: سعدالله الجابري وجميل مردم وفارس الخوري، ولو باختصار؛ فهذا مهم ومفيد.

= شخصية سعدالله الجابري ما كُتِب عنها شيء. هو في اعتقادي شخص نقي، لا شك فيه، وكان يصلي ويصوم. وهذا ثابت عنه في أيام النضال، وبعد دخولي الكتلة الوطنية كان يدعوني للإفطار على مائدته في رمضان دوماً. ولما كان رئيساً للوزارة، ويحين موعد صلاة الظهر، يؤدي الصلاة في مكتبه وسجادة الصلاة في مكتبه دائماً. فالرجل كان متديناً ونظيفاً، أنفق ثروته في النضال ضد الاستعمار الفرنسي، في حين بقي إخوته أغنياء، مع أن ثرواتهم متساوية. وبعد أن أنفق ثروته وأصبح رئيساً للوزارة صار عبئاً على إخوته، هم ينفقون عليه.

س- ما دراسته وإمكاناته؟

= درس الحقوق في استانبول هو وأخوه إحسان الجابري، ولهما أخ اسمه نافع باشا، ارتفعت مكانته وصار مقرباً من السلطان عبدالحميد، وأخذ معه أخاهم الأصغر إحسان بك فكان مدير مكتب السلطان، فالعائلة كانت مقربة من السلطان. وأخوهم الحاج مراد الجابري كان متعمِّماً. أما أبوهم فهو الحاجي أفندي الجابري مفتي حلب.

كان سعدالله عنيفاً في المواقف التي تتطلب الصراحة والجرأة على الخصم، وفيه رجولة. لما اعتُقِل إبراهيم هنانو قال للفرنسيين: أنا وإخواني ألفنا مجلساً وحكومة، وأنتم معتدون، ولا يجوز أن تحاكموني. وأنا أستدعي سعدالله. وجاء سعد الله وأدّى شهادة جريئة قائلاً: نحن كنا مؤلفين مجلساً وحكومة لمقاومتكم، وهذه الشهادة كانت في مصلحة إبراهيم هنانو، وقد عرّض بها نفسه للخطر، ولم يتقدم أحد من الزعماء للجهر بها أمام الفرنسيين.

كانت وطنية سعدالله صادقة، ليست وطنية من يبحث عن زعامة أو مال. وكان عنيداً في رأيه، لا يتراجع عن تصوره واجتهاده؛ لذلك كان يخيف الكتلة الوطنية كلها. ولما مرض إبراهيم هنانو سنة ١٩٣٩ بالسل وشارف على الموت أقام عبدالرحمن الكيالي عليه دعوى؛ لأنه كان قد أقرضه ٢٠٠ ليرة ذهبية، وطلب الحجز على قريته، ووكل في ذلك عبدالغفور المسوتي المحامي، فتألم إبراهيم هنانو كثيراً، وكنت أتردد عليه وهو في دمشق بعد عودته من لبنان، فسألته: من تعين بعدك خليفة لك؟ عبدالرحمن الكيالي أم سعدالله؟ قال: لا، سعدالله. إياكم وعبدالرحمن الكيالي. لقد كان الفرنسيون يعتدون على أرضه الزراعية، وكان عبدالرحمن الكيالي يطلب نقل ملكيتها له مقابل الـ ٢٠٠ ليرة ذهبية، وزاد في ألمه معرفته أن عبدالرحمن الكيالي غني. وفي سنة ١٩٣٥ وبعد أن انتهيت من امتحاناتي كنت أزوره كلّ يوم في فندق أوريان بالاس، وأجلس معه في مجلس (صالون) له شرفة على الشمس، فكان يبكي أحياناً ويقول: مر عليّ زمن لا تستطيع عدة فرق فرنسية أن تلحقني، والآن أقبع في سريري لا أستطيع الحراك. وقد حملته أنا وشاب من بيت فنصة، ووضعناه في القطار في محطة الحجاز في دمشق، بعد أن أوصلتنا السيارة إلى باب المحطة، وأبلغنا حلب، واستلموه هناك من القطار، وهو في حالة النزع. ولما توفي جئت يوم تأبينه وألقيت كلمة في الجامع الأموي، أعلنت فيها خلافة سعدالله الجابري لإبراهيم هنانو. وهنا بدأت المعركة بين سعدالله وعبدالرحمن الكيالي، وأذكر أنّ عبدالرحمن قال لي: ما هذا التدخل؟ قلت له: أنا مواطن، ومن حقي أن أبدي رأيي، وأن أقول ما سمعت من إبراهيم هنانو، وعلى كل حال الحَكَم هو الشعب، فإذا كان الشعب لا يريد سعدالله فإنه يختارك، ولكن الشعب كله مع سعدالله، فتألم مني كثيراً.

كان الخلاف في حلب على الزعامة التي تستقطب الآخرين؛ ولذلك ما كان يفكر فيها حسن بك ولا جميل إبراهيم باشا ولا عبدالقادر السرميني، لأن هؤلاء جميعاً سيمشون مع سعدالله، ولا أحد منهم يمشي مع عبدالرحمن.

س- وعبدالرحمن الكيالي أما وقف إلى جانبه أحد؟

= لا، لم يقف أحد.

س- وهل هذا هو سبب ظهور سعدالله؟

= سبب ظهوره نظافته، ثم إن إبراهيم هنانو قال لي: عليكم بسعدالله، انتخبوه من بعدي.

س- لو تحدثتم عن إبراهيم هنانو: ما قصة كفاحه؟ ما زعامته وما إمكاناته؟

= كان إبراهيم هنانو في أثناء الاحتلال الفرنسي مديراً لمكتب المحافظ في حلب، وكانوا يسمونه (مكتوبجي)، وذلك في عهد فيصل لما كان جعفر باشا العسكري والي حلب. ولما دخل الفرنسيون البلاد التحق إبراهيم هنانو بقريته وأنشأ عصابة ضد الفرنسيين.

س- ما إمكاناته العلمية والعسكرية؟

= هو خريج حقوق، والتحق بوظيفة (مكتوبجي) كما أسلفت، ولما هب الشعب السوري لمقاومة الفرنسيين ترك وظيفته ليتفرغ للنضال. وإني لأذكر إلى الآن إذ كنت طفلاً دخول الفرنسيين إلى البلاد بعد احتلالهم كيليكية وإسكندرون عن طريق الساحل، وكان غورو قد احتل دمشق، فيومها هب أهالي حلب لمقاومة الفرنسيين حتى لم يبق أحد لم يخرج للمقاومة، وهجم الناس على الثكنات وفتحوها وتوزعوا الأسلحة، وأذكر أن والدي رحمه الله أحضر بارودة، وقال لنا

سيكون هجوم على حلب من الشمال. ومشيت أنا وراء الناس، دون أن أدرك شيئاً عن الحرب. وكان والدي إذا رأى دَماً يغمى عليه، ولما تقدم إلى الجندية فرزوه خدمة خلفية؛ لأنه لا يستطيع رؤية الدم، ولكن روحه كانت عالية، وإيمانه عميق، وهكذا كان شأن الشعب الذي دفعه إيمانه إلى مقاومة المحتل. وتشكلت لجنة للدفاع وتوزيع السلاح، ولجنة لجمع التبرعات. والذين خرجوا بالأهازيج رجعوا بعد قليل؛ لأن الجيش الفرنسي دخل إلى حلب من الجهة الثانية من خلفهم، وصار الناس يخفون السلاح الذي في حوزتهم خوفاً من التفتيش.

في هذا الجو المشحون بالنقمة على المحتل ظهر إبراهيم هنانو، وأعلن الثورة وابتدأ يقاتل من جبل الزاوية وتجمع الناس حوله. وقام من العلويين الشيخ صالح العلي بثورة ضد الفرنسيين، ولما لم يحالفها النجاح انسحب وهرب إلى فلسطين ثم دخل الأردن.

س ـ هل استطاع إبراهيم هنانو أن يؤثر بأعماله في الفرنسيين؟

= لقد أتعبهم حقاً، وكانت تركية تمدّه بالسلاح.

س ـ ما دافع تركية في مساعدته بالسلاح؟

= في أيام مصطفى كمال أتاتورك احتلت فرنسا سورية، ودخلت من كيليكية وإسكندرون وخرجت من الشمال في اتجاه الجزيرة إلى مدينة أورفة. فلما قامت ثورة هنانو اتصل به أتاتورك وأمده بالسلاح والذخيرة، انتقاماً من فرنسا، وأحست فرنسا الخطر، فوقفت عند لواء الاسكندرون، وتنازلت عن كيليكية شريطة أن تتوقف تركية عن مدّ هنانو بالسلاح، وتوقفت تركية، وأخفقت ثورة هنانو، وهرب إلى خارج البلاد. وهكذا فضّلت فرنسا الصلح مع تركية ولو على حساب توسّعها، لتسلم لها سورية، وكان لها ذلك.

١٣- خدعة الماسونية

س . هل كانت الماسونية منتشرة بين المثقفين؟

= كل السياسيين أجبروا على الدخول في الماسونية دون اقتناع.

س . كيف أُجبِروا على الدخول في الماسونية؟

= لما سافر أعضاء الوفد سنة ١٩٣٦ إلى المفاوضات نشط المحفل الماسوني قبل سفرهم، فلم يترك أحداً منهم إلا ألقى في روعه إذا أردتم النجاح في المفاوضات ومساعدتنا على حمل فرنسا على الاستجابة لمطالبكم فادخلوا في الماسونية. قالوا هذا لهاشم الأتاسي ولسعدالله، ولجميل مردم... وغيرهم وبذلك أدخلوهم جميعاً في الماسونية، بدافع تسهيل مهمتهم في المفاوضات. ويبقى عبدالرحمن الكيالي أكثرهم ضلوعاً وشهرة في الماسونية من غيره. وحتى أنا لم أنج من هذه المفاتحة، فقبيل سفري بأسبوع إلى فرنسا للدراسة سنة ١٩٣٩ جاءني ممدوح الأميري القاضي وقال لي: يا فلان أنت ذاهب لتدرس في فرنسا، فأنصحك أن تدخل معنا في الماسونية، ليساعدوك. فسايرته وقلت له: دعني أفكر فيها. ثم جاءني في اليوم الثاني، فقلت له: ما نوع المساعدة؟ أنا ذاهب بمنحة حكومية، فبماذا سيساعدونني؟ قال: في كل شيء تحتاج إليه. قلت: هل يستطيعون أن يساعدوني في الحصول على الشهادة؟ قال: طبعاً. هم سيؤمّنون لك الشهادة. قلت له: إذاً أرفض مساعدتهم؛ لأنني أريد أن أتعلم وأعمل، ولا أريد مجرد الحصول على الشهادة، هؤلاء يريدون أن يكسبوا إلى جانبهم أشخاصاً ولا يريدون مبادئ وقِيَماً، ورفضت الدخول.

لقد دخل كل السياسيين في الماسونية مُغَرَّراً بهم، أنها جمعية خيرية

تعاونية إلى ما هنالك من أوصاف مغرية، وبقوا على الهامش غير فاهمين حقيقتها، وهي أن الحركة اليهودية في قلبها. وكنا في أثناء الانتداب نعرف أن عبدالرحمن الكيالي وكامل أشرفية من أركان الماسونية في حلب.

س. أكان عبدالرحمن الكيالي طبيباً عاماً أم طبيب عيون؟

= كان طبيباً عاماً.

١٤- مظاهرة العمائم البيض

س. ما هي قصة مظاهرة العمائم البيض؟

= في فترة الحركات السلبية كانوا يجتمعون عند إبراهيم هنانو، والاجتماعات يرأسها هاشم الأتاسي. كان الدكتور الكيالي وأمير الوفائي وصبحي غازي أعضاء في الكتلة الوطنية برئاسة هاشم الأتاسي، وكلهم متساوون في الوضع العام، ولكن عندما تحدث تحركات ومجابهات يُعتَقل جميع أعضاء الكتلة ما عدا عبدالرحمن الكيالي. ولما قررت فرنسا فصل حلب عن الجنوب وإعلان تقسيم سورية إلى دويلات، كنت طالباً في الثانوية الشرعية (الخسروية) فقمنا نحن الطلاب بمظاهرة طويلة عريضة صاخبة، وحركنا مشايخنا، وأذكر أنني قلت لأخي الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا: يجب أن نقنع مشايخنا بالخروج في المظاهرة، فتحمس والد الأستاذ الزرقا رحمه الله الشيخ أحمد الزرقا، وكذلك الشيخ عمر المارتيني وكان في الثمانين من عمره وغيرهما. فتجمعوا في المدرسة الشعبانية القريبة من السراي العتيقة، وخرجت مظاهرة كبرى، لم يبق إمام ولا خطيب إلا مشى فيها، وكان أصحاب العمائم البيض لا يقلون عن ألفي شخص، يتقدمهم الشيخ أحمد الزرقا والشيخ عمر المارتيني والشيخ سعيد الإدلبي والشيخ عمر الشماع، وكلهم شيوخ مسنون، والطلاب وراءهم. وقد

خرجت المظاهرة من الشعبانية ووصلت إلى السراي القديمة. وكانت مظاهرات أخرى قادمة من جهة باب النصر. ولما وصلت المظاهرة التي نحن فيها إلى السراي كانت الدبابات وصلت إليها كذلك، ودوّت المناطق كلها بالتصفيق لأصحاب العمائم البيض، حتى إن التصفيق الحاد أثّر في قوّاد الدبابات فانسحبوا بدباباتهم من أمام باب (السرايا)، وفتحوا لنا الباب، فدخلنا (السراي)، وخرج وفد يمثل العلماء فيه الشيخ أحمد الزرقا والشيخ راغب الطباخ والشيخ عمر مارتيني، وقدموا إلى مرعي باشا الذي كان أعلن تقسيم سورية، قدموا إليه مذكرة، وكانت المدافع مسلّطة علينا من القلعة موجهة إلى (السراي) القديمة، وظللنا واقفين في المظاهرة، ثم تبين أن المباحثات والمذاكرات بين الفريقين تعقدت من أجل إطلاق سراح المعتقلين، وضابط المخابرات أو المسؤول العسكري كان واقفاً عند درج (السراي)، فأشار بيده إلى المرابطين في القلعة من الجند فانهمر الرصاص من الرشاشات كالمطر، وكنا نحن بين البلدية وباب (السراي)، ووقع منا قتلى كثيرون. أما الذين كانوا في الجانب الآخر فقد وقع منهم قتلى أكثر. وقد أصيب بعض المشايخ. ولما سمع والدي بأنني في المظاهرة جاء يسأل عني، وكنا أمام انهمار الرصاص عنيفاً نتدافع باتجاه حيّ المستدميّة، فسقط واحد، وتعثّر به من وراءه حتى صرنا جميعاً بعضنا فوق بعض، وتقدم والدي وأخرجني من بين ركام الأجساد وكنا جميعاً نلتقط أنفاسنا بصعوبة بالغة!

وقد اعتقل من المشايخ من اعتقل، وأُدخِلوا السراي، وكانت الشرطة تحتل السطح كله.

لم يكن إبراهيم هنانو عندنا، ولما سمع بإعلان تقسيم سورية هرب من وجه

السلطات الفرنسية، ونجا من حملة الاعتقالات الواسعة، وراحت الجرائد تنشر أن إبراهيم هنانو ظهر في الحي الفلاني أو القرية الفلانية والتحق بالعصابة التي أنشأها، واستمر الهجوم على فرنسا والحملات ضد التقسيم والمطالبة بالإفراج عن المعتقلين. فتخوفت فرنسا من أن ترجع ثورة هنانو، فاستدركت الموقف وألغت التقسيم، وأطلقت سراح المعتقلين، وكان من بينهم هاشم الأتاسي، فقد اقتادوه إلى جزيرة أرواد. أما هنانو فقد أفلت من يدهم.

١٥- هاشم الأتاسي ورجالات سورية

س. هل لديكم ما تقولونه عن شخصية هاشم الأتاسي؟

= هاشم الأتاسي من عائلة علمية متدينة، كان أخوه مفتياً في حمص. أما هو فكان قائمقام في الكرك بعمان في عهد الدولة العثمانية. وفي عهد الملك فيصل عُيِّن رئيساً للوزارة، وأُخِذت منه البيعة بالخلافة للشريف حسين، وسقطت الحكومة الفيصلية، ودخل الفرنسيون سورية، وهو رئيس وزارة. ومن هنا كان مقدَّماً لرئاسة الكتلة الوطنية لما تألفت حركة المقاومة السياسية، إذ برز بارتباطه بفيصل، ومعظم الناس كانت عواطفهم مع فيصل.

س. هل كانت سنُّه عالية؟

= نعم، هو متقدم على أعضاء الكتلة بالسنّ.

س. ما ثقافته؟

= هو خريج معهد الحقوق.

س. ما تعليقكم على شخصية جميل مردم الذي كان يُسمّى ثعلب السياسة السورية؟

= هو من العائلات الدمشقية التي تعتمد على الزراعة والأرض، درس الحقوق

في فرنسا، ولم يكن محامياً. كان حركة دائمة في دمشق، لا يغني عنه أحد في الأجواء السياسية، ولكن الشباب ما كانوا يثقون به. وكانت الزعامة على سورية كلها لإبراهيم هنانو، ومع ذلك أسقط الفرنسيون قائمة هنانو كلها إثر وقوفه في وجه تصديق معاهدة كانت تسعى فرنسا إلى تصديقها، وذلك في سنة ١٩٣٣ بعد ثورة جبل الدروز، فقد وعدت بالاستقلال، وراحت تهيئ معاهدة وتأليف حكومة بطلها شاكر نعمت الشعباني، على ما أذكر من حلب، وكان وزيراً للمالية، وسميت آنذاك بمعاهدة الشعباني. واجتمع المجلس بعد الانتخابات التي أسقط الفرنسيون فيها قائمة هنانو، ليصدق على المعاهدة، وجاء إبراهيم هنانو إلى دمشق، وراح يطوف على النواب واحداً واحداً، محذراً إياهم من التصديق على المعاهدة، ومسدسه بيده.

وكان جميل مردم في المجلس عن دمشق، فقام هو أيضاً بالطواف على النواب، وتم الاتفاق على أن تقوم مظاهرات ساعة اجتماع المجلس للتصديق على المعاهدة، وعرف الفرنسيون ذلك كله، فسدّوا كل الطرق، ولكن جميل مردم كان أشطر منهم، إذ كان حركة دائمة، فجمع نحو مئة امرأة في دار شرق مجلس النواب من الحارات الداخلية، أدخلهنّ البيوت، ولما انعقد المجلس خرجت النسوة يندبن ويصحن بأعلى أصواتهنّ، وهذا ما يسمى باللغة العامية (الولاويل)، وكنت واحداً من طلاب كلية الحقوق الحاضرين هذه الجلسة، إذ دُعينا إلى حضور جلسة مجلس النواب هذه بتكليف من إبراهيم هنانو، ووصلت إلينا بطاقات الدعوة. كانت (ولاويل) النساء تصل إلى أسماعنا كالصواعق، وكان المندوب السامي الفرنسي حاضراً، ووقف جميل مردم وأراهم مظاهرة النساء، وألقى خطاب الكتلة الوطنية بالرفض، والمظاهرة قائمة في الخارج

وصوت الرصاص يدوّي، فصوّت جميع النواب على رفض المعاهدة، وقد لعب جميل مردم في هذه القضية دوراً كبيراً ومهماً، وهذا ما أبرزه، ومع ذلك كان الشباب لا يثقون به.

س ـ أكان له تعاون مع الفرنسيين؟

= لا، ولكن كان متصفاً بالنفعية. وما كان غنياً، ويوم صارت قضية فلسطين شغلنا الشاغل جُمِعت أموال عن طريق رئيس الوزارة جميل مردم واستلمها ولم يُعرَف مصيرها، وكنت نائباً سنة ١٩٤٧ - ١٩٤٨ فألقيت خطاباً في المجلس النيابي هاجمت فيه جميل مردم. فما كان لنا به ثقة.

ومن الطلاب الذين قدموا من أوروبا عبدالرزاق الدندشي، وقد أسس عصبة العمل القومي، ودخل فيها عدنان الأتاسي. وكان منير العجلاني من جماعة الشهبندر. أما الشبان آنذاك رشدي كيخيا وناظم القدسي وسيف الدين مأمون فقد انضموا إلى الكتلة الوطنية. ولما جاء إبراهيم هنانو إلى دمشق لإحباط معاهدة الشعباني لقيه عبدالرزاق الدندشي وقال له: يا إبراهيم بك، أبعدوا جميل مردم ونحن معكم، لأنه لا ثقة للشباب كلهم به، ونحن لا نستطيع أن نمشي في كتلة فيها جميل مردم، فقال له إبراهيم هنانو، وقد أعجبني جوابه: نحن الآن في معركة، فالذي يتقدم الصفوف لا أستطيع إرجاعه، ولو كان مومساً، والباب مفتوح لك يا عبدالرزاق، إذا كنتم تريدون التخلص من جميل مردم، فانزلوا إلى ساحة المعركة، وكونوا أمامه يكن خلفكم. أما أن يكون ماشياً إلى الأمام، وأنتم مبتعدون معتزلون، فلا يمكن إبعاده. إني أراه في المعارك السياسية في المقدمة، ولا أرى منه في المواقف إلا الإقدام، أفيجوز لي أن آتي وأبعده، وأنتم لا أرى منكم إلا التمني!؟ قال إبراهيم هنانو

هذا الكلام وأنا حاضر. فجميل مردم شخصية ذكية متعلمة، إذا ذكرت دمشق فهو من رجالها. وفيها أيضاً فخري البارودي؟

س. ما تعليقكم على شخصية فخري البارودي؟

= كان فخري البارودي ضابطاً في الجيش العثماني، والتحق بالثورة العربية بقيادة الشريف حسين، ثم انضم إلى الكتلة الوطنية. كان هذا الرجل – في اعتقادي – من أخلص رجال الكتلة الوطنية قلباً، غير ملتفت إلى شيء من المطامع، لا يداري ولا يبالي، إذا تحرك تحركت دمشق، يعدّ من أبرز الرجال الذين ظهروا في الحركة الوطنية، ومن أقدمهم وأكثرهم تضحية. ولسنا هنا في مقام التوسع والتفصيل، وأراني مدفوعاً إلى القول: إن رجال الحركة الوطنية جميعاً كانوا واقفين في مواجهة الأخطار في العهد السلبي، وإذا ظهر منهم شيء من قصور فهو في العهد الإيجابي، إذ برز الشباب المتعلم الذي له آراء وأفكار جديدة، ويرغب في التغيير والتطوير، وتنحية الجيل السابق الذي كان واقفاً في العهد السلبي، والبروز إلى المقدمة. وما كان يبديه الشباب من ملاحظات على رجال الكتلة الوطنية الشيوخ هي ملاحظات وجيهة، ولكنها لا يمكن أن تمحو صفحة الجهاد السلبي، وتستبدل بها صفحة الشباب الذين جاؤوا بعد زوال السلطة الفرنسية، ونشؤوا في عهد الرخاء والسلم، دون أن يقدموا ما قدمه أسلافهم من تضحيات. إنهم شبان متعلمون قدموا من أوروبا، ويستعجلون حركة التغيير والتطوير والرغبة في اشتراكهم في المسؤولية. وهذا كله لا ينقص من قدر رجال الكتلة الوطنية الشيوخ، ومن أبرزهم جميل مردم وفخري البارودي، وممن لم أدركه منهم فارس الغزي. وكان هاشم الأتاسي على رأس الكتلة الوطنية كما أسلفت، وإلى جانبه في حمص مظهر رسلان.

س ـ لو وقفتم عند شخصية هاشم الأتاسي، وبينتم أبرز معالمها بالإضافة إلى ما ذكرتموه عنه قبل قليل.

= أعلام الكتلة الوطنية كثيرون، وما ينبغي أن ننسى مواقفهم النبيلة في العهد السلبي، ولابد من الوقوف وقفة واضحة عند ذلك الشيخ المهيب هاشم الأتاسي؛ فقد كان في الحياة السياسية السلبية من أقدم رجال الكتلة الوطنية، وأكثرهم خبرة وتجربة، وأبعدهم بصراً في الأمور، وأرجحهم تواضعاً وتفكيراً. ولذلك أكثر الفرنسيون من اعتقاله لسابقته في مطالع الثورة الدمشقية والدرزية. وظل صامداً يقود الكتلة الوطنية متخذاً من دمشق قاعدة للعمل والتحرك، حتى إنني ليمكنني القول: إن هاشم الأتاسي كان المعبر عن الحركة النضالية السورية بأجمعها، وقد التف حوله الألوف من العاملين في الحقل السياسي. كان رئيساً للوزارة في عهد الملك فيصل، وكان حوله إجماع باسم سورية، فمن باب أولى أن يكون حوله إجماع لرئاسة الكتلة الوطنية في العهد السلبي. ولقد أدركناه في ظروف خاصة أيام الانقلابات فكان من أجرأ الشخصيات في مواجهة الأحداث. ولما أعلن أديب الشيشكلي دستوره ليحكم البلاد حكماً عسكرياً كنا بأجمعنا نحن الشباب نتجه إلى هاشم الأتاسي في حمص، فيترأس الاجتماعات، ويقود بروحه الجريئة الجماهير المجتمعة المنادية برفض دستور الشيشكلي الذي أعلنه، غير مبال ولا ناظر إلى شيخوخته وصحته، بل كنا نحن معشر الشباب نستمد من جرأته وشجاعته معاني الرجولة والفتوة والإقدام.

س ـ وماذا عن الشخصيات الأخرى في الكتلة الوطنية؟

= من أبرز من عملنا معه من رجال الكتلة الوطنية رشدي كيخيا وناظم القدسي

عملنا مع رشيدي كيخيا في كثير من القضايا والمواقف السرية والخطيرة؛ لأنه كان في منتهى الجرأة والتضحية، ومن الأشخاص الذين يندر وجود أمثالهم في الفكر النير والبذل والإقدام. أصبح عميداً لحزب الشعب بعد انفصاله عن الكتلة الوطنية وتأليفه حزب الشعب. وما كان هذا الانفصال لنقص في مفاهيم المبادئ التي قامت عليها الكتلة الوطنية، وإنما لخلاف بين رغبات الشباب الطموح، وتوقف شيوخ المعركة عند مفاهيم الدولة العثمانية التي عاشوا فيها. وقد نكون نحن الشباب متسرعين أو مخطئين، وعلى كل حال ما ينبغي إغفال مكانة الشيوخ في نفوس الشباب. وكان في مقدمة هؤلاء الشباب الذين وقفوا المواقف الطيبة وأثبتوا وجودهم في قيادة العمل السياسي السيد رشدي كيخيا، فقد كان مثالاً في الجرأة والتضحية والإخلاص.

س. هل كانت هناك أسباب شخصية للخلاف بين سعدالله الجابري ورشدي الكيخيا؟

= لم تكن الخلافات بينهما أبداً على قضايا شخصية، وإنما الخلاف نشأ من رغبة رشدي الكيخيا قيادة الشباب الراغب في التجديد في المنهج والطريقة والنظرة إلى الدولة، وقد توافر في شخصية رشدي الجانب الإيجابي المطلوب، ومع أنه لم يكن لديه دراسة عليا كان بفكره النيِّر يتقدم على أصحاب الشهادات.

١٦- سعدالله الجابري

س. هل من مزيد في تجلية شخصية سعدالله الجابري؟

= تحدثت فيما سلف عن شخصية سعدالله الجابري، وأضيف أنه كان ضابطاً وشارك في الحرب العالمية الأولى أيام الحكم العثماني. وبوجه عام المتعلمون في ذلك التاريخ كلهم كانوا ضباطاً. والذي أبرز سعدالله الجابري عمله في الكتلة الوطنية، ففيها برز شخصيةً سياسيةً كبيرة، لا يهادن الأجنبي ولا يجامله

ولو توقع منه أكبر الأخطار، وذكرت فيما سلف أنه أنفق ثروته على العمل الوطني وكان من الأغنياء، وأصبح بعد ذلك عالة في نفقاته السياسية على إخوته وعائلته. وكان في منتهى الإخلاص لإبراهيم هنانو ثم لهاشم الأتاسي عندما تزعم الحركة الوطنية في رئاستة للكتلة الوطنية. وكان مثالاً للانتظام والطواعية مع الشخصيات المقدمة عليه من أصحاب المكانة الكبيرة في تاريخ الحركة الوطنية كإبراهيم هنانو وهاشم الأتاسي، فلا تكاد تحسّ له وجوداً أمامهم، مع أن مثله خليق أن يبرز ويقف معهم، ولكنه كان متواضعاً ومخلصاً ومتفانياً أمام القيادة التي يراها أيضاً مخلصة متفانية. والذي عرفته ووقفت عليه بنفسي أنه كان كالصفحة النقية يظهر عليها أقل مما يعكر الحياة السياسية، ويرفضه ويثور عليه. وأستطيع القول: إن دوره في الكتلة الوطنية كان دور الضامن لاستقامة العمل السياسي وللصمود وللصبر وللجهاد. وكثيراً ما كانت تتوقف المحادثات فيما بين رجال الكتلة على رأي سعدالله الجابري، فإذا كانت القضية من القضايا التي تختلف فيها الآراء، فإن سعدالله هو المرجع، ورأيه هو الأقوى. وما كان يتخوف من رأيه مهما كان خطيراً على النفس، وكان لا يتهيب المخاطر ويقدم عليها.

س ـ هذه مزايا طيبة لا شك في ذلك، ولكن أما كانت تعوزه العقلية المتفتّحة التي تجاري الشباب ورغباتهم في التجديد والإصلاح التي أدى تجاهلها إلى إنشاء حزب الشعب؟

= نشأ سعدالله في جو الرعيل الأول الذي كان في مقدمته إبراهيم هنانو والشيخ العجوز المسنّ جميل إبراهيم باشا الذي كنت تراه في المظاهرات يقارع العدو، ويقف أمام الدبابات. وكذلك أخوه حسن بك، وسعدالله كان أكثر ثقافة

وأعمق فكراً من ذلك الرعيل، ولكنه كان يراهم يقتحمون المخاطر والأهوال، فما من سجن إلا دخلوه، ولا معركة إلا خاضوها، فما كانت نفسه تطاوعه أن يتخلى عنهم. والشباب ما كانوا يتفهمون فكرة التمسك بالشيوخ. وسعدالله الذي رافق هؤلاء في مرحلة النضال السلبي ورآهم أبطالاً مخلصين، كان يرى من الوفاء ألا يتخلى عنهم.

س ـ ذكرتم حسن إبراهيم باشا!

= هذا أخو جميل إبراهيم باشا، وكانوا ينادونه في حلب: أبونا حسن بك. ما حدثت اعتقالات مرة واحدة في صفوف رجال الكتلة إلا كان حسن بك وأخوه في المقدمة. ومن الشائع المعروف في حلب هذا الهتاف الشعبي في أثناء سجنه: «بدّنا أبونا حسن بك». كانت دارهما واسعة جداً، وهي بيت إبراهيم باشا والدهما، فصارت لسعتها مكان التجمعات الوطنية الكبيرة، وتقع وراء مخفر باب النصر في حارة الفرافرة، وكنا ندرّب الشباب فيها، والتدريب يجري في أرض الدار والحديقة والبركة الكبيرة الواسعة بعد تفريغها من الماء.

س ـ هل كان الأخوان من مؤسسي الكتلة الوطنية؟

= نعم.

س ـ هل جميل إبراهيم باشا هو جميل قطر آغاسي؟

= نعم، وعرف بلقب إبراهيم باشا جد العائلة. وكان رئيس شركة سياحية لانتقال القوافل التجارية التي تأتي إلى حلب، والمسؤول عن تهيئة قوافل العربات التي تُستأجر. ويذكرون أنه كان أمّياً، ولكن كان ذكياً نبيهاً. وقد علا شأنه في عهد محمد علي باشا، فكان مقرباً إليه يحل مشكلات الناس عنده، وأنعم عليه برتبة باشا، وأصبحت العائلة تنتسب إليه انتساب مهنة (قاطرة إسي).

١٧- مرحلة الاستقلال

س- نريد أن ندخل الآن في مرحلة الاستقلال وما قمتم به في هذه المرحلة، ومتى كان سفركم لطلب العلم في باريس؟

= لقد تأخرت في سفري إلى باريس إلى سنة ١٩٣٩، مع أنني أنهيت دراستي في الحقوق والآداب سنة ١٩٣٥، ذلك أن المعركة مع الاستعمار، وبدء عهد الاستقلال المؤقت، ورغبة القيادة الوطنية وبخاصة سعدالله الجابري في أن أؤخر سفري، كل ذلك اضطرني إلى تأخير سفري. ولكن لما اضطربت الأمور في سنة ١٩٣٩ وظهر تآمر اليهود مع الحكومات الفرنسية لوقف تصديق المعاهدة ترجح لديّ السفر واستأذنت سعدالله الجابري كما بينت آنفاً، وسافرت قبيل إعلان الحرب بـ ٥-٦ أشهر، ووصلت إلى باريس ولم أعد إلا في سنة ١٩٤٦.

س- هل حضرتم عيد الجلاء في سورية؟

= لم أحضر. جئت بعد الاحتفال بالجلاء، لأنه كان في نيسان، وأنا جئت في شهر تموز.

س- هل تم تأليف حزب الشعب بعد الجلاء؟

= نعم، بعد الجلاء، في سنة ١٩٤٧.

س- هل كان سعدالله الجابري رئيس الوزارة سنة ١٩٤٦؟

= رئاسة الوزارة كانت متبادلة بين جميل مردم وسعدالله، أحدهما يكون رئيساً للوزارة والآخر يكون وزيراً للخارجية. أما رئاسة الجمهورية فكانت لشكري القوتلي.

س ـ هل كان المجلس النيابي قائماً بعد الجلاء؟

= لما ضرب الفرنسيون المجلس النيابي، وحيل بين النواب وبين الوصول إليه كان المجلس قائماً، وهو المجلس الذي أُسِّس منذ إعلان الاستقلال سنة ١٩٤١.

س ـ ألم يُدعَ إلى انتخابات جديدة بعد جلاء الفرنسيين؟

= دُعِي إلى انتخابات جديدة سنة ١٩٤٧. وكانت عودتي من فرنسا في أواخر سنة ١٩٤٦، بعد أن وفقنا الله إلى تحرير الحاج أمين الحسيني وتهريبه إلى مصر. وعُيِّنتُ أستاذاً في الجامعة السورية، ثم جرت الانتخابات الجديدة.

س ـ هل دخلتم هذه الانتخابات؟ وهل كان حزب الشعب قد تألف؟

= أنا ما كنت مرشَّحاً للانتخابات في هذه المرحلة، وإنما دخلت في تكتلات شخصية فردية، وأذكر كتلة من الإسلاميين كان يقودها الشيخ راغب الطباخ وقفت معها. أما حزب الشعب فلم يتألف إلا بعد الانتخابات وانعقاد المجلس، فهو انبثق عن المجلس.

س ـ حدث أن ترشحتم للانتخابات في مرحلة من المراحل أنتم والأستاذ الزرقا والأستاذ المحامي عبدالقادر السبسبي، فمتى كان ذلك؟

= كان ذلك في عهد إبراهيم هنانو لما قامت الثورة في جبل الدروز، وأنشئ المجلس النيابي، وكنت لا أزال طالباً، وقمنا بدعم الجبهة الإسلامية بقيادة الشيخ راغب الطباخ رحمه الله. وما كانت هناك تنظيمات إسلامية.

س ـ ومن حالفه النجاح في ذلك الحين؟

= لم ينجح إلا التكتل الوطني، ولم ينجح من الإسلاميين ولا من غيرهم أحد، حتى إبراهيم هنانو لم ينجح؛ لأن الفرنسيين زوّروا الانتخابات، وأنا لم أنجح أيضاً، بل أُسقِطتُ.

س ـ وفي انتخابات سنة ١٩٤٧ كيف كان ترشيحكم؟

= كنت أستاذاً في الجامعة، وتقدمت بترشيحي باسم تكتل الشباب. وكان هنك تكتّلان: تكتّل الإسلاميين مع الأخ الأستاذ عبدالقادر السبسبي، وتكتل آخر مع رشدي الكيخيا. وكان اسمي موجوداً في التكتلين، وكنت مقبولاً من الجانبين. ولم يكن هناك حزب. وبعد أن تشكّل المجلس سنة ١٩٤٧، وتوفي سعدالله الجابري قبيل الانتخابات، ضعفت الكتلة الوطنية بوفاته، وأصبح لابد أن يكون هناك حزب آخر، فكان حزب الشعب.

س ـ ورجال الكتلة هل أسسوا الحزب الوطني في حياة سعدالله؟

= الحزب الوطني أنشئ بعد وفاة سعدالله.

١٨ ـ إنشاء حزب الشعب

شاع في أوساط الكتلة الوطنية أن الشباب في حلب مثل رشدي كيخيا وناظم القدسي انسحبوا منها، وكنت أنا قادماً من أوروبا فانضممت إليهم، وما كان هناك إلا تكتلات شباب. ولم يعد للكتلة الوطنية تلك المكانة، وبخاصة بعد وفاة سعدالله الجابري. وأنشئ الحزب الوطني، وما كان إنشاؤه أقدم من سنة ١٩٤٧. وفي الوقت ذاته قاد رشدي كيخيا فكرة تأسيس حزب من الشباب في جميع المدن السورية من دمشق إلى حلب، وانضم إلينا جماعة من حماة وجماعة من حمص.

س ـ هل كان تأسيس الحزب على أساس التجمّع النيابي؟

= نعم، فبعد أن نجح مَنْ نجح من الشباب في دمشق وحلب وحمص وحماة انضموا إلى رشدي الكيخيا وأسسوا حزب الشعب في صيف ١٩٤٧.

س- هل دخلتم معركة انتخابية بقائمة مرشحين كاملة باسم حزب الشعب في مواجهة الحزب الوطني قبل انقلاب حسني الزعيم؟

= نعم، دخلنا معركة انتخابية واحدة. وبعدها حدث انقلاب حسني الزعيم، وحُلّ المجلس. ولما قُضِي على حسني الزعيم، وتنادينا للاجتماع لانتخاب مجلس يضع دستوراً جديداً، اشتركنا في الانتخابات للمرة الثانية باسم حزب الشعب لتشكيل هيئة تأسيسية في سنة ١٩٥٠، وكان رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي.

١٩- انقلاب حسني الزعيم

حدث انقلاب حسني الزعيم عقب تأسيس دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨؛ ذلك أن نقمة الشعوب على الحكام كانت شديدة بسبب ضياع فلسطين وانتصار العصابة اليهودية. وظهرت الرغبة العامة بوجوب التغيير؛ لأن الدول العربية السبع دخلت المعركة ضد إسرائيل بسبع قيادات، ودخلتها إسرائيل بقيادة واحدة؛ ولذلك كانت الجيوش العربية غير منسجمة ولا مهيأة لمعركة النصر. ومن هنا كانت النقمة على الحكام، وظهرت أشد حملات النقد ووجوب التغيير في سورية. وما كنا نعلم ماذا تخبئ الأقدار. ظهرت هذه النقمة في الوقت الذي كان رجال CIA الأمريكية في بدء نشاطهم وتخطيطاتهم عقب الحرب، وبعد قيام إسرائيل، فانتهزوا فرصة انتشار النقمة على الحكام لضرب سورية بإحداث انقلاب فيها يمتص نقمة الشعب الناقم. وإذا رجعنا إلى كتاب مايلز كوبلاند (لعبة الأمم)، وكوبلاند هذا أحد مؤسسي CIA بعد قيام إسرائيل، فإننا نجده يقول فيه: كنا نفكر بأن نبدأ بالانقلاب في المملكة العربية السعودية، ولكن كنا نعتقد أن لا جدوى في هذا الانقلاب، لأن السعودية كانت لا تزال معزولة عن العالم. والتفكير ببدء الانقلابات في السعودية من تأثير الصهيونية العالمية في CIA؛ لأن السعودية هي الدولة الوحيدة التي وقفت موقفاً

صريحاً حازماً ضد تأسيس دولة إسرائيل، وأفهمت ذلك روزفلت الذي استطاع محادثتها في أثناء الحرب، بخلاف الدول العربية الأخرى؛ إذ كانت كلها تحت الاستعمار. ويضيف كوبلاند: ولذلك فكرنا أن يكون الانقلاب في العراق، ولكن وجود الإنكليز وعرقلتهم لمساعينا من جهة، وحرصنا على ألا نخسر صداقة العائلة الهاشمية من جهة أخرى، كل هذا صرفنا عن العراق ووجهنا إلى سورية، وسورية ظهرت فيها النقمة على الحكام أكثر من غيرها، وارتفعت فيها أصوات تطالب بتجديد النظام العربي كله؛ إذ لا يجوز بعد قيام إسرائيل أن نبقى دولاً متعددة، وإنما ينبغي أن نقيم اتحاداً. وقد تقدم حزب الشعب في بداية تأسيسه بدعوة إلى إقامة اتحاد بين الدول العربية.

ومن هنا كانت رغبة الأعداء ضرب سورية بالدرجة الأولى، وكان انقلاب حسني الزعيم. وكنت عضواً في المجلس النيابي، فعرض علينا اتفاقيات للتسوية النقدية بيننا وبين فرنسا؛ لأن نقدنا كان يصدر من البنك اللبناني الفرنسي مضموناً بالذهب، وكنا نطلب حسب النص المكتوب على الليرة السورية أن تعيد فرنسا قيمتها ذهباً حتى تستطيع سورية إصدار عملتها مغطاة بالذهب، ورفضت فرنسا وأصرت على أن تعطينا ما يقابله ونشتري به بضاعة من عندها. وفي الوقت نفسه كانت شركة التابلاين تأسست لضخ البترول من المملكة العربية السعودية ماراً بالأردن والجولان على الحدود التي توجد فيها إسرائيل. وكنت أنا رئيس اللجنة الاقتصادية والاتفاقيات. كانت عندنا: اتفاقية التسوية النقدية بيننا وبين فرنسا، واتفاقية التابلاين، فرفضنا بإجماع اللجنة الاتفاقيتين، وحجتنا أن إسرائيل قد قامت فلا يجوز أن يمر هذا الخط ومعه رجال الصيانة من الأمريكان في المنطقة العسكرية التي يجب أن تكون مراقبة وسرّيّة، ورفضنا أيضاً مشروع التسوية النقدية التي وقعها آنذاك جميل مردم، على أن يكون الذهب في مقابل البضاعة. وكنا تقدمنا

بمشروع إقامة اتحاد عربي كما أسلفت، فجاء رفض هاتين الاتفاقيتين، ومشروع الاتحاد العربي برهاناً على أن سورية ستكون قائدة معركة المصير والكيان المنتظر، وهذا ما لا يرضي الأعداء المتربصين بنا، فحدث الانقلاب، وكان خديعة لتمرير المخططات التي كنا نقف في وجهها، ففي اليوم السادس من الانقلاب وُقِّعت الاتفاقية مع التابلاين، ووقعت اتفاقية التسوية النقدية مع فرنسا، وتنازلت سورية عن نهر الدان لإسرائيل، ونهر الدان هو الذي يغذي نهر الأردن، ومياهه وينابيعه أكثر من مياه نهر الأردن ومن أغنى الينابيع التي كانت لنا. وهكذا كان انقلاب حسني الزعيم مخططاً لدعم إسرائيل، وتحقيقاً لمصلحة فرنسا أيضاً؛ لأنه كان في الجيش الفرنسي ضابطاً له صلات وثيقة بالفرنسيين. وعرفوا كيف ينتهزون فرصة النقمة العامة على الحكام التي لم يسلم منها أحد كشكري القوتلي وجميل مردم وغيرهما. وقد بلغت النقمة عليهم أن ظهرت معارضة لتجديد مدة حكم شكري القوتلي التي انتهت في أثناء الحرب مع أن الأكثرية صوتت بالتجديد له. ولكن الخلاف بين الشبيبة والشيوخ كان بارزاً أيضاً، واستغله حسني الزعيم، ولذلك دعانا في صبيحة الانقلاب، وقال: إننا قمنا بالانقلاب لتحقيق رغبة الشباب.

س ـ هل دعا النواب؟

= نعم، دعا النواب جميعاً لتأييد حركته. وحسب أن الشباب الناقمين على الشيوخ سيعطونه ثقتهم وموافقتهم على حركته ويتعاونون معه. ولكن النواب أفهموه أن نقمتهم على العهد الماضي لا تستدعي تسليم البلاد إلى أشخاص مجهولين، واستنكروا نزول الدبابات إلى الشوارع، تاركة الجبهة مكشوفة للعدو، وأوضحوا له أن أخطاء الماضي تُعالَج بتصحيحها في جو ديموقراطي، لا بقيام انقلاب عسكري يستلب السلطة ويقمع الحريات، وحاول حسني الزعيم إقناع

النواب من الشباب بشتى الوسائل، فلما يئس من موافقتهم اعتقل عدداً كبيراً منهم.

س ـ هل عطّل الحياة النيابية؟

= نعم، عطّلها، وظلت معطّلة إلى أن قُتِل بعد ثلاثة أشهر ونصف.

س ـ ما تقويمكم لشخصيته؟

= هو شخص عادي ثانوي جداً، وليس من الشخصيات التي لها ماض مشرّف كان رئيس الأركان لما قام في الانقلاب، وقبل ذلك كان ضابطاً في الجيش الفرنسي. شُنَّت عليه حملة في المجلس النيابي بسبب سوء تصرف وقع في تمويل الجيش، وقد أصابته هذه الحملة، ومع ذلك كله لم يكن قادراً على أن يقوم بالانقلاب من تلقاء نفسه، وكل أعماله دلّت على أنه مدعوم خارجياً، وهذا ما صرّح به مايلز كوبلاند بأن الأمريكان هم الذين فكروا أن يعملوا انقلاباً في سورية.

س ـ هل كان رئيس وزرائه حسني البرازي؟

= لما جعل حسني الزعيم نفسه رئيساً للجمهورية، كان البرازي أميناً عاماً في القصر الجمهوري، فصار رئيس وزارة.

وبعد أن جعل حسني الزعيم نفسه رئيساً للجمهورية بانتخابات مزيفة بدأ يتقرّب من مصر ضد العراق، وكانت العراق تعمل سراً على إزالته وضم سورية إلى العراق، وكان عبدالإله وصياً على عرش العراق، فإذا ضُمّت سورية إلى العراق، كان من الممكن فصلها مرة ثانية، وبذلك يكون عرش لعبد الإله وعرش لابن فيصل. كانت العراق تسعى لهذا الهدف، فهيؤوا سامي الحناوي الذي قام بالانقلاب على حسني الزعيم،

٢٠- انقلاب سامي الحناوي

كان الحناوي على صلة مع العراق، ولكنه لما قام بالانقلاب دعا لوضع دستور جديد، وأعلن أنه لن يتدخل. وهنا قامت العراق تطالب بضم سورية إليها. واختلفت الآراء ما بين داع إلى انتخابات ووضع دستور جديد، وبين داع إلى الانضمام إلى العراق قبل الانتخابات والدستور. ولما دعانا سامي الحناوي لم نرض إلا بانتخابات جديدة. وتمت الانتخابات وقضت أن نضع الدستور، وتبين لنا أن الحناوي كان على تفاهم مع العراق، وأن حسني الزعيم كان على تفاهم مع مصر.

ولما تمت الانتخابات التي جرت على أنها ستفضي إلى هيئة تأسيسية تضع دستوراً للبلاد، كثرت الوفود بين العراق وسورية ذاهبة آيبة من أجل وضع دستور ينص على الاتحاد مع العراق. وكانت العراق مرتبطة بمعاهدة مع إنكلترا، ولذلك لم تلق الرغبة بالوحدة مع العراق أي تجاوب في سورية. وحرصنا نحن بعد الانتخابات على وضع مادة وحيدة في الدستور قبل إخراجه: (سورية جمهورية). لكي نغلق الباب أمام الفريق الآخر، وصوّتنا على هذه المادة أولاً، على أن نتمّ مواده الأخرى فيما بعد، مخالفين في ذلك طريقة وضع الدساتير؛ لأن الضغط علينا كان شديداً والمساومات كثيرة، وخشينا أيضاً من الانقسام في البلاد، وانتخبنا هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية، وكان من أنصار فكرة العمل مع العراق؛ لأنه كان رئيساً للوزارة في عهد فيصل، ولكن الفكرة التي سادت في سورية أن العراق مرتبط مع إنكلترا، فكيف ننضم إليها؟ وإذا كانت هناك نقمة على الحكم في سورية التي ذهبت فلسطين في عهده، فإن العراق لم تقاتل البتة، وكلمتهم (ماكو أوامر) مشهورة متداولة على الألسنة للتندر! وبذلك أخفق الحناوي في مهمته، وقطعت الطريق على المساومات والمؤامرات. وتبين لنا فيما بعد أن تفاهماً قام بين الفرنسيين المتخوفين من ضم سورية إلى العراق وبين أديب الشيشكلي الذي جاء إلى الحكم بانقلاب عسكري

أيضاً، على أن تضم العراق إلى سورية، وليس العكس. وكان هجوم الفرنسيين على سلطان مراكش شديداً جداً؛ لأنه ألقى خطاباً هاجم فيه فرنسا، فهي إذاً توافق على ضم العراق إلى سورية في مقابل أن لا يتكلم أحد ولا يتدخل في شؤون شمال إفريقيا. ففرنسا كانت تعمل من وراء الستار، وإنكلترا تعمل من وراء الستار، ولكلتا الدولتين أهداف وأغراض ليست في مصلحتنا جميعاً؛ ولذلك تسارعت الانقلابات في بلادنا، وكان الانقلاب الأول لمصلحة إسرائيل؛ إذ وأد فكرة الاتحاد العربي التي دعا إليها حزب الشعب ليصبح لنا كيان قوي، يستطيع الوقوف أمام إسرائيل، ثم لعبت بالانقلابات التالية الخصومات والمصالح بين إنكلترا وفرنسا، فهذه تريد ضم العراق إلى سورية، وتلك تريد ضم سورية إلى العراق.

س ـ وماذا كان موقف أمريكا؟

= كان موقف أمريكا متفقاً مع إنكلترا، وهو إقصاء فرنسا من المنطقة، وهذا ما قاله روزفلت لمحمد الخامس عندما زار المغرب وبصحبته تشرشل قادمين من يالطا، قال له: إن بلادكم فيها خيرات، وما ينبغي أن تسلموها للأجانب، ولم تعجب هذه المقولة تشرشل فصار يسعل مشيراً إلى روزفلت بإيقاف الحديث، وروزفلت يؤكد رأيه. هذا ما جاء في مذكرات ابنه الملك الحسن بعنوان: أبي قال لي، وفيها أن الملك محمد الخامس وضع فكرة الثورة على الفرنسيين في مراكش. فأمريكا كانت تريد أن تقصقص أجنحة فرنسا في البحر الأبيض المتوسط كله، ولذلك قال روزفلت كلمته مشجعاً المغرب على التحرر من فرنسا، وكذلك كانت مشجعة للثورة الجزائرية، فقد يتفق أن يأتي الفكر الوطني من الدول الغربية لا تأييداً لنا ولمصلحتنا، وإنما لتحقيق مصلحتهم هم، كما رأينا أيضاً استعانة فرنسا بالتحرك الوطني عندنا لضم العراق إلى سورية، واستعانة إنكلترا بالعراق لضم سورية إليه.

وهكذا توالت الانقلابات سلباً وإيجاباً من سنة ١٩٤٩ إلى ١٩٥٤، انقلاب فرنسي، وآخر إنكليزي، وآخر فرنسي.. وهكذا.

٢١- انقلاب أديب الشيشكلي

س ـ قبل أن ندخل في الحديث عن انقلاب الشيشكلي ودوافعه، هل كنت رئيساً للوزارة؟

= سُمّيت رئيساً للوزارة عندما سقطت الحكومة التي كانت قائمة، وبدأ الشيشكلي يتدخل في شؤون الحكم.

س ـ من كان رئيس الحكومة السابقة؟

= كان حسن الحكيم. والذي أذكره أنه كانت أزمة في الحكم.

س ـ ماذا حدث في ذلك الحين بين الجيش والمجلس النيابي؟

= كان الجيش يتدخل في كل شيء. وحزب الشعب كانت له الأكثرية في البرلمان، وهو واقف أمام الجيش. ولذلك جاء إخواننا وأصرّوا عليّ أن أكون أنا رئيس الوزراء. فاعتذرت وقتها. ولكنهم أصرّوا عليّ، وقالوا: أنت الواقف أمام الجيش. قلت لهم: الظروف غير مساعدة. فقد كان قبلي لفترة ناظم القدسي، وأتي بفوزي سلو وزيراً للدفاع، فأحدث ذلك غضبة في صفوفنا لإدخال العسكريين في الحكومة. وكانت وزارة حسن الحكيم شُنت عليها حملات لأنها لم تدخل وزيراً من الجيش، لأن الجيش كان يطالب بأن تكون له وزارة تؤيده، ولما أصر إخواننا عليّ بتأليف الوزارة قلت: لا يمكن تأليف وزارة بعيدة عن الجيش. فكما تغاضيتم عن وزارة ناظم القدسي، دعوني الآن أعالج الموقف بإدخال عسكري معي إلى الوزارة. قالوا: لا يجوز أن تدخل عسكرياً، وقال ناظم

القدسي: أنت خائف. قلت له: لست خائفاً، ولكني واقعي. وألفنا الوزارة بلا عسكري، وصدر مرسوم تأليفها في المساء، وكان الانقلاب في الصباح وصرنا جميعاً في المعتقلات. وكنت أتوقع هذا، وقلت لإخواننا: هذه الوزارة لا تعيش، ولكن ما كنا نتوقع أن يكون عمرها ساعات فقط.

س - من كان رئيساً للجمهورية في وقتها؟

= هاشم الأتاسي.

س - ما تحليلكم لدوافع انقلاب أديب الشيشكلي، هل كانت وراءها فرنسا؟

= في سنة ١٩٥٠ ابتدأت الخلافات بين محمد الخامس ملك المغرب وفرنسا، وقامت الثورة الجزائرية، وقام تحرك في تونس ضد فرنسا أيضاً، وكانت فرنسا تقابل هذه التحركات كلها بالشدة والبطش والقمع. وكانت سورية الدولة الوحيدة التي ترفع صوتها بمهاجمة فرنسا. وكانت خطاباتي ضد فرنسا شديدة واضحة، فقد هاجمت موقفها من الجزائر، وهاجمت مشروع معاهدة ابن عمار في تونس، وهاجمت موقفها من السلطان محمد الخامس في المغرب. وكنت ما بين سنة ١٩٥٠ إلى نهاية سنة ١٩٥٢ انتقلت من وزير في وزارة خالد العظم إلى رئيس مجلس النواب. وكان هذا التقدم مني يضايق فرنسا ومن كان على مزاجها، حتى إن فوزي سلو في حكومة ناظم القدسي اشتد في الهجوم عليّ؛ وحجته كيف ألقي خطاباً ضد فرنسا، ولا أحد يعطينا السلاح سواها؟ وتبين بعد ذلك أن فرنسا كانت تهيئ أديب الشيشكلي ليقوم بانقلاب، واشترطت عليه أنه إذا سكت عن شمال إفريقية سهّلت عليه ضم العراق إلى سورية، ودفعت في هذا السبيل مبالغ كبيرة. ولما سقطت حكومة ناظم القدسي كنت رئيس مجلس النواب، فطلبوا مني أن أكون رئيس الحكومة

ويكون ناظم القدسي رئيس مجلس النواب. وكنت متأكداً أننا إذا لم ندخل وزيراً عسكرياً فإن الوزارة لن تعيش. وهذا الذي كان.

س ـ نعود إلى مرحلة حكم الشيشكلي. يقال إنه كان من الحزب القومي السوري.

= لا لا، القضية كانت فرنسية بحتة. السياسة الأمريكية والسياسة الإنكليزية ضد نفوذ فرنسا في المنطقة. وللجميع مطامع في المنطقة، ولذلك كانت العناصر الوطنية التي وقفت في وجه السياسة الاستعمارية غير مرغوب فيها بأن تصل إلى الحكم.

س ـ وماذا عن ثورة الدروز في عهد الشيشكلي وقمعه إياها؟

= انكشف للعراقيين أن أديب الشيشكلي اتصل ببعض الضباط العراقيين الذين كانوا ملحقين عسكريين في سورية، وتفاهم معهم على إحداث انقلاب في العراق وضمه إلى سورية، على أن يجعل الضابط الذي يقوم بالانقلاب نائباً لرئيس الجمهورية. وصادف أن الضابط الذي اتصل به الشيشكلي كان من أنصار القصر الملكي في العراق. فبلّغ الخبر إلى القصر وكتمه عن غيره. وطُلِب إليه أن يقبض من الشيشكلي المبلغ المتفق عليه - وكنت أنا في المعتقل - واتصل العراقيون بهاشم الأتاسي واتفقوا معه على أن يحدثوا ثورة في جبل الدروز عن طريق منصور بن سلطان باشا الأطرش ضد الشيشكلي، برئاسة الحكومة السورية غير المستقيلة، مع أن الصلاحيات في يد رئيس الوزراء وليس في يد رئيس الجمهورية، كما ينص على ذلك الدستور السوري، وقالوا لهاشم الأتاسي: أرسل لنا مندوباً بالنيابة عنك وسنقبل به، فأرسل إليهم صبري العسلي ليتفاوضوا معه على تفاصيل بدء الثورة في جبل الدروز.

وفي هذه الأثناء كان أديب الشيشكلي يفاوضني في السجن، بوصفي رئيس

الوزارة غير المستقيل، ويسألني: ماذا تريد؟ وأجبته: أن تعيد السلطة إلى الشعب، وبعد ذلك نتحدث في التفاصيل، فأطلق سراحي، وعرفت أن هناك ترتيباً واتفاقاً على القيام بالثورة بين العراق ومنصور بن سلطان باشا الأطرش، وأن صبري العسلي ذهب إلى العراق لهذه الغاية. ودعينا للاستفتاء على الدستور الذي وضعه أديب الشيشكلي.

وكان المؤتمر الأول في حمص الذي تداعينا إليه، ولم يحضره صبري العسلي ولم يعرف سبب تغيبه. وهنا توقفت المفاوضات بين صبري والعراقيين، وكان صبري منزعجاً لأن العراقيين رفضوا التفاوض معه. وفي مؤتمر حمص هذا اتخذنا قراراً برفض الدستور الذي اقترحه أديب الشيشكلي، وفي آخر المؤتمر جاءني رسول من العراق يقول: إنا قبلنا أن يكون صبري العسلي رسولاً إلينا لأنك كنت معتقلاً، ولما علمنا بالإفراج عنك رددنا صبري العسلي. وبينوا لي هدفهم من التعاون معنا ضد الشيشكلي؛ لأن فرنسا اتصلت به ليحدث انقلاباً في العراق بالاتفاق مع إنكلترا وأمريكا فقرَّرنا أن نزيله. فقلت لهم: ولكنكم تعلمون أني خصمكم، وقلتم عني الوزير الأحمر؛ فأنا لا أقبل بوحدة معكم مع وجود النفوذ الإنكليزي في العراق، ثم إن أمريكا ضدي. قالوا: لا نريد منك شيئاً، ولقد تفاهمنا مع أمريكا وإنكلترا على مجيئك ويكفينا أنك لست متهماً بأنك صديق للعراق، وتريد أن يزول أديب الشيشكلي، ونحن نريد أن يزول أيضاً؛ لأنه يريد أن يقوم بانقلاب علينا بالاتفاق مع فرنسا في سبيل سكوته عن فظائعها في شمال إفريقيا بينما تقف أنت أمام فرنسا وتندد بها. فهذه هي نقاط الالتقاء التي تجمعنا وإياك. وهذه الثورة في جبل الدروز قد قامت فبيّنت لهم أخطاء الثورة ونقاط الضعف فيها، وقلت لهم: خطتكم لن يحالفها النجاح، وأنا عندي خطة أخرى أفضل منها، وشرحتها لهم فرفضوها. وأخفقت ثورة جبل الدروز. وعندئذ

شرعتُ بتنفيذ خطتي، واعتقلنا جميعاً، نحن أعضاء حزب الشعب وأعضاء الحزب الوطني أيضاً، من كان يعرف أن هناك اتصالاً مع العراقيين ومن كان لا يعرف، وضُرِب المعتقلون، وانكشف أمر الاتصال بالعراقيين.

س- هل ذهبتم إلى العراق ومتى كان ذهابكم؟

= بعد خروجنا من مؤتمر حمص الأول دُعِيت إلى العراق، فذهبت للتفاهم بعد أن بينوا أن غايتنا واحدة هي إسقاط الشيشكلي ودون أي حديث عن الوحدة مع العراق، وكل ما يريدونه وثائق تثبت أن ما تقدمه العراق من عون لإسقاط الشيشكلي مبني على طلب السلطة الشرعية في سورية، بوصفي رئيساً للحكومة غير المستقيلة. وكانوا قد أرسلوا أسلحة لمنصور بن سلطان باشا الأطرش للقيام بثورة ترأسها الحكومة الشرعية غير المستقيلة. وبينت للعراقيين أن الثورة لن تنجح، ولذلك لا أستطيع أن أرأسها، ولن أصعد إلى جبل الدروز، ولديّ خطتي، ورفضوها كما أسلفت.

س- ما الترتيبات التي اتخذتموها بعد إخفاق ثورة جبل الدروز؟

= كانت الترتيبات إقلاق الأمن؛ وكنا نجري اتصالات ونحن في السجن مع رؤساء القطع العسكرية، فاتفقنا مع رئيس القطعة في منطقة دير الزور، ومع رئيس القطعة في حلب فيصل الأتاسي، ومع رئيس القطعة في حمص محمود شوكت، وكذلك في اللاذقية. اتفقنا مع رؤساء المراكز العسكرية الأربعة هؤلاء ألا يتحركوا حتى تقوم الاضطرابات في دمشق. وكنا أعددنا للأمر عدته، وقمنا بالاضطرابات وإلقاء متفجرات في دمشق، فاستعان أديب الشيشكلي بالجيش لقمع هذا الاضطرابات، فطلب من محمود شوكت إرسال قوة إلى دمشق، فقال له محمود شوكت: أنا مع دمشق، مع الاضطرابات، وطلب من غيره فقال: أنا

مع دمشق مع الاضطرابات.. وهكذا أذيع بيان الجيش بدعوة الشيشكلي إلى حقن الدماء والتخلي عن الحكم، وعندئذ أحس الشيشكلي أن الجيش قد تخلى عنه، فغادر البلاد إلى بيروت، وكان ذلك في ١٩٥٤/٢/٢٥.

س - إذاً مؤتمر حمص عُقِد قبل هذه الأحداث.

= نعم، وفيه رفضنا دستور الشيشكلي، وخرجت عقب ذلك إلى لبنان، ومن لبنان ذهبت إلى العراق، ثم رجعت إلى لبنان لمتابعة الأمور، وقد دفعت العراق أموالاً لتسليح الثورة الدرزية، وأنا رفضت استلامها، وقلت لصالح جبر الذي جاء معي إلى لبنان: أنتم اتفقتم مع صبري العسلي وكان هاشم الأتاسي في هذا الاتفاق فهو الذي يستلم فسلّمها لمندوبين من هاشم الأتاسي ومنصور بن سلطان الأطرش. وقلت لهم: لكن هذه الثورة ستخفق. أما الترتيبات التي اتخذناها في دمشق بعد إخفاق ثورة جبل الدروز فما كلفتنا إلا قليلاً من المال وشيئاً من الأسلحة والمتفجرات، أوصلناها إلى دمشق. وبدأت الاضطرابات، فاستعان الشيشكلي بقادة الجيش فلم يعينوه، بل أعلنوا أنهم من أنصار الحركة التحررية، فهرب إلى خارج البلاد كما أسلفت.

س - هل تخلى الجيش عنه حتى في دمشق؟

= ما كان حوله سوى الشرطة العسكرية. قادة الجيش في المراكز الأربعة التي ذكرتها خذلوه، والجبهة لا يستطيع جلبها لنصرته.

س - بعد سقوط الشيشكلي ماذا حدث؟

= دعيت الحكومة لاستلام زمام الأمور؛ لأنها غير مستقيلة، ودعي رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي.

وكنت على صلة برئيس الأركان شوكت شقير، وهو الضابط الوحيد الذي عرض عليه الضباط الأربعة في المناطق الأربعة التي تحدثنا عنها أن ينضم إليهم ويقود الحركة بوصفه رئيس الأركان، فقال لهم: بعد مشورة. وجاءني إلى بيروت، وفهم مني، ثم عاد فأيدهم. ولما هرب الشيشكلي هتفت له من لبنان وقلت له: ماذا تنتظر؟ قال: أنتظر أن تجتمعوا. قلت له: لا، قبل كل شيء تخرج المعتقلين؛ لأن الشيشكلي لما ضرب الجبل اعتقل رشدي كيخيا وعدنان الأتاسي وصبري العسلي وغيرهم، فأخرج المعتقلين. ولما أخرجهم جاء رئيس الشرطة العسكرية التابع للشيشكلي واعتقل شوكت شقير. وكنت أنا بعد هتافي له من لبنان في طريقي إلى دمشق. ولما وصلت دمشق علمت باعتقال شوكت شقير، وكانت جماعة المعتقلين المفرج عنهم قد مشوا إلى حمص حيث عقدوا مؤتمر حمص الثاني، وجئت إلى بيتي فإذا هو مطوّق؛ لأن المخابرات التقطت المخابرة التي أجريتها مع شوكت شقير. فلم أستطع المبيت في بيتي، وبقيت في أحد المستشفيات عند الدكتور منير السادات. وأحضرت السفارة العراقية سيارة رسمية، وركبت فيها باسم عراقي ورجعت إلى بيروت، ومنها عدت في الليل إلى حمص لنعقد الاجتماع هناك، واخترنا حمص لأن آمر المنطقة العسكرية هو محمود شوكت أحد الضباط الأربعة المتفاهمين معنا. وتم في هذا الاجتماع تأليف الحكومة برئاسة صبري العسلي، وهاشم الأتاسي رئيس الجمهورية ودعي المجلس المنتخب وقدمت فيه استقالتي التي كنت منذ ثلاث سنوات أرفض تقديمها. وعددنا المرحلة السابقة في زمن الشيشكلي كلها غير صحيحة بقوانينها وجميع أشكالها. وكان الاتفاق أن يكون رشد كيخيا رئيساً للوزارة، وذهب من حمص على هذا الأساس ليهيئ نفسه، ولكن الحزب الوطني هدد هاشم الأتاسي وأحدث مشكلات. فلما رجع رشدي أقنعه هاشم الأتاسي أن

يكون صبري العسلي هو رئيس الوزارة. ووضعوا اسمي لوزارة الدفاع فاعتذرت. فغضب هاشم الأتاسي، وقال لي: إذا اعتذرت عن وزارة الدفاع، وأنت تقود الحركة كلها، فأنا أيضاً أستقيل، وأمام هذا الضغط والإلحاح اضطررت إلى أخذ وزارة الدفاع.

س - في أي سنة كانت هذه الوزارة؟

= سنة ١٩٥٤.

٢٢- قضية الأسلحة السوفيتيّة

س - هل في هذه الوزارة أثرتم قضية قبول الأسلحة من الاتحاد السوفييتي؟

= لا، هذه القضية أظن كانت في سنة ١٩٥٠ لما كنت وز يراً للاقتصاد في وزارة خالد العظم، عقب توقيع الملك عبدالله الصلح مع إسرائيل، وفي وقتها دُعينا إلى مجلس الجامعة العربية في آذار ١٩٥٠، واصطدمنا مع الوفد الأردني. وكانت الدعوة إلى مجلس الجامعة العربية موجهة من الأردن لأمر يتعلق بفلسطين، وكان الصلح المشار إليه آنفاً موقّعاً سراً. وسُرِّبت إليّ نسخة صحيحة عن التوقيع، وكنا نتساءل لماذا تدعونا الأردن بالذات؟ وتبين لنا بعد ذلك أن اجتماعنا سيكون من أجل الموافقة على الصلح، كما وافق مجلس الجامعة بضغط من إنكلترا على الهدنة الأولى والهدنة الثانية، وما بين الواحدة والأخرى عدة أشهر، ما بين ١٩٤٨ إلى نهاية ١٩٤٩، وبذلك توقفت الحرب. وقلت يومها لخالد العظم ونحن ذاهبون إلى الأردن: لقد وصلت إليّ وثيقة تفيد أن المطلوب منا في هذا الاجتماع الموافقة على الصلح مع إسرائيل، وأنت يا خالد العظم ليس لك رصيد في الحركة الوطنية، إذ كان يشتغل في القضايا الاقتصادية، وهذا دورك. قال: ماذا أفعل؟ قلت له: تعقد الآن مؤتمراً صحفياً

تعلن فيه: إذا أبرم هذا الاتفاق فإننا سنغلق الحدود بيننا وبين الأردن، ونعده جزءاً من إسرائيل، كما كنا أغلقنا الحدود بيننا وبين لبنان لتصحيح وضعنا. وفعل هذا خالد العظم قبل ٤٨ ساعة من المؤتمر الصحفي.

وفي ليلة السفر التي كنا سنسافر أنا وإياه في صبيحتها جاء السفير الأمريكي في الساعة الثانية عشرة ليلاً، وطلب الاجتماع مع خالد العظم، فقال له: أنا الآن في غرفة نومي، سأنام، وغداً صباحاً سأسافر، فقابل وزير الخارجية. قال السفير: لا، جاءتني برقية من الرئيس يجب بأن تسمعها أنت بنفسك، قال له: إذاً أستقبلك في صالون غرفة النوم. وجاء ومعه إنذار مفاده أن تصريحك بإغلاق الحدود مع الأردن إذا أبرمت الصلح مع إسرائيل تدخّل في شؤون دولة ثانية، لا تسكت أمريكا عنه.

س- من كان الرئيس الأمريكي؟

= كان الرئيس ترومان، وذلك في سنة ١٩٥٠. وأكد هذا الاحتجاج صحة الوثيقة التي تسرّبت إليّ. وأجابه خالد العظم: أوليس احتجاجكم هذا تدخلاً في شؤون دولة ثانية؟ لقد سبق أن أغلقنا حدودنا مع لبنان لتصحيح أوضاعنا، وما جئتم محتجين قائلين: هذا تدخل. فلماذا جئتم الآن؟ ألأن الإغلاق مع الأردن يمسّ إسرائيل؟ هذا تدخّل. ولم يستطع التفاهم مع السفير الأمريكي. وفي الصباح أخبرني بما دار بينه وبين السفير الأمريكي. وبعد العصر كان اجتماع مجلس الجامعة العربية في وزارة الخارجية في القاهرة؛ لأنه لم يكن للجامعة العربية مبنى خاص. وكنا سبع دول في ذلك الاجتماع. وقد استقبلنا النحاس باشا وأبلغناه بما كان بين خالد العظم والسفير الأمريكي. وكانت هناك اتفاقية صادرة من الجامعة العربية بعد قيام إسرائيل بحلّ جميع الأحزاب في فلسطين،

وتأليف حزب واحد منها أسموه الهيئة العربية العليا. وألّفوا حكومة عموم فلسطين، على أن تحضر هذه الحكومة مجلس الجامعة كلما كان الموضوع يتعلق بفلسطين. وبما أن هذه الدورة عقدت من أجل فلسطين بناء على طلب الأردن. افتتحت الجلسة بحضور حلمي باشا رئيس حكومة عموم فلسطين، وكان الحاج أمين في ذلك الحين رئيس مجلس النواب، فرفض الوفد الأردني افتتاح الجلسة بحضور حلمي باشا، فقال له النحاس باشا رئيس المجلس: أنتم طلبتم الاجتماع من أجل القضية الفلسطينية والاتفاق الذي وقعناه كلّنا يقول: إذا كان الموضوع يخص قضية فلسطين يجب أن تحضر الحكومة الممثلة للفلسطينيين. قالوا: ولكن هذا الموضوع بالذات لا نقبل بحضورها. فقال النحاس: ونحن لا نستطيع أن نخالف القرار. قال ممثل الأردن: إذاً أنا أنسحب وانسحب. وتكررت القصة وانسحب الممثل الأردني في اليوم الثاني والثالث.

وتعقدت الأمور، وخرجت الصحافة بلا بلاغ ولا بيان، وراحت تتحدث عن هذه الأزمة. وهنا بدأ الضغط عليّ من أميركا، إما أن توافقوا على الصلح مع إسرائيل ، وإما أن تبتلعكم الشيوعية. فعليك أن تختار إما صهيونية وإما شيوعية. قلت للسفير الأمريكي: أليس هناك خيار ثالث؟ قال: لا. كان هذا بعد مذبحة دير ياسين التي فتك فيها بيغن بالشيوخ والنساء والأطفال، واضطرت القرى المجاورة المجردة من السلاح أن تهاجر إلى سورية، وبلغ عدد النازحين ٤٠٠ ألف نازح؛ ولذلك قلت للسفير الأمريكي: أنا أختار الشيوعية لأنها تريد أرضاً وسكاناً، أما الصهيونية فتريد أرضاً من غير سكان. وبعد ثلاثة أيام من اجتماع مجلس الجامعة العربية لم نصل فيها إلى قرار، والتصريحات ممنوعة، قررت أن أفضح موضوع الصلح والمساومة التي نتعرض لها، فانتظرت حتى خرجت كل الوفود، ولم يبق في وزارة الخارجية سوى أنا والفرّاش، واستبقيت الصحفيين، وقلت لهم:

إن أمريكا تهددنا، وتضعنا أمام خيارين، إما أن تصالحنا مع اليهود وبذلك تنقذنا من الشيوعية، وإما لا نقبل بهذا الصلح فتبتلعنا الشيوعية. فأنا أعلن منذ الآن أننا نختار الشيوعية؛ لأن الشيوعية تريد سكاناً وأرضاً. وأما إسرائيل فتريد أرضاً من غير سكان. وقد أحدث هذا التصريح ضجة عالمية، إذ نُشِر في الصحافة العالمية، في وقت ما كان يجرؤ أحد على الإدلاء به.

وانهالت عليّ البرقيات من العالم العربي كله بالآلاف. ولما عدت إلى سورية ومعي خالد العظم استقبلنا استقبال الفاتحين. وأقامت جمعية العلماء المعروفة بميلها إلينا حفلة كبيرة في المطار ضمت السلك السياسي ووجوه دمشق والغرف التجارية. وهنا التقيت بالسفير الأمريكي في الحفلة. وبينما كنا داخلين في المطار، والازدحام شديد رأيت سكيلي هذا الذي كان هدّدني، يشق الصفوف، ويسحب بيده شخصاً، حتى إذا أوصله إليّ قال له: أقدم لك زبوناً جديداً حاملاً كرافات حمراء، فقلبتها له قائلاً But it is made in west أي: لكن هذه مصنوعة في الغرب، وذهبت مثلاً. ثم قلت له: من هذا؟ فقال مندهشاً؟ ألا تعرفه؟ قلت: لا. قال: هذا هو السفير السوفيتي، ثم تركتهم والحفلة قائمة وكأني عروس الحفل.

وجاءني السفير السوفيتي مرة ثانية وقال: طلب مني ستالين أن أقابلك وأسألك بعض الأسئلة. فواعدته في مجلس الوزراء. ولما حضر سأل: ما سبب التصريح الذي أدليت به؟ فأجبته: سبب التصريح هو أن الأمريكان جاؤوا يفاوضوننا ويهددوننا بعد توقيع الملك عبدالله الصلح مع اليهود، ويزعمون أنهم يريدون إنقاذنا من الشيوعية بقبولنا الصلح مع اليهود، وإنا لنذكر جواب ستالين لروزفلت في يالطة عندما طلب لليهود وطناً قومياً، وقال: نضم الحكومة

السورية ونضم الحكومة الفلسطينية، قال له ستالين: لا للوطن الثقافي لليهود، وإنما لدولة يهودية أنا أتعهد بحمايتها. والآن حملوا الملك عبدالله على توقيع الصلح، من أجل الاستعداد للحرب ضدكم. ولكن ليس لديّ ثقة أنكم ستستفيدون من هذا التصريح ومن ظروفنا الخاصة. فأنا الآن أريد سلاحاً منكم، ولست شيوعياً. وأنتم مخطئون في موقفكم المتحفظ من الإسلام والأديان قاطبة. وكلما اختلفت الأديان وكان قيصر مع الشعب مشت الكنيسة والجامع معاً مع الشعب. ولما يحدث التصادم بين الشعب وقيصر تمشي الكنيسة والجامع مع الشعب. ونحن صدّرنا لكم الأديان ففسدت عندكم الكنيسة؛ لأنها ماشية مع قيصر ضد الشعب. وأنتم لا تستطيعون تصدير الأديان إلينا؛ ومصلحتكم بالتفاهم مع الإسلام. وكانت الثورة قائمة في لبنان ضد شمعون سنة ١٩٥٨، وكان النصارى وعلى رأسهم البطريرك والمسلمون متفقين ضد شمعون.

وقلت له أيضاً: أنتم شاركتم في زرع اليهود في بلادنا، وهذه هي النتيجة. والآن أريد منكم سلاحاً؛ لأننا مهددون. قال: لا يمكننا أن نعطيكم سلاحاً؛ لأننا خرجنا لتوّنا من الحرب، وكل إنتاجنا من السلاح يجب أن يكون لبلادنا. وطلب مني نسخة من اتفاقية الصلح، فأرسلتها إليه، وبعث بها إلى ستالين، فجن جنونه، وبعد أربعة أيام أصدر أمراً بإعطائنا ما نريد من السلاح. وبذلك فتح باب السلاح. وبعد ثلاثة أشهر أصبحت رئيساً لمجلس النواب. وبعد ذلك توالى على الحكم عدة حكومات.

٢٣- أزمة مع الجيش

وفي سنة ١٩٥١ حدثت أزمة بيننا وبين الجيش، استقال على إثرها رشدي كيخيا من رئاسة المجلس النيابي، واستقال هاشم الأتاسي من رئاسة

الجمهورية، ورأى الإخوان أن أعالج أنا الموقف، وكان الوقت في حزيران أيام الامتحانات، وأنا في الجامعة أجري الفحص لطلاب كلية الحقوق، فاجتمع النواب، وكانت الأكثرية من حزب الشعب، وبقية من حزب البعث، والكتلة الإسلامية، وقرروا بالإجماع أن يكلفوني برئاسة المجلس، وجرى انتخابي وأنا في قاعة الفحص لا علم لي بشيء، وكان انتخابي في حزيران من صيف ١٩٥١ لمدة مكملة؛ لأن رئاسة المجلس تَتجدّد كل سنة في تشرين الأول (أكتوبر). وفي هذه المدة استطعنا إعادة هاشم الأتاسي إلى رئاسة الجمهورية، وكلف حسن الحكيم بتأليف الوزارة.

س ـ ورئاسة وزارة ناظم القدسي متى كانت؟

= كانت وزارة ناظم القدسي بعد وزارة خالد العظم، إثر استقالته في الأزمة التي حدثت بسبب السلاح وقام الجيش ضده. فبعد وزارة خالد العظم هذه جاءت وزارة ناظم القدسي، واستمرت سنة تقريباً، ثم حدثت أزمة فسقطت وزارة ناظم القدسي وجاءت وزارة حسن الحكيم، وأنا كنت في رئاسة مجلس النواب. وفي هذه الأثناء كان الاصطدام شديداً بين الجيش وحزب الشعب، وقد ذكرت فيما تقدم أن الجيش كان يشترط ألا تأتي حكومة ما لم يكن وزير الدفاع فيها عسكرياً. وفي وزارة ناظم القدسي كان وزير الدفاع فوزي سلو، وقد قبل ناظم القدسي ذلك مجاملة منه للجيش ورغبة في المصالحة باسم حزب الشعب، وكان يقول: إذا كان الأمر بيننا وبين إسرائيل، فأنا أفضّل أن أُداس بجزمة عسكري سوري، لا بجزمة إسرائيلي. وقد ذهبت هذه المجاملات كلها أدراج الرياح حين رأوني أقف إلى جانب الملك محمد الخامس ضد فرنسا كما ذكرت، وكان هذا من الأسباب التي عجلت بانتهاء وزارة ناظم القدسي، إلى جانب وقوف حزب

الشعب في وجه تدخل الجيش في شؤون الحكم والسياسة. واختير بعد ناظم حسن الحكيم، واشترك معه حزب الشعب وانتُدِبت من الحزب لتخيّر الأعضاء. وبعد مدة انتهت مدتي التكميلية في المجلس النيابي، وجرت انتخابات، وطلب الحزب أن يكون ناظم القدسي رئيس المجلس، فكان. وقمنا بمظاهرة كبرى كنتُ على رأسها وخطبت فيها، تأييداً لمصر بإلغاء المعاهدة التي كانت إنكلترا تحتل مصر بموجبها، فقد ألغى النحاس باشا هذه المعاهدة من جانب واحد. وقد اشترك في هذه المظاهرة جميع الأحزاب: الحزب الوطني وحزب الشعب وحزب البعث والجبهة الإسلامية. وكانت المظاهرة برئاستي، ومشى فيها قادة الأحزاب، وكان الاتفاق ألا يبرق أحد إلى الأمم المتحدة أو مصر إلا عن طريقي. وكان حسن الحكيم ضد المظاهرة وضد إلغاء المعاهدة. وقد ردّ عليه خطيب حزب الشعب لؤي الأتاسي، وكان فصيحاً قوي اللغة، وقال: بأنه ليس بحسن ولا حكيم.

٢٤- مشروع معاهدة الدفاع المشترك

قبل إلغاء هذه المعاهدة المصرية الإنكليزية، كنت لا أزال رئيساً للمجلس النيابي، طلب زيارتي كلّ من السفير الإنكليزي والسفير الأمريكي بالهاتف. فقدرت أنهما متفقان على تلك الزيارة، فواعدت أحدهما الساعة الحادية عشرة، والثاني في الثانية عشرة، وجاءني السفير الإنكليزي وقال: لقد تلقيت من رئيس الوزارة (إيدن) رسالة يطلب فيها أن ألتقي بك، وأطلب منك أن نتعاون معك، فالشرق الأوسط مقدم على أحداث خطيرة، ويجب أن نتعاون معاً لإنقاذه. قلت له: ما هي الأحداث؟ قال: النحاس سيقوم بإلغاء المعاهدة المصرية الإنكليزية، وهذا معناه أنه سيبقيكم دون قدرة على الدفاع عن أنفسكم. فإذا خرجت إنكلترا من مصر أصبحتم بلا قوة تحميكم ضد الشيوعية. فأنتم ترفضون الصلح مع إسرائيل، وهاهوذا النحاس يريد إلغاء المعاهدة

أيضاً؛! ولذلك نريد أن نتعاون معك لنعرف كيف نتجنب هذه الأخطار. ففهمت عندئذ أن السفير الأمريكي قَدِم للموضوع ذاته، وعرفت ماذا يجري بينهما. فقلت للسفير الإنكليزي: إنني لأستغرب قولكم إن إلغاء المعاهدة وخروج الإنكليز من مصر سيجعلها غير قادرة على الدفاع عن نفسها، وأنا أسألك يوم هاجم هتلر الحدود المصرية ما هي القوة التي وضعتموها للدفاع عن مصر؟ قال: مئة ألف جندي. قلت له: ألا ترون أننا نستطيع أن نجند مليون جندي من مصر التي تبلغ عدد سكانها من ٢٥ - ٣٠ مليون نسمة؟ أولا ترون أن مليون جندي من أبناء مصر أفضل من مئة ألف أجنبي وتكلفتهم أقل؟ لأن المصريين ليسوا مرفّهين مثلكم؛ فالجندي الإنكليزي إذا لم يكن لديه حمام في المعسكر لا يستطيع أن يعيش. أو ليس من المصلحة أن تُلغَى المعاهدة ويتم التفاهم بينكم وبين المصريين على تأليف جيش مسلح، تكلفته أقل بكثير من تكلفة جيوشكم؟ قال: إذا كنتم ستلغون المعاهدة فلابد من مشروع الدفاع المشترك. ولما سمعت هذا الكلام من السفير الإنكليزي قلت له: أنت تقول: نريد التعاون معك أنت. فمن أنا؟ أنا معروف الدواليبي. ما ولدتني أمي لأكون وزيراً ولا رئيساً للوزارة ولا رئيساً لمجلس النواب. وإنما عليكم أن تطلبوا التعاون مع الأمة العربية كلها. فقضاياها من مراكش إلى بغداد واحدة إذا كنتم مستعدين للتعاون على هذا الأساس فأنا أمد لكم كلتا يديّ، لا يداً واحدة، فنحن شعب صغير نفتش عن صديق كبير، لا شعب صغير يسعى لجعل الأمة الكبيرة عدوة له. فشكرني الرجل وانصرف.

وبعد ساعة جاء السفير الأمريكي، وشكرني على القوانين التي أعددتها في تحديد الملكية الزراعية، وفي الكفالة الصحية، وفي القيام بعدة مشاريع إصلاحية للعمال والفلاحين، وقال: إننا ما كنا ننتظر مثل هذه القوانين من حزب الشعب، فهي التي تقف في وجه الشيوعية. وبعد هذه المقدمة دُهِشت إذ رأيته يطلب مني الشيء نفسه الذي طلبه مني السفير الإنكليزي. البلاد مقدمة على خطر، وإذا كان لابد من

إلغاء المعاهدة المصرية فلابد من الاتفاق على معاهدة الدفاع المشترك. وبعد يومين انتهت مدة رئاستي لمجلس النواب، ورشح الحزب ناظم القدسي لرئاسة المجلس.

وكانت الأخطار محدقة في المنطقة، ولا بد من قوة تتصدى للدفاع عنها ولذلك لما ألغيت المعاهدة المصرية طُرِح مشروع الدفاع المشترك، ولقد كان حسن الحكيم ضد إلغاء المعاهدة، ومع الدفاع المشترك الذي يسمح للجيش الإنكليزي بالعودة إلى مصر في حالة الخطر. والمظاهرة الكبرى التي قمنا بها كانت تأييداً لإلغاء المعاهدة وضد مشروع الدفاع المشترك، وكانت هذه المظاهرة من أسباب استقالة حسن الحكيم بعد أيام قليلة. والمعاهدة كانت ستنتهي مدتها بعد أشهر، فعجّل النحاس بإلغائها، حتى لا يترك للحلفاء فرصة البحث في البديل عنها؛ إذ كان في نيتهم طرح مشروع الدفاع المشترك الذي يعطي الحق لجيوش الحلفاء أن تنز ل في مصر عندما تكون هناك أخطار تهدد المنطقة. وكان موقفنا أن جيوش المنطقة قادرة وحدها للدفاع عنها.

٢٥- عودة إلى اعتقال الشيشكلي للوزراء

س- ذكرتم فيما سبق قصة تشكيلكم الوزارة واعتقالكم جميعاً في اليوم التالي، فهل من مزيد تضيفونه إلى ما تقدم؟

= صدرت مراسيم تأليف الوزارة في الساعة الثامنة مساءً، ومع الفجر لملمونا جميعاً واعتقلونا قبل أن نباشر أي عمل. وأبلغوا هاشم الأتاسي أنهم لن يفرجوا عنا إلا إذا استقلنا. فأرسل هاشم الأتاسي رئيس ديوان القصر الجمهوري إبراهيم عبده سامي إلى السجن يطلب إلينا أن نستقيل.

س- من المعتقلون آنذاك؟

= اعتقل أعضاء الوزارة كلهم ماعدا علي بوظو ورشاد برمدا، كما اعتقل ناظم

القدسي ورشدي الكيخيا. فرفضت أنا الاستقالة. قالوا سيرجع الجيش إلى ثكناته، على أن أستقيل من رئاسة الوزارة، وتتألف حكومة جديدة. فقلت: ربي السجن أحبّ إليّ. ومضى أسبوع وأنا مصرّ على رفض الاستقالة. وعندئذ قام ناظم القدسي وكتب عريضة بالاستقالة وقّعها هو، ووقعها عبدالرحمن العظم، وأحمد قنبر وعبدالوهاب حومد. وأتاني ناظم القدسي يقول: هؤلاء الوزراء كلهم استقالوا، والخطاب باستقالتهم موجه إلى رئيس الجمهورية. قلت له: لا، الوزير دستورياً يقدم استقالته إلى رئيس الوزارة، وأنا أرفعه إلى رئيس الجمهورية. وأنا لن أستقيل، وإنما أقبل استقالة الوزراء. وهدّدت بأنهم إذا استقالوا فسأعلن أسماء وزراء جدد. ثم قلت لناظم القدسي في معركة كلامية دارت بيننا: أنت يا ناظم بك كلّفتني وألححت عليّ تأليف الوزارة، والآن تريد مني أن أستقيل بعد أربع وعشرين ساعة من تأليفها، ولما قلتُ لكم إن من الحكمة أن نشرك عسكرياً في الوزارة قلت لي: أنتَ خائف. أنا لا أخاف، ولن أستقيل، وإني على استعداد لتعيين وزراء جدد وأنا في السجن. وهنالك يئس الجماعة من استقالتي ومزقوا العريضة، وبقينا صامدين. وبعد مفاوضات نقلونا إلى سجن المستشفى العسكري.

س - كم بقيتم في السجن؟

= بقينا ثلاثة أشهر. وبعد ذلك بدؤوا يخرجون الوزراء واحداً واحداً، وأخرجوا رشدي وناظم، وبقيت وحدي. وأذكر أن رشاد برمدا جاء ليقنعني أيضاً بالاستقالة. وتحت الضغط العسكري أُلِّفت حكومة جديدة.

س - من ألّفها؟

= هاشم الأتاسي بالاتفاق مع من خرج من السجن من جماعتنا، وبقيت وحدي في

السجن معلناً رفضي الاستقالة، وأضربت عن الطعام، ورحت أهاجم أديب الشيشكلي وبعض السجانين. وعندئذ بعث الشيشكلي يعرض عليّ أن أتعاون معه. فقلت له: أنا آخر من يتعاون معك، وجرت معه مفاوضات. وبعد مدة أطلق سراحي على أساس أنه سيحقق الوحدة العربية. فقلت له: ترد السلطة إلى الشعب أولاً، فإذا عاد الشعب واختارك واختارني نتعاون معاً. أما أن تستلب السلطة بغير إذن من الشعب فأنا لا أتعاون معك ولن أحيد عن موقفي. عندئذ اعتقلني مرة ثانية، وبقيت في السجن حتى أعلن أنه سيضع دستوراً يطرحه للاستفتاء، وبعد مفاوضات أخرجني من السجن، وذهبت إلى الاجتماع الذي عقد في حمص، ورفضنا فيه دستور الشيشكلي كما أسلفت. ومنذ ذلك الحين كانت أمور الشيشكلي تسير من سيئ إلى أسوأ بعد بقائه في الحكم سنتين.

س- هل أعلن الشيشكلي نفسه رئيساً للجمهورية بعد اعتقالكم مرة ثانية.

= أعلن نفسه رئيساً للدولة، كان سمى فوزي سلو رئيساً للدولة قبل ذلك مؤقتاً، ثم أجرى استفتاء على أنه رئيس الدولة، وكلف فوزي سلو بتأليف وزارة. وفي هذه المدة التي صار فيها رئيس دولة كانت المفاوضات تجري معي وأنا في السجن، والبلاد مضطربة قلقة، وكان يأتي إلى منزل السفير السعودي عبدالفتاح ياسين في الليل وهو رئيس جمهورية ويسهر عنده، ويبكي ويقول كما حكى لي عبدالفتاح ياسين: أنا أخطأت مع معروف الدواليبي. انظروا طريقة أتفاهم بها معه.

٢٦- محاولة الاغتيال

س- ذكرتم فيما سبق أنكم دعيتم إلى العراق بعد مؤتمر حمص، فكيف كان خروجكم من سورية؟

= لما جاءتني الدعوة إلى العراق أبلغت رشدي الكيخيا وبقية الإخوان أنه جاءتني

دعوة وأريد الخروج، فقال رشاد جبري أنا أدبّر أمر خروجك من سورية. واتصل بإبراهيم الحسيني مدير الشرطة العسكرية، وكان صديقاً له، وقال له: إن فلاناً متعب ويريد الخروج من سورية للراحة. وكان أخي ملحقاً عسكرياً في العراق، فجاء إلى بيروت لاستقبالي، فوافقوا على خروجي وهم يكيدونني، يريدون إمساكي وإمساك أخي في بيروت.

وركبت سيارة ومعي زوجتي، ورشاد جبري يقود السيارة وأنا بجانبه، وكانت أيام صيف، والدكتور مصطفى السباعي رحمه الله في مصيف قريب من عالية في لبنان. فلما اقتربنا منه قلت لرشاد: سنمر على القرية التي يصطاف فيها أخونا الدكتور مصطفى، ولاحظت أن وراءنا سيارة تتابعنا. فقلت لرشاد: ينبغي أن نكشف أمر هذه السيارة، أهي مصادفة ترافقنا أم تترصّدنا؟ فلنخرج من الخط لنرى إلى أين ستتبعنا، ودخلنا فجأة على اليسار في الطريق القادم من دمشق قرب بحمدون، وهو منعرجات جبلية، ووقفنا قليلاً، فإذا السيارة تتبعنا، ثم جاوزتنا، فتبعناها نحن حتى وصلنا إلى الساحة، فسألنا: أين بيت الدكتور السباعي؟ وكنا نعلم أنه في الساحة، فدلونا على بيته، ودخلنا منزله، وكان غائباً، فاعتذرنا لزوجته، ونزلنا فإذا صاحب الدكان الذي سألناه عن البيت يقترب مني ويهمس في أذني قائلاً: هذه سيارة كانت تتبعكم، فلما سألتموني عن بيت الدكتور السباعي جاء ركابها وسألوني: بيت من هذا؟ ولما فتحوا السيارة كان فيها رشاش، فانتبهوا. قلت لرشاد عندئذ: يجب أن ننفذ منهم فنمشي ببطء، ونرجع إلى طريق بيروت، ونمشي في المنعرجات، وقبل أن نصل إلى بيروت يجب أن نتخلص منهم، لكأنهم يدبرون عملية اغتيال، وقلت لرشاد: عندما نصل إلى شرطة عالية ندخل المنعطف المؤدي إلى صيدا. وبذلك يظنون أننا ماضون في الطريق العام. ولنَرَ هل سيتبعوننا؟ فلما وصلنا إلى المنعطف

دخلناه دون أن يرونا، ونحن نمشي على مهل، فما رأوا السيارة أمامهم، فظنوا أننا تابعنا سيرنا إلى بيروت، في حين كنا نحن في طريق صيدا، وهكذا أفلتنا منهم، وكان لديّ عنوان أخي مصطفى في قرية ريفون، فذهبنا إليه. وقلت لرشاد: عد إلى القرية قبل أن نذهب إلى بيروت وانظر هل ترى السيارة التي تتعقّبنا فيها. فذهب إلى القرية فوجد السيارة، وأقبل ركابها على سيارته، ولكنهم لم يجدوا فيها معروف الدواليبي. وظلّوا يبحثون عني. ولم أفهم سبب دعوة العراقيين لي حتى جاءني رسول من العراق يوضح لي السبب، مع أنني معارض الوحدة معهم، وقيل عني الوزير الأحمر، وأديب الشيشكلي يمشي مع الغرب، فكيف يستعينون بشخص معادٍ لهم وللغرب ضد أديب الشيشكلي المتفق معهم في السياسة الخارجية؟ وقد سبق بيان هذا[1].

٢٧- ذكريات وزارة الدفاع

س- نعود إلى المرحلة التي استلمتم فيها وزارة الدفاع سنة ١٩٥٤ بعد سقوط الشيشكلي ما هي ذكرياتكم عنها؟

= بعد إلغاء المعاهدة المصرية سنة ١٩٥١، طُرِح مشروع ملء الفراغ والدفاع المشترك، وكان ذلك مقدمة للحديث عن حلف بغداد، وإذاعات عبدالناصر كانت تصيح ضد تلك المشاريع. وبدأ الشيوعيون يتسللون إلى الجيش السوري، واليساريون وعلى رأسهم أكرم الحوراني يلعبون في الجيش. وكانت إسرائيل تتحرك ضدنا، وإمكاناتي الدفاعية ضعيفة، وقد اختاروني وزيراً للدفاع لمعالجة الأوضاع في الجبهة، ولذلك كنت أزور الجبهة، وأدرس كيفية تحصينها بالألغام، إذ لم يكن لدينا أسلحة سوى الألغام. وما كان ثمة تفاهم بيننا وبين الجيش، بل

(١) انظر ص (١٣٨).

العلاقات بيننا في توتر دائم. وحصنّا الجبهة بالألغام، وطلبنا من لبنان أن يضعوا ألغاماً. قالوا: لا يوجد لدينا ألغام، فقلنا: نحن نعطيكم ما تحتاجونه من إمكانات للجيش اللبناني بقيادة لبنانية، وكان فؤاد شهاب قائداً للجيش اللبناني، ومعه العقيد سالم، وهو ماروني، وبيده كل شيء، فأجابني العقيد سالم على فكرة تسليح الجيش اللبناني بقوله: نحن لا نستطيع أن نتلقى منكم سلاحاً ولا قوة، خشية أن نلفت النظر ويتعرض لبنان للخطر، وإذا كنتم تريدون إنقاذ فلسطين، فهذا يوجب عليكم أن تقوموا بتحرك إسلامي. فقلت له: يسرني جداً أن أسمع هذه الفكرة من مسيحي في لبنان، ولكن لا بد من عرض هذا الأمر على رئيس الجمهورية، وما كان لدينا علم بأن تحركاً بدأ لإيجاد حلف إسلامي بين بغداد وتركيا وإيران، وهذا الكلام من العقيد سالم اللبناني المسيحي ليس من عنده. وذهبت إلى هاشم الأتاسي وأخبرته بما دار بيني وبين العقيد سالم، فقال: يابني أنا صورتي حمراء، وسيقولون: فلان يريد سورية الكبرى مستغلاً علاقتي السابقة بفيصل، ونحن الآن إذا أعلنا رغبتنا بالتفاهم مع الدول الإسلامية أثرنا الفئات اليسارية الموجودة في الساحة، ولذلك ليس هذا وقته الآن.

وبعد شهرين ظهرت الدعوة إلى حلف بغداد، وراح عبدالناصر يهاجم نوري السعيد. واجتمعت مختلف الأحزاب السورية في وزارة الخارجية، وما كان عند أحد علم بنية العراق وغرضه من التضامن بين تركيا والعراق وإيران، وألفنا لجنة الشؤون الخارجية، وكان فيها أكرم الحوراني وصلاح البيطار، وأخبرتهم بزيارتي لبنان وسماعي الإشارة من العقيد سالم بوجوب التضامن الإسلامي لإنقاذ فلسطين، وسافرت اللجنة الخارجية إلى الأردن، وقابلنا الملك، ثم انتقلنا إلى المملكة العربية السعودية، ثم إلى العراق، ثم إلى مصر، وهكذا كانت لجنة

الشؤون الخارجية تطوف في أنحاء العالم الإسلامي للوقوف في وجه المؤامرات التي تحاك للدخول فيما يسمى بالدفاع المشترك.

٢٨- في رئاسة الوزارة

س في هذه المرحلة هل كنتم ألفتم الوزارة؟

= لما صار الانقلاب في سورية على عبدالناصر في أيلول ١٩٦١، وألفت وزارة برئاسة الكزبري مؤقتاً، وازدادت الحالة سوءاً وتدهوراً، لأن الانقلاب في الأصل كان ضد الاشتراكية، طلبني الجيش لتأليف الوزارة فرفضت ما لم يعد العسكر إلى ثكناتهم، وتجري انتخابات، لا أن نستمد السلطة من العسكر، فرفض العسكريون، وعينوا عزت النص، فلم تستمر سوى شهرين أو ثلاثة. وقد جرى الانقلاب في ٢٨ أيلول ١٩٦١، وأُلِّفت وزارة الكزبري في ١٩٦١/٩/٣٠. وبعد ذلك جرت الانتخابات، وكانت حلب أكبر الجبهات الانتخابية، وكان فوزنا كبيراً، وقد بذل رشدي الكيخيا مجهوداً كبيراً في الانتخابات دون أن يرشّح نفسه. وانتخبنا ناظم القدسي رئيساً للجمهورية في ١٩٦١/١٢/١٤، وسُمّيتُ أنا رئيساً للوزارة في ١٩٦١/١٢/٢٢. ولما كلّفني رئيس الجمهورية بتشكيل الوزارة اعتذرت، وقلت له: نحن جئنا إلى المجلس أكبر كتلة، ولكن خالد العظم يريد الرئاسة، وكذلك أكرم الحوراني يريد أن يكون لهم شيء، ونحن القوة الرئيسية في المجلس، إذ عندنا ثمانون نائباً من أصل مئة وعشرين، ونحن نريد أن نقف أمام عبدالناصر جبهة واحدة، ولذلك فإن المصلحة تقضي بأن نأتي برئيس من الأشخاص الذين ليس لديهم قوة في المجلس كصبري العسلي أو خالد العظم أو سعيد الغزي، وندعمه، وبذلك نكون جبهة واحدة. أما إذا ألّفتُ أنا الوزارة فسيبدأ الشغب من هؤلاء، ومعهم

الجيش، وليس ذلك من المصلحة في شيء. ووافق رئيس الجمهورية على رأيي، واتصل بالنواب فوجدهم مصرّين على تكليفي؛ لأن لديّ ثمانين صوتاً وليس لصبري العسلي وخالد العظم وسعيد الغزي وأكرم الحوراني وليون زمريّا سوى سبعة عشر صوتاً.

س **يقول خالد العظم في مذكراته إنه أُقنِع أن يتنازل عن ترشيخ نفسه لرئاسة الجمهورية ليتسلم رئاسة الوزارة، ولكن حزب الشعب لعب لعبته على خالد العظم وقدّمكم لرئاسة الوزارة.**

= أنا كان هذا رأيي لما أقنعنا خالد العظم أن يسحب ترشيحه لرئاسة الجمهورية.

س **هل عرضتم عليه أن يكون رئيس وزارة؟**

= لم نعرض عليه؛ لأن الأكثرية معنا، وقد جرّب ناظم القدسي أن يرشّح صبري العسلي وخالد العظم لرئاسة الوزارة فلم يرضَ المجلس، وأصرّ على ترشيحي مرة ثانية. ومما فعلته في ذلك الحين لما اعتذرت أول مرة أنني ذهبت إلى ناظم القدسي وقلت له: كلّف رئيس المجلس النيابي أن يجمع الأشخاص الذين لديهم أصوات وأنا منهم، فيجتمعون فتقول لهم: البلاد محتاجة إلى وحدة صف، وها أنتم أولاء مجتمعون، فأي شخص تتفقون على ترشيحه لرئاسة الوزارة فأنا أكلفه بذلك، وليؤيّد بعضكم بعضاً، وبذلك أصبح الذي يسمى رئيس الوزارة ليس رئيس الجمهورية، وإنما الخمسة المتطلّعون إليها.

وتم هذا الاجتماع، وابتدأت الحديث فيه قائلاً: يا إخواننا، الوقت الذي نحن فيه لا يسمح لنا بالانقسام، فعبدالناصر متربّص بنا، فدعونا نتفق على رئيس الجمهورية، ومبدئياً أنا أرفض أن أكون رئيس وزارة، وإن كانت معي الأكثرية، وأنتم الخمسة: سعيد الغزي وصبري العسلي وخالد العظم وليون

زمريا وعلاء الدين الجابري، أي واحد منكم تتفقون عليه أنا أعتذر عن تأليف الوزارة وأطلب من إخواننا أن يؤيدوه، وإذا بخالد العظم يغضب وينسحب؛ لأنه كان يريد أن يكلف تكليفاً، ولحقه صبري العسلي فانسحب أيضاً. وأما البقية فليس لديهم كتلة ولا عدد، وبالتالي لا أمل. وعندئذ راح الكزبري إلى ناظم القدسي وقال له: لقد انسحب الإخوان وما رغب أحد في الفكرة المطروحة، وليس أمامك إلا أن تسمي أنت الشخص المُكلَّف. هنالك أذاع ناظم القدسي بياناً بتكليفي دون علمي، واستدعاني، فجئت وقلت له يا ناظم بك أخطأت، واغرورقت عيناي بالدموع وبكيت، وقلت له: الوضع الذي نحن فيه ليس طبيعياً، وعبدالناصر يهاجمنا. قال: أنا لا أستطيع أن أكلّف شخصاً عنده صوتان فقط.

س　هل كان رأيكم أن يكلف خالد العظم؟

= 　يكلّف شخصاً آخر، كائناً من كان؛ ولا يعرضنا لمقولة: حلبي كلف حلبياً وأي شخص يُكلَّف إذا لم يوافق عليه مجلس الشعب يجعلنا في حلّ من التهم والمؤاخذات، والواقع أن ناظم القدسي تعرض لنقد شديد تألم منه، إذ تأخر تكليفه أحداً تشكيل الوزارة خمسة عشر يوماً، وأشيع عنه أنه لا يريد تكليفي، مع أن الأكثرية معي، ولذلك أحب أن يحسم الأمر فأعلن مرسوم تكليفي دون علمي واستدعاني ووضعني تحت الأمر الواقع، وكان مصراً عليّ من أول الأمر، لولا اقتراحي الذي ذكرته آنفاً. ولم يكن لي بد من القبول، فجمعت نواب حزب الشعب، واتفقنا على أعضاء الوزارة، وأعلنّاها.

وفي اليوم الثاني دعا رئيس الجمهورية مجلس الدفاع الأعلى ليطلب من الجيش تسليم السلطات لنا، وحضر الاجتماع رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة

ونائبه جلال السيد ووزير الداخلية أحمد قنبر ووزير المالية عدنان القوتلي، وحضر من الضباط الذين قاموا بالانقلاب النحلاوي وزهر الدين، وقالا: نسلمكم السلطات بناء على الانتخابات التي قدمتكم، ونبارك لكم، وكان ذلك في أواخر كانون الأول من عام ١٩٦١، ولكننا نقول لكم: لا يوجد لدينا رواتب شهر تدفعونها للجيش، وإسرائيل حشدت مئة دبابة جنوب طبرية، ومئتي مصفحة، ومئة دبابة مع مئتي مصفحة شمال طبرية. وليس لدينا سلاح، ما كان عندنا من سلاح أخذه عبدالناصر. لا يوجد سوى قليل من السلاح الخفيف كالبنادق ونحوها في مخفر باب النيرب في حلب. وقبل مجيئنا رصدنا القوى التي حشدتها إسرائيل، إنها تكفي لاحتلال سورية كلها.

وراجعنا عبدالناصر، واتصلنا به، من أجل هذه القضية الوطنية، وهو الذي أخذ كل سلاحنا الثقيل حتى الطائرات أخذها، وإننا مهددون من إسرائيل...، فرفض أي اتصال.

واتصلنا بالسوفييت وطلبنا منهم سلاحاً، فرفضوا إلا إذا كان الثمن نقداً وبالدولار، ونحن لا رواتب عندنا ندفعها للموظفين! فماذا أصنع؟ القضية تحتاج إلى معجزة. خطر لي أن أستقيل. ولكن ماذا أقول للناس؟ أقول لهم لا رواتب عندنا ولا سلاح؟ وإسرائيل تتأهب لضربنا؟ ثم قلت في نفسي: الشروع في تحمّل المسؤولية ملزم، فلنتوكل على الله ولنقم بالواجب الذي ألقي على كاهلنا. كانت العلاقات مقطوعة مع إنكلترا وفرنسا، ولا يوجد أمامنا سوى السوفييت والأمريكان من الدول الكبرى. أما أمريكا فكانت غير معترفة بالانقلاب، فلم يبق أمامي غير السفير السوفييتي، فاستدعيته وقلت له: لكل دولة نقاط ضعف، ولكنها أمام المخاطر وأمام من لها عنده حاجة تخفي نقاط ضعفها حتى لا

يطمع فيها طامع، ولا توجد دولة ليس عندها نقاط ضعف، حتى أنتم الأقوياء حينما تجتمعون مع أمريكا تجعلون من نقاط ضعفكم قوة حتى لا تطمع فيكم، فما بالك بالدول الصغيرة مهما كانت الدولة صغيرة أو كبيرة تخفي نقاط ضعفها عند الحاجة. قال: طبعاً. قلت: أنا سأكون في حديثي معك على خلاف المعتاد. سأبدأ بعرض نقاط الضعف التي نعانيها. ففي الأمس وفي منتصف الليل استلمنا الحكم، وليس لدينا رواتب ولا سلاح، وإسرائيل حشدت قواها على حدودنا، مهددة إيانا باحتلال سورية. سلاحنا أخذه عبدالناصر، ولما اتصلنا به رفض التفاهم، وأميركا غير معترفة بنا، وقد تعطي الضوء الأخضر لإسرائيل فتهجم علينا. فهل نساوم على الصلح مع إسرائيل؟ وحين رفضتم إعطاءنا السلاح إلا نقداً وبالدولار كنتم تساومون على الشيوعية.

ونقطة الضعف الأخيرة التي أقولها لكم: أنا ضد الشيوعية في بلدي، ولكنني بحاجة إليكم. أنا دارس الشيوعية دراسة ليست أقل من دراستكم لها. الشيوعية تقوم على أساس تحرير الإنسان من الاستغلال والعبودية. والإسلام عندنا يقوم على هذا الأساس، فهو دعوة لتحرير الإنسان من الاستغلال والعبودية لغير الله، كما قال ربعي بن عامر لرستم قائد الفرس حينما سأله عما أخرجهم من جزيرة العرب، قال: «جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام». إلا أنكم تقولون: إن الإيمان بالله العبودية، ونحن نقول: الإيمان بالله التحرر من كل عبودية. ونحن الشرقيين صدّرنا الأديان إليكم، صدّرنا اليهودية، وصدّرنا المسيحية، ونحن نصدّر الإسلام. ففسدت الأديان عندكم فقمتم ضدها. ونحن في الشرق ما نزال كلما اصطدم قيصر بالشعب وقف الجامع والكنيسة إلى جانب الشعب ضد قيصر. وضربت له مثلاً على ذلك تضامن المسلمين

والمسيحيين في لبنان سنة ١٩٥٨، ضد شمعون؛ إذ كنت ترى بطريرك النصارى ينزل إلى حي المصطبة المسلم في بيروت، ويدقّ المسلمون له الطبل ويرقص معهم. أما أنتم فالكنيسة والقيصر ضد الشعب. وكان عليكم ألا تصطدموا بالإسلام، ولو أنكم تنازلتم عن فكرة الإلحاد لوجدتم المسلمين معكم، ومن مصلحتكم أن تتفاهموا مع الدول الإسلامية، بعيداً عن المطامع. فلماذا لا يكون لكم تمثيل في المملكة العربية السعودية، يفتح الطريق للتفاهم مع المسلمين، وهذا التفاهم يكون قوة لكم وليست عليكم. ثم بينت المؤامرات علينا منذ عهد بلفور حتى الآن، موضحاً أن قضية إسرائيل كانت ظالمة لنا، وأن ستالين كان يؤيد إسرائيل، ولم يتراجع عن تأييدها إلا في سنة ١٩٥٠، عندما وقفتُ ضد المعاهدة التي كان من المزمع عقدها معنا ومع إسرائيل لنكوّن جبهة مع أمريكا ضد السوفيت في تركيا. فأنتم شاركتم في إنشاء إسرائيل، وارتكبتم في ذلك أخطاء جددتموها الآن مع عبدالناصر، إذ أكرهتموه على تطبيق الاشتراكية في سورية فانهار حكمه فيها، وانهار اقتصادها، وهكذا بيّنتُ له مساوئ الاشتراكية، وضرورة تحسين علاقتهم بالإسلام والمسلمين. ثم قلت له: وإنني الآن أريد السلاح منكم على وجه السرعة.

ويذهب السفير ويعود بعد يومين أو ثلاثة حاملاً رسالة من خروشوف، يحملها في دفتر من أربعين صفحة، وجلس يقرؤها عليّ، وتحمّلت سماعها في خلال أربع ساعات، وقد استهلها بقوله: أشكرك على صراحتك، وسأجيبك بصراحة أيضاً:

أولاً - إنني لا أثق بعبدالناصر وأثق بحيادك.

ثانياً - أنا نصحت عبدالناصر ألا يطبّق الاشتراكية في سورية. ونحن الآن لا نريد منك شيئاً، خذ من السلاح ما تريد، وإذا كان عندك قدرة على

الدفع فادفع، وإذا كنت لا تستطيع نؤجل دفع الثمن الآن حتى تستطيع. وأنت الخائف على الإسلام من دولة الإلحاد، اذهب وبلّغ أصدقاءك السعوديين أن أمريكا اتفقت مع عبدالناصر أن يحتل اليمن والسعودية والأردن وسورية ولبنان. وأرسل بعثة عسكرية لاستلام السلاح، فشكرت السفير على صراحتهم، وقلت له: لا أستطيع الآن إرسال بعثة، لأن تحركها يدل العدو على أن لا سلاح لدينا، وقد يغره هذا بالهجوم علينا، وإنما أريد كمية من السلاح تكفي لمعركة واحدة، وبعد ذلك نرسل بعثة؛ واتفقنا مع الروس على أن نأخذ من العراق على وجه السرعة ما نحن بحاجة إليه، وكان عبدالكريم قاسم على رأس السلطة، وأخذنا حاجتنا في خلال أسبوع.

وأذكر أنني لما سمعت قول خروشوف في رسالته: «إنني نصحت عبدالناصر ألا يطبق الاشتراكية في سورية» لما سمعت هذه العبارة لم أصدّق خروشوف، ولكن لما قرأت فيما بعد كتاب كوبلاند (لعبة الأمم) وما جاء في مقدمته عن عبدالناصر تبين لي صدق خروشوف؛ فقد جاء في مقدمة هذا الكتاب: «نحن نصحنا عبدالناصر أن يعمل الاشتراكية حتى نستره. ولنا في الاشتراكية رأيان، نكرهها ونقاومها ضمناً، ولكن كان من اللازم أن نستره، فأنا كنت أكتب له الخطاب ضد أمريكا، وأنا في الطابق العلوي، وعبدالناصر جالس مع السفير الأمريكي في الطابق السفلي؛ لأننا نريد شخصاً متمسكاً بالحكم والسلطة، ووجدنا فيه طِلبتنا، فنحن نصحناه أن يعمل الاشتراكية ويتظاهر بها، ولكن كان يلزم أن نستره». وكوبلاند هذا من السي آي إي.

وفي اليوم الثاني استدعيت في الصباح الباكر السفير السعودي عبدالرحمن الحميدي، وقلت له: اجتمعت البارحة مع السفير السوفيتي، فقال

لي: اتفقت أمريكا مع عبدالناصر على أن يحتل اليمن والسعودية والأردن وسورية ولبنان، لقمة كبيرة، كيف سيتحملها، ونحن على ضعفنا طردناه من سورية. ولكن واجب أن أنقل هذا الخبر إليكم، وليس من مصلحة خروشوف أن يقول شيئاً لا نصيب له من الصحة. فاذهب إلى الملك سعود وقل له: فلان ينقل عن خروشوف كيت وكيت، لا تكتب تقريراً في ذلك؛ لأن التقرير قد ينتشر بين الموظفين ويتسرب الخبر، والمصلحة أن يبقى هذا الخبر مكتوماً، فاذهب وحدثه به شفاهاً، فإن طلب منك أن تكتب له، فاكتب بشرط ألا يخرج التقرير من عنده. وقام الرجل بما طلبته منه.

واتصلت بعد ذلك بالسفير الأمريكي في بيروت وطلبته فجاء، إذ لم يكن في سورية غير القناصل. وفي حلب وضعوا مورفي الذي كان مساعداً لوزير الخارجية، وهو عميل لإسرائيل. جاء السفير الأمريكي من بيروت، فقلت له: الأوضاع عندنا سيئة، ونحن نريد أن نسير بشكل ديموقراطي، وبيننا وبينكم مشكلات يجب أن تعرفوها؛ ذلك أنني لا أريد أن أحل مشكلاتي عن طريق السوفييت، فأنا لست شيوعياً. ولكنني تفاهمت مع السوفييت، وقلت لهم: إنني سأنقل إلى أمريكا كل ما اتفقنا عليه معكم؛ لأنني أريد تعايشاً سلمياً بين الدول الكبرى في هذه الأرض، وليس بين بعضكم بعضاً فقط، وكانت قد بدأت المذاكرات والمباحثات بشأن التعايش السلمي كما كنت أتوقع، فأنا أريد الشرق الأوسط أن يبقى آمناً دون حروب. فإما أن تعينوا سفيراً لكم في خلال أسبوع وإما لا سفارة لأمريكا في سورية. وإذا جاء سفيركم فسأخبركم عن طريقه بما قلت للسوفييت، وأنا ضد الشيوعية في بلدي. ولي عندكم مطالب، فلا تدعوني آخذ مطالبي كلها من السوفييت، فأنا عندئذ لا أضمن نفسي أن لا أكون شيوعياً. وذهب السفير وأبلغ كنيدي ما دار بيني وبينه من حديث، وكان كيندي حديث العهد بالرئاسة،

ويسير مع إسرائيل، ويطالب الدول العربية بوجوب مصالحتها لإسرائيل. ولما سمع من السفير أنني تفاهمت مع السوفييت، ولكن لا يوجد سفير لأمريكا في سورية أنقل إليه ما وصلت إليه مع السوفيت، وأنني ضد الشيوعية في بلدي...إلخ أبرق كيندي إليّ بعد ثمان وأربعين ساعة برقية، تحتوي على قائمة بأسماء سفراء، يعرض فيها بجانب اسم كل سفير ترجمته، فاخترت على ضوء الترجمة واحداً اسمه (نايت)، على أن يكون السفير عندي بعد عشرة أيام.

وجاء السفير الأمريكي يوم السبت، فقدمت له أوراق اعتماده يوم الأحد، مخالفاً بذلك التقاليد العالمية التي تقضي بألا يقدم السفير أوراق اعتماده إلا بعد شهر من وصوله، وقد ينتظر ثلاثة أشهر ليتعرف على الجو الذي سيعمل فيه. وإنما أسرعت في تقديم أوراق اعتماده، لاضطراري إلى السرعة في المباحثات، ولا يجوز البدء بالمباحثات مع السفير إلا بعد تقديم أوراق اعتماده.

عقدنا الجلسة في اليوم الثاني من وصوله، وقلت له: اسمع يا سيادة السفير، سأحدثك حديثاً مهماً جداً، ولي فيه عليك شرطان:

الأول: ألا تكتب ما أقول لك خطاً إلى الخارجية ولا إلى مكتب الرئيس؛ لأن في البيت الأبيض يهوداً. وأريد أن يستمع منك كيندي إلى ما سمعته مني، ولا أريد أن يسمع به يهود، فكلامي تنقله إلى كيندي لا لمستشاريه.

الثاني: لا تنقل كلامي هذا إلى كيندي إلا إذا اقتنعت به.

فتنفس الرجل الصعداء، وقال: وصلت أمس. وتريد أن ترسلني غداً، والصواريخ السوفيتية تنفجر في سماء كوبا، وهناك احتمال نشوب حرب بين روسيا وأمريكا. ومع ذلك أقول لك: أقسم بشرفي إذا اقتنعت بكلامك فسأقول لك إنني مقتنع وسأنقل كلامك إلى كيندي.

حدثته عندئذ عن إنشاء إسرائيل بأكاذيب وخيانات منذ وعد بلفور الذي قدمه إلى وزير الخارجية البريطاني لويد جورج. ولقد قال لويد جورج: لقد أعطينا اليهود وعداً بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، ولكن أهملنا ميثاق عصبة الأمم بمنح الشعوب حق تقرير المصير بعد تأهيلها للاستقلال. ويقول بلفور: لو سألنا العرب والمسلمين والنصارى: هل توافقون على إعطاء جزء من وطنكم لليهود، لرفضوا، ثم استطاع اليهود أن يقنعوا إنكلترا بالتقسيم.

وفُتِح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى، وطلبت إنكلترا من عصبة الأمم تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، وأول من احتج على هذا المملكة العربية السعودية، وكتب الملك عبدالعزيز بين الحربين كتاباً إلى روزفلت فيه احتجاج شديد اللهجة، يستنكر صدور قرار التقسيم في عصبة الأمم.

وبعد استماع السفير إلى حديثي عن كيفية نشأة إسرائيل قال: الآن أدركت الحماقات التي وقعت فيها حكومتي في تأييدها لليهود.

ولقد استغرق حديثي للسفير أربع ساعات، وتأثر مما سمع حتى كاد يبكي. وفي الصباح أعلمني بعزمه على السفر، فقلت له: اكتب ما تقوله لكنيدي: لقد أعلمني رئيس الوزارة السورية الدكتور الدواليبي بكل ما اتفق عليه مع السوفييت وأن له عند السوفييت مطالب وعند أمريكا مطالب، وقد أخذ مطالبه كلها من السوفييت. وأصبحت جبهته قوية غير قابلة للاختراق. أما مطالبه من أمريكا إذا لم تتم الموافقة عليها بعد إبلاغها شفوياً إلى كنيدي فسيغلق السفارة الأمريكية. ولقد كنت ذكرت لكم قبل أسبوع أنه لم يبق لديّ رواتب للموظفين، وقد فسخت اتفاقية التابلاين التي كان المجلس النيابي قد

رفضها لأنها ستمر بموجبها أنابيب البترول من الجولان، ولما قام انقلاب حسني الزعيم وقّعها، وسلم اليهود بحيرة الحولة والجليل. وسوف أطبّق عليكم الاتفاقية والشروط نفسها التي كانت مع إنكلترا، بتمرير خطوط النفط العراقي، بحيث يكون لنا على أمريكا مئة مليون دولار، وهو الفرق المتراكم خلال أربع عشرة سنة. ويلزمني المال لأني اشتريت السلاح، وخزينة الدولة فارغة.

وأدعوكم إلى التعايش السلمي؛ فإن الحرب العالمية لن تقع الآن بين الأسطولين الأمريكي والسوفيتي، ولن تكون عن طريق فيتنام، وإنما ستكون هنا في الشرق الأوسط، حيث من يملك آبار البترول يستطيع أن ينتصر في الحرب. ونحن في الشرق الأوسط نستطيع أن نقف في وجه روسيا وليس أنتم؛ لذلك ندعوكم إلى التعايش السلمي.

وسافر السفير في اليوم التالي، وانتقل من المطار إلى البيت الأبيض، حيث قابل كنيدي وحدثه بما دار بيننا من حديث، وأخبره أننا أحضرنا مستشارين عسكريين من روسيا؛ لأن السلاح منها، وكان أخي العميد مصطفى الدواليبي قائداً للجبهة السورية.

وهتف كنيدي أمام السفير إلى مجلس الشيوخ الأمريكي قائلاً: لقد عاد السفير وطلب الموافقة على دفع مئة مليون دولار لسورية، ليحملها السفير فوراً. ووافق مجلس الشيوخ على ذلك، وعاد السفير إلى سورية يحمل شيكاً بالمبلغ المذكور آنفاً، وكان معه سفير سورية في أمريكا المرحوم عمر أبو ريشة الذي أبدى دهشته لما رأى وسمع.

وكانت إسرائيل تعلم أن سلاح سورية نُقِل إلى مصر في أيام الوحدة بتدبير من أمريكا. وما كانت تدري أننا حصلنا على السلاح عن طريق العراق

في أسبوع واحد، فاستغلت هذه الفرصة، وقامت بعدوانها المشهور على سورية، وكان قائد الجبهة أوعز بوضع قنابل على الطريق الواقعة بين حدود الجولان وطبرية، وهي الطريق المتوقع أن تسلكها الدبابات الإسرائيلية، وهذه القنابل لا تنفجر إلا بثقل الدبابات. وأرسلت إسرائيل مشاة لاختبار الطريق. ولما اطمأنت إلى سلامة الطريق أرسلت دباباتها في الطريق المذكورة آنفاً فانفجرت القنابل وتناولت الدبابات المدفعية الثقيلة من أعلى أيضاً، ففقدت إسرائيل يومذاك أربعمئة دبابة.

واتصلت بخروشوف، وقلت له: لقد هاجمتني إسرائبل، وسأشكوها إلى مجلس الأمن، ولكن لا أريد أن أقيم الدعوى حتى أعرف موقفكم، فقال: نحن معكم وليس أمامنا إلا الفيتو. وعندك كنيدي، تفاهم معه، فإن قبل فبها وإن لم يقبل، فسنستخدم الفيتو ننقذكم به.

واتصلت بكنيدي وأفهمته أنني أريد أن أقيم الدعوى على إسرائيل، ولكن لن أقيمها قبل معرفة رأيكم وموقفكم. فإما أن تأمر بإدانة إسرائيل، وإما أجد نفسي مضطراً للاستقلال بالرأي، ولقد أخذت موافقة خروشوف، وليس من مصلحتكم أن تنشب حرب تستعجلونها، دعونا نعالج الأمور بالحكمة. فبعث لي في النهار نفسه جواباً بالموافقة على إدانة إسرائيل. ورددت عليه بالنهار نفسه قائلاً: لقد توافرت لدينا المعلومات أن إسرائيل ستأتينا منتقمة عن طريق لبنان، وإن ما لدينا من استعدادات لا تكفي لردعها، فأرجو أن ترسلوا لها إنذاراً تمنعونها به من التحرك. وإذا لم ترسلوا لها هذا الإنذار أيضاً، فسأضطر إلى اتخاذ طرق أخرى. وبعث لي في اليوم التالي نص الإنذار الذي يقول فيه لإسرائيل: «أي عملية تقوم بها إسرائيل انتقاماً من سورية على

معركة الأمس، سوف تضطرنا لأن نعيد نظرنا في موقفنا من إسرائيل، ولذلك نطلب منكم ألا تتحركوا» فشكرته على هذا الإنذار. وجن جنون إسرائيل.

وبعد أسبوع أرسل زهر الدين أخي مصطفى إلى نيويورك دون علمي وأنا رئيس الوزارة، بحجة أنه هو الذي قاد المعركة مع إسرائيل ليشرح الوقائع في نيويورك، وبعد ذلك يأتيني شوكت شقير ليخبرني بإرسال مصطفى فقلت له: كيف تبعثونه: كيف تخلون الجبهة؟ فألقى باللوم على زهر الدين. فأدركت أن ثمة مؤامرة تحاك، وأرسلت موظفاً من الخارجية إلى نيويورك. وفي الليل حدث الانقلاب عليّ، وفتحت الدعوى في الصباح ونحن في السجن.

س من قام بالانقلاب؟

= زهر الدين وعبدالكريم النحلاوي. وكنت على علم بترتيباتهم، وكان عبدالناصر على تفاهم معهم.

س عبدالناصر تفاهم مع النحلاوي؟

= نعم، وكانت تصل إليّ في تلك المرحلة معلومات من قصر عبدالناصر عن طريق عدد من الإخوان المسلمين ممن عملوا مكرهين معه، وكانوا على صلة بالحاج أمين، فيخبرونه بما يجري من مفاوضات بدأت مع عبدالكريم النحلاوي، مفادها: أزيلوا معروف الدواليبي نتعاون معكم. فطلبت إلى النحلاوي أن يأتي إليّ فلم يأتِ، واعتذر لانشغاله بأعمال وارتباطات، فأدركت أن الرجل خائف من أن أعتقله؛ فركبت سيارة رئيس الوزارة وذهبت إلى بيته، وفاجأته بالزيارة وقلت له: يا عبدالكريم أنتم تفاهمتم مع عبدالناصر لإحداث انقلاب، والمعلومات التي عندي أن الذين سيشتركون معك في هذا الانقلاب سيقتلونك، بعد أن تفجّر أنت الانقلاب؛ لأنهم يقولون: لا يستطيع أن يفجّر الانقلاب إلا

الذي انقلب علينا يعني أنت، وهم معتمدون على جاسم علوان، أنت تفجّر الانقلاب، وهو يعصى، ويقتلونك بعد ذلك. قال لي: يا سيدي، هذه أوهام، أرجوك. قلت له: أنا أقول لك الانقلاب سينصّب على رقبتك، وانسحبت.

كان هذا كله قبل المعركة مع إسرائيل. وجرت المعركة وانتصرنا كما مر آنفاً، وأقمنا الدعوى، وقبل أن تفتح للنظر فيها حدث الانقلاب فاستغلت إسرائيل هذه الظروف السيئة، وقدمت دعوى رفض لدعوتنا بحجة أن لا توجد دولة الآن في سورية ولا حكومة ولا دستور، والدبابات منتشرة في شوارعها، وأعضاء الحكومة في السجن، ولكن كنيدي وخروشوف تقدما بطلب واحد، وهو إدانة إسرائيل فوراً.

وفي اليوم الثاني من الانقلاب كانت الدبابات تملأ الشوارع، والانقلابيون يديرون الأمور في دمشق ونحن في السجن، وتأتي تعليمات للسفير السوفيتي ليذهب ويقابل السفير المغربي عبدالهادي بوطالب.

يقول لي عبدالهادي بوطالب بعد خروجنا من السجن: جاءني السفير السوفيتي عقب الانقلاب بثمان وأربعين ساعة، والبلاد مازالت مضربة، والمظاهر العسكرية تملأ الشوارع، ولا يعرف أحد من الذي يحكم البلاد، جاءني إلى السفارة دون موعد، فما شعرت إلا الآذن يقول لي: السفير السوفييتي في الباب، فاستقبلته، وأبلغني أن حكومته طلبت منه أن يتصل بي لأقوم أنا بالاتصال بالذين قاموا بالانقلاب وأبلغهم على لسان روسيا إما أن يعيدوا الوضع الدستوري إلى البلاد، وإما ستعيد روسيا النظر بالقائمين على الأمر في سورية. فدُهِشْتُ ووقع في نفسي أنك شيوعي، إذ كيف يأتي السفير السوفييتي ويبلغني هذا الإنذار؟ ولكن ليس على الرسول إلا البلاغ. وما كدت أجلس إلا قليلاً حتى جاء

الآذن راكضاً يقول: السفير الأمريكي في الباب، فاستقبلته، فإذا هو يطلب مني ما طلبه السفير السوفييتي قبل قليل. فقلت في نفسي: قبل قليل كنت مقتنعاً أنك شيوعي، فلما جاء السفير الأمريكي وقال ما قال دهشت، ولم أدر ما أقول؟ أأقول هذه المرة عميل استعمار؟ والعجيب أن تجعلهما يسيران في مسار واحد!

وبعد أسبوع أعاد العسكريون ناظم القدسي على شرط أن أستقيل، فرفضت الاستقالة أول الأمر. ولكن ناظم بك قال: يا أخي دعنا نساهم في خدمة البلد، فأعطيته استقالتي، وعُيّن بعد ذلك بشير العظمة رئيساً للوزارة.

وقد جرى لي استقبال حافل عند خروجي من السجن، مشت فيه مئة سيارة، وكان مورفي قنصلاً في حلب لأمريكا، يخرج ويوزع صور عبدالناصر بيده، ويتعاون مع إسرائيل، غير عارف بسياسة حكومته، وتفاهمي مع كندي، وقد لعب دوراً ملائماً لعمالته لإسرائيل، ثم عُيّن سفيراً في سورية، ثم سفيراً في المملكة العربية السعودية، ولما صار سفيراً فيها طلب إخراجي من المملكة، وكنت نبّهت المسؤولين عليه، فقلت للأمير سلطان: هذا كيت وكيت. فلما طلب إخراجي قال له الأمير سلطان: لا تنسَ أنك كنت توزع صورة عبدالناصر في يوم من الأيام. وظل يعمل لصالح إسرائيل، وكان مقرباً للرئيس الأمريكي يصحبه في زياراته لروسيا ومقابلة غورباتشوف.

٢٩- حكومة بشير العظمة

س ما تعليقكم على التآمر الذي كان عليكم وأدى في النهاية إلى مجيء حكومة بشير العظمة؟

= لم يكن بشير العظمة من الأشخاص المعروفين في العمل السياسي، ولذلك لا أستطيع أن أتكلم عليه سلباً أو إيجاباً. ولكن من المعروف في الظروف التي

تكون فيها المؤامرات متقنة، حتى تُزاح هيئة، ويحل محلّها أشخاص، أن يُؤتَى بأشخاص غير معروفين، فيكون باختيارهم ستر للوضع القائم. ولذلك لم يلبث بشير العظمة أن ذهب دون أن يخلف وراءه سياسة أو يعرف عنه رأي. فموضوع اختياره كان لإيجاد واجهة مؤقتة للتستير على الانقلاب ومراميه. كان الانقلاب علينا بالتفاهم مع عبدالناصر، إذ كان يتصل بالضباط ويقول لهم: إذا أزلتم حكومة الدواليبي فأنا معكم، ويتصل برئيس الجمهورية ويقول: إذا أزلتم الضباط فأنا أتعاون معكم، ويرمي من وراء ذلك إثارة الرئيس على الضباط، وإثارة الضباط على معروف الدواليبي.

وكان يرسل إليّ مع شاب من بيت العائدي، كان عميداً لكلية الطب، ورئيساً للجنة المقاطعة، يقول: إن جمال عبدالناصر مستعد للتفاهم معك، على أن تبعد الضباط الانقلابيين، وأن تبقي القوانين الاشتراكية، ويقول للضباط: أبعدوا الدواليبي أتعاون معكم، فكان يعمل على عدة جبهات. وقلت له: لا يمكنني أن أتعاون معك. لقد كان التحرك كله ضد عبدالناصر بسبب القوانين الاشتراكية؛ ولذلك ثار الشعب مع الضباط ضد عبدالناصر، وكانت هناك عوامل أخرى تأثّر بها الضباط الانقلابيون، ولكنهم اتخذوا الاشتراكية وسيلة وقاموا بحركتهم. وفي البلاغ رقم (٢) هاجموا الاشتراكية وعللوا بها ثورتهم على عبدالناصر. فمهاجمة الاشتراكية كانت قبل مجيئي أنا للحكم، ومع ذلك نشر هيكل أن الجيش السوري مع الاشتراكية، وأن معروف الدواليبي هو الذي ألغاها، فناقض حسنين هيكل نفسه، لأنه سبق أن نشر البلاغ رقم (٢) بمهاجمة الجيش للاشتراكية. وقد أرسل إليه زكي عبدالبر، وكان يكتب أيام الغليان، يخبرني أن اسمك ورد على لسان المجتمعين مع عبدالناصر يطلبون إقالتك. ففي هذه الحركات الانقلابية يبقى المتآمر خفياً؛ فلقد تبين بعد ذلك

أن كوهين كان على صلة دائمة بزهر الدين الذي صار عنوان التحرك. وحدث الانقلاب بالاتفاق مع إسرائيل، إذ وضعوا في الحكم أشخاصاً مجهولين، لا صلة لهم ولا علاقة بالحياة السياسية؛ فبشير العظمة مع احترامي له، لا أعرف عنه شيئاً من قبل، أُتِيَ به لمرحلة ستمر، كما أتي بعبدالناصر؛ فكوبلاند يقول: كنت مستشاراً لحسني الزعيم، ومستشاراً لأديب الشيشكلي، ومستشاراً لعبدالناصر.

صحيح أن اتجاه بشير العظمة يساري، ولكنه رجل لم يشتغل في السياسة، ولم يعرف في اتجاه من اتجاهاتها؛ فمن المعروف مثلاً أنه إذا ذكرت الشيوعية ذكر خالد بكداش، وبشير العظمة لم يُعرَف عنه أنه شيوعي، وإن كان ناصرياً فإنه غير معروف بينهم ولا دور له معهم، وإن كان انقلابياً فما كان له دور في الانقلاب. فلماذا اختير هو بالذات؟ اختير لأن ميوله اشتراكية لا أكثر ولا أقل، مع أنه ليس في العير ولا في النفير. وما كانت حكومته إلا مرحلة ستمر. ولديّ معلومات أن عبدالناصر كان يريد أن يحدث هذا الانقلاب، وكان يقول: لا يستطيع أن يقوم بالانقلاب إلا الضباط الذين قاموا به عليه هو؛ ولذلك أقنعهم بأن يزيلوا الدواليبي. وهذا ما نشره حسنين هيكل. وصار الانقلاب عليّ، قام به جاسم علوان في حمص ضد الانقلابيين. فلما راح زهر الدين ليتفاهم مع القوة في حمص اشترطوا عليه أن يخرج عبدالكريم النحلاوي إلى خارج البلاد، وخرج النحلاوي، وهو الآن لاجئ في السعودية. أما زهر الدين فدخل إلى السجن قبل أن أخرج أنا منه. ودخل السجن كل من أيد حكومة بشير العظمة وعلى رأسهم بشير العظمة نفسه. وكانت مرحلة مرت في تاريخ البلاد.

٣٠- رأي في الانقلابات

س ما تعليقكم على الانقلابات التي حدثت في سورية؟

= الانقلابات التي كانت تحدث في سورية ما كنا نثق بها، لأننا نعتقد أن يداً أجنبية وراءها، ولا سيما إسرائيل. كانت تنقصنا الوثائق، واليوم تكاملت. ومنها ما نشر عن اجتماع يالطة بين روزفلت وتشرشل وستالين الذي وضعوا فيه اتفاقيات مع ستالين لإنهاء الحرب في مطالع سنة ١٩٤٥ قبل الهدنة بشهرين تقريباً؛ ذلك أنهم سمحوا له أن يتقدم في روسيا ويحتل نصف إيران، ليرسلوا له الأسلحة، ودخلوا هم من الجنوب؛ إذ ما كان يمكنهم أن يتصلوا بجبهة ستالين إلا عن طريق ألمانيا، ولابد أن يدخل لاستلامها عن طريق إيران، فطلبوا من أبي شاه إيران السماح بمرور حرّ للأسلحة من الخليج إلى روسيا، فرفض، فعُزِل، ونُصِّب ابنه مكانه، وسمحوا للسوفييت أن يأخذوا القسم الأعلى من إيران، واحتلوا هم النصف الآخر، ووصلت الأسلحة للسوفييت.

وقبيل توقيع الهدنة بات واضحاً أن الحلفاء سيربحون الحرب بعد إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما، فهم يريدون أن يضعوا شروطاً على ستالين ليخرج من إيران؛ لأن حلم روسيا أن تصل إلى البحر الأبيض وليس البحر الهندي والخليج العربي. ففي اجتماع يالطة هذا سر الانقلابات التي نُكِبْنا بها؛ إذ كان آخر فقرة من الاتفاق الذي حمله روزفلت لستالين. إقامة الوطن الثقافي لليهود في فلسطين، ضمن دولة عربية. فقال ستالين لا للوطن الثقافي لليهود، ونعم لدولة يهودية أتعهد أنا بحمايتها. وقد نشر هذا الاتفاق بن غوريون في كتابه مذكرات بن غوريون. ولما جاء روزفلت إلى الخليج أرسل مستشاره إلى فلسطين ليفتش عن بن غوريون، ويخبره بما تم الاتفاق عليه مع

ستالين. وقال بن غوريون: هذا شيء لم نكن نتصوره. ومجيء روزفلت إلى الخليج كان لمقابلة الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله؛ لأن البلاد العربية كلها كانت محتلّة، من الرباط إلى بغداد، لا توجد دولة غير محتلة غير المملكة العربية السعودية. وكان اليهود قد طلبوا من روزفلت أن يسعى لهم من أجل أن يأخذوا خيبر، وبعض أحياء المدينة المنوّرة، علاوة على فلسطين وسيدفعون لقاء ذلك مئة مليون ليرة ذهبية، ولما زار روزفلت الملك عبدالعزيز فاتحه في هذا الموضوع، فثار عبدالعزيز ثورة عربية إسلامية، وبمنطق أن هذه الأرض أرضنا، والبلاد بلادنا، وحذّر الأمريكان من نتائج إقامة دولة يهودية في فلسطين، وأنهم سيضطرون العرب يوماً أن ينقلبوا عليهم دفاعاً عن أنفسهم. وقال له أيضاً: من يضمن لكم ألا ينقلب اليهود عليكم بعد أن تعطوهم ما يريدون، كما انقلبوا على إنكلترا التي أدخلتهم فلسطين وقتلوا اللورد موين سفير إنكلترا في مصر وكان حاضراً هذا اللقاء يوسف ياسين ورشاد فرعون، وعدد من السوريين أغنوا المعلومات التاريخية عن فلسطين ودعاوى اليهود الباطلة فيها. وخرج روزفلت مقتنعاً بأن دعاوى اليهود في فلسطين وغيرها من البلاد العربية باطلة، ووعد الملك عبدالعزيز شفهياً بأن سيعطي المعلومات التي سمعها أهمية وتقديراً، ولن يقدم على شيء دون موافقة العرب، ثم أكمل رحلته على المدمرة عائداً إلى بلاده.

وبعد شهرين وُقِّعت الهدنة، فكتب الملك عبدالعزيز رسالة تهنئة أرسلها إلى روزفلت، كرر فيها ما قاله لروزفلت شفهياً من بطلان دعاوى اليهود في البلاد العربية، وقد كتب روزفلت على هذه الرسالة شرحاً مفاده: «إن إقامة دولة إسرائيل في أراض عربية، أكثر سكانها من المغرب إلى المشرق عرب، هذا معناه أنها لا يمكن أن تحيا وتبقى إلا وهي مسلّحة على الدوام، وهذا شيء غير

قابل للدوام والبقاء، لا ينبغي لأمريكا أن تتورط فيه». وأرسلها إلى الديوان. وكتب رسالة جوابية إلى الملك عبدالعزيز، يشكره فيها على تهنئته، ويقول: «إن سياستي كما بلغتكم إياه أنني لن أقدم على شيء دون موافقتكم، هذه سياسة حكومتي، وليس فيها تغيير». ووصلت هذه الرسالة مع وفد أمريكي في يوم وفاة روزفلت! وكانت صحته طيبة، ما كان فيه غير شلل؛ ولذلك كتبت الصحافة الأمريكية إشارة إلى أن روزفلت (ما...) أي مات ميتة مشبوهة، مع وصول هذه الرسالة، قتله اليهود؛ ولذلك جاء بعده ترومان فمشى بخط معاكس تماماً لخط روزفلت، فصرّح أنه مع اليهود. فكتب إليه الملك عبدالعزيز: إنك خرجت على ما اتفقنا عليه مع روزفلت، وأجابه ترومان بالإصرار على موقفه، فجدّد الملك عبدالعزيز استنكاره برسالة ثانية إلى ترومان أقوى من الأولى فنّد فيها تصريحات ترومان المنحازة إلى اليهود. وفي هذه المرحلة أُنشِئت السي آي إيه، وبدأت عملها في ترتيب الانقلابات في بلادنا؛ وقد قدمنا في ص ١٢٨، ١٦١ ما ذكره، مايلز كوبلاند بعد أن خرج منها إلى التقاعد في كتابه (لعبة الأمم) الطبعة الأولى.

ويقول في كتابه الجديد (لاعب اللعبة): كنت بوصفي موظفاً في الاستخبارات أدبّر الانقلابات. وكنت مستشاراً لحسني الزعيم، ثم مستشاراً لأديب الشيشكلي، ثم مستشاراً في مصر لعبدالناصر. فهذه الانقلابات الثلاثة كان وراءها السي آي إيه التي كانت تقف في مواجهة الاتجاه الذي أعلنه الملك عبدالعزيز لروزفلت وترومان ضد إسرائيل. وهذه الوثائق أصبحت اليوم معروفة ولاسيما ما نشره كوبلاند؛ الذي يقول: إنه ينشر هذه الوثائق عملاً بقانون حرية المعلومات. وإنها وثائق سرية خطيرة. وقد أسلفت الحديث عنها، وعما تضمنته من أسرار الانقلابات في سورية ومصر والعراق، ومَنْ وراء هذه

الانقلابات من دول الاستعمار وإسرائيل، وما فعلته المخابرات الأميركية لإقناع جمال عبدالناصر بإدخال الاشتراكية إلى سورية، فكانت سبباً في تهديم اقتصادها وتخلّفها.

٣١- عودة إلى انقلاب حسني الزعيم

س ما نزال في صدد الحديث عن الانقلابات التي توالت على سورية، فهل تضيفون شيئاً إلى العوامل والدوافع والأهداف التي كانت وراء اختيار حسني الزعيم ليقوم بالانقلاب الأول في سورية، وهل لشخصيته دخل في هذا الاختيار؟

= كانت سورية تمثّل الفكر العربي الحرّ الناضج؛ فهي الدولة العربية الوحيدة التي لم توقع الهدنة مع اليهود، ورفضت الاتفاقية النقدية مع فرنسا، كما رفضت اتفاقية التابلاين، وقد ذكرت ذلك بالتفصيل فيما تقدم؛ ولذلك كان غرض الدول الثلاث: بريطانيا وفرنسا وأمريكا ضرب سورية بالانقلابات. وكانت مواقفها المبنية آنفاً من العوامل التي أكدت ضرورة البدء بها. ومن هنا راحوا يفتشون عن شخصية عسكرية فيها نقاط ضعف يمكن استغلالها، فوقعوا على رجل مغرور جاهل، ليس في العير ولا في النفير، ووجدوا أن حسني الزعيم خير من ينفذ لهم ما يريدون، وبعد فترة قصيرة حدث الانقلاب بقيادته، ووقّع الهدنة التي رفضناها، ووقع الاتفاقية النقدية مع فرنسا التي رفضناها، ووقع اتفاقية التابلاين التي رفضناها. وكأن هذه الاتفاقيات الثلاث كانت تنتظر الانقلاب ليتم توقيعها جميعاً. وقد كان هذا كله عن طريق كوبلاند الذي يقول: إنه كان مستشاره. وهذا يدل على أنه كان على صلة سابقة به، حتى أصبح مستشاره. وكما هيأ مايلز كوبلاند انقلاب حسني الزعيم هيأ انقلاب عبدالناصر ضد فاروق؛ فقد كان فاروق مؤيداً للقضية الفلسطينية،

وهو الذي استضاف المفتي الحاج أمين الحسيني وحماه، ومواقفه الوطنية لا غبار عليها، والانقلاب عليه كان بتخطيط من الـ CIA. ولما رفضنا التعاون مع حسني الزعيم كلف الأمير عادل أرسلان بتأليف الوزارة، وجاء الأمير عادل وطلب مني الاشتراك في الحكم فرفضت. وبعد مدة تبين للأمير عادل هدف الانقلاب كما ذكر في مذكراته، إذ طلب منه حسني الزعيم الاتفاق على اجتماع مع بن غوريون، واعترض الأمير عادل على هذا الطلب، وبين أن الاجتماع ببنّ غوريون سيثير البلاد علينا. وسكت حسني الزعيم آنذاك، وقرر أن يجري استفتاء صورياً يصبح بموجبه رئيس دولة يستطيع أن ينفذ ما يريد. وأجرى الاستفتاء وصار رئيساً للجمهورية، ولكن الانقلاب عليه لم يمهله، ورجع هاشم الأتاسي لرئاسة الجمهورية، وعين ناظم القدسي رئيساً للوزارة، وجاء السفير الأمريكي يعاتب ناظم القدسي على تخلّصه من حسني الزعيم. وهذا دليل على أن أمريكا كانت وراء انقلاب حسني الزعيم.

لقد أظهر أحد كبار مؤسسي الـ CIA. مايلز كوبلاند الذي ألف كتابه (لعبة الأمم) منذ ما يزيد على خمس وعشرين سنة (١٩٦٩)، وكتابه الجديد في الصيف الماضي (لاعب اللعبة) الذي ترجم ونشر في صحيفة الشرق الأوسط في ١٩٨٩/٥/١٥، أظهر أنه كان مؤسس تلك الانقلابات وفي صميمها، إذ قال بصراحة: كنت مستشاراً لحسني الزعيم، ثم مستشاراً لأديب الشيشكلي، ثم مستشاراً لعبدالناصر، فما من انقلاب من تلك الانقلابات حدث إلا وعليه بصمات الأجنبي.

٣٢- حليف السجون

س ننتقل الآن من موضوع الانقلابات إلى فترات تشمل عدة مراحل من حياتكم المديدة إن شاء الله، وهي الفترات التي دخلتم فيها السجن؛ إذ من المعروف عنكم أنكم أكبر سياسي تعرض لمحنة السجن في سورية وغيرها. ولقد سمعنا منكم أن أناساً جاؤوا إلى ناظم القدسي بعد خروجه من سورية قائلين: أين أنتم؟ ولم تركتم البلد؟ فأجاب: اذهبوا إلى الدكتور معروف الدواليبي، فهو رجل معتاد على السجون. أما أنا فلا. فهل يمكن استعراض تلك المراحل التي تعرضتم فيها للسجن؟ وما انطباعكم عنها؟

= أول ما تعرضت له من ملاحقات في فرنسا كان إثر البرقية التي أرسلتها إلى رئيس وزراء فرنسا في ذكرى ١٤ تموز باسم جمعية الطلاب العرب، فقد كانت شديدة اللهجة، ذكرت فيها أنه كان بود جمعية الطلاب العرب أن تشترك في أعياد الحرية في فرنسا، لولا أنكم عطلتم في عيد الحرية دستور الحرية في سورية، وكنتم أعداء الحرية في بلدي. وكان ذلك قبل إعلان الحرب بشهر. وكانت النتيجة أنني أُحِلت إلى المحكمة العسكرية بتهمة أنني نازي ضد فرنسا، وأُوقفت مخصصاتي، وأجبرت على الإقامة وعدم السماح لي بالسفر حتى تنتهي التحقيقات التي أجراها الأستاذ ماسينيون المسؤول عن القضايا الخارجية، وأسفرت – كما قال لي ماسينيون – عن أنني ضد الانتداب والحكم الفرنسي في سورية، ولكن لم يثبت أي شيء يدل على أنني نازي.

واعتُقِلت في فرنسا أيضاً إثر اصطدامنا بالفرنسيين يوم أعلنوا عن محاضرة في الجامعة بعنوان «سورية أرض فرنسية»، وقد شرحت ذلك بالتفصيل في ص ٤٥ وما بعدها.

أما الاعتقالات التي تعرضت لها في سورية، فأولها كان يوم تأليفي الوزارة عقب اصطدام أديب الشيشكلي بحزب الشعب، وقد سبق بسط ذلك في ص ١٣٦ وما بعدها وص ١٥١ وما بعدها. واعتقلت مرة ثانية في عهد الشيشكلي، لأنه كان يفاوضني في السجن وخارجه، ولا يسمع مني إلا: أنا آخر من يتعاون معك، إلا إذا رددت السلطة إلى الشعب وأجريت انتخابات. وأذكر أنه أرسل إليّ عبدالحق شحادة ليفاوضني، ويعرض عليّ المركز الذي أريده، وأنه سيحقق الوحدة العربية. وكان جوابي هو هو، واعتقلت في الصباح للمرة الثانية واستمر الاعتقال عدة أشهر.

وفي عام ١٩٦٢ بعد الانفصال اعتقلت مرتين: مرة بعد تأليفي الحكومة وتركيز الأوضاع، وتدبير السلاح كما بسطت ذلك في ص ١٦٨ وما بعدها. ولم يكن لدينا في ذلك الوقت سلاح، وتهدِّدنا إسرائيل. فلما دبّرنا أمر السلاح، ووقع الهجوم علينا، وكبّدنا إسرائيل خسائر فادحة، وربحنا المعركة، كانت مكافأتنا الانقلاب علينا، والاعتقال. ولم يفرج عني إلا بعد تشكيل حكومة برئاسة بشير العظمة. وفي سنة ١٩٦٣ حدث الانقلاب الثاني، ولم أكن في الحكم ومع ذلك اعتُقِلت، ولبثت في السجن إلى سنة ١٩٦٤، فأُفرِج عني، وأُخرِجت خارج البلاد.

س **كيف كانت المعاملة في السجن؟**

= لم يكن هناك تعذيب. لكن كل وسائل الضغط موجودة. فغرفة الزنزانة التي كنا ننام فيها تحتوي على المرحاض أيضاً، والمياه تسيل من جدرانها. هي الزنزانة التي وضعوا فيها ميشيل عفلق أيام حسني الزعيم، وطلبوا منه أن يعلن استقالته، فأعلن استقالته من العمل السياسي، وأُفرِج عنه وقد وُضِعت فيها على أمل أن أعلن استقالتي، ولكن الله ثبّتني فلم أستقِل.

٣٣- الوحدة بين مصر وسورية

س ننتقل الآن إلى مرحلة جديدة هي مرحلة الوحدة بين مصر وسورية، وما كان لكم فيها من آراء ومواقف.

= كان نجم جمال عبدالناصر في صعود ولا سيما بعد تأميم قناة السويس، وبعد خروجه من العدوان الثلاثي على مصر من إسرائيل وإنكلترا وفرنسا، فقد وصلت شعبيته في تلك الفترة إلى القمة، وقد شجعته هذه الشعبية على تأليف مجلس الشعب، فألفه، ودُعِيَتُ لجنة الشؤون الخارجية في المجلس النيابي السوري، وكنت أحد أعضائها، دُعِيَتُ للاشتراك في حفلة الافتتاح. وكلفتني الأحزاب السورية بمفاوضة جمال عبدالناصر من أجل إقامة نوع من التعاون والاتحاد بين البلدين. وكنت رئيس الوفد الذاهب إلى مصر، فأرسلت إلى جمال عبدالناصر بوساطة وزير الإعلام عبدالقادر حاتم الذي كان يرافقنا على أنني مكلف من المجلس النيابي السوري بمختلف هيئاته وأحزابه أن أدخل مع جمال عبدالناصر بمباحثات تدور حول التعاون بين سورية ومصر.

وكان هذا بعد حفل افتتاح مجلس الشعب الذي ألقيتُ فيه كلمة باسم سورية، تحدثتُ فيها عن الشعور الأخوي المتبادل بين البلدين الشقيقين، وذكرتُ أن ما من أحد كان يتحسس ما تعانيه مصر من احتلال الفرنسيين لها غير سورية، إذ أقدم الطالب الأزهري سليمان الحلبي على قتل كليبر، مقدماً البرهان على الوحدة السورية المصرية في الأهداف والمشاعر منذ أقدم الأزمان. وكان لهذه المعاني أثر طيب في نفوس الحاضرين. وأجابني عبدالناصر بوساطة عبدالقادر حاتم أنه بعد انتهاء مراسيم افتتاح مجلس الشعب سيستريح أسبوعاً في برج العرب على حدود ليبيا، وأذهب إلى هناك

لنمضي نهاراً معاً نبحث في الموضوع، على أن آتي وحدي. فأنهينا البرنامج الذي كان مهيّأً لنا. وفي يوم السفر ودعت عبدالقادر حاتم مشعراً إياه بانتهاء زيارتنا الرسمية، وكذلك أعضاء اللجنة أشعرتهم بسفري، وأسررت لعبدالوهاب حومد فقط بأن يخبر رشدي الكيخيا بأنني بقيت هنا بناء على طلب الرئيس عبدالناصر لإجراء مباحثات حول كيفية التعاون بين سورية ومصر.

ذهبت إليه في برج العرب، وذكرت له الدواعي الملحّة لإيجاد تعاون بين بلدينا، في أمور الدفاع والسياسة الخارجية؛ بحيث تكون سياسة البلدين واحدة؛ لأن مصيبتهما في إسرائيل واحدة، وقلت له: أنتم على جانب من حدود إسرائيل، ونحن على جانب؛ فالخطر علينا واحد، وهذا يوجب علينا أن تكون سياستنا الخارجية واحدة، وجيشنا بقيادة واحدة. فقال: نبدأ بتعاون اقتصادي وثقافي قبل ذلك. قلت: هذا غير ممكن؛ لأننا قبل بضعة أشهر، وبعد تأميم قناة السويس، استجبنا لاندفاع الناس وطلبهم إقامة اتفاقية ثقافية، فوُضِعت الاتفاقية الثقافية، وصدقنا نحن عليها، وأنتم لم تصدقوها؛ لأن وحدة الثقافة تتطلب كتب تدريس واحدة، وأنتم قائمون على الحزب الواحد، ونحن قائمون على تعدد الأحزاب؛ ولذلك وجدتم وحدة الثقافة والبرامج التعليمية غير ممكنة، فتوقفتم عن تصديقها. والآن تضيفون إليها الوحدة الاقتصادية، وهي غير ممكنة أيضاً؛ ذلك أن الحد الأدنى لأجرة العامل عندنا عشر ليرات، أي جنيهان، في حين الحد الأدنى عندكم لأجرة العامل ربع جنيه، وعندنا مصانع للغزل والنسيج، وعندكم مصانع للغزل والنسيج، ولكن بضاعتنا أعلى؛ لأن تكلفة الإنتاج عندنا أعلى. فاذا ما تمت الوحدة الاقتصادية كنا أمام أحد أمرين، إما أن ترفعوا الأجور وترفعوا ثمن البضاعة، فتقوم عليكم ثورة في البلد، وإما أن نخفض نحن الأجور، فتقوم علينا الثورة. فكما أنكم رفضتم

الوحدة الثقافية؛ لأن عندكم حزباً واحداً، وعندنا أحزاب متعددة. كذلك الوحدة الاقتصادية غير ممكنة للتفاوت الذي ذكرناه في الأجور والأسعار. إنما الممكن سياسة خارجية واحدة؛ لأن مشكلتنا السياسية واحدة، وكذلك نفعل في الدفاع، فنشكل مجلس اتحاد عسكري وسياسي، وتبقى وزارة الخارجية تحت تصرف مجلس الدفاع عندنا وعندكم. ووزارة الدفاع تتلقى أوامرها من مجلس مشترك. إنه نوع من الاتحاد، ولكن في وزارتين فقط. فرفض جمال عبدالناصر ما عرضته. وبلغت النتائج الجيش، وكان على رأسه عفيف البزرة الشيوعي، وعرفوا أن عبدالناصر لا يريد الوحدة السياسية ولا الوحدة العسكرية، وقد سبق أن رفض الوحدة الثقافية.

ولكي لا يتركوا أنفسهم دون إعلام وضجيج أرسلوا وفداً سرّياً بعد عودتي، ورحوا يطلبون من عبدالناصر وحدة كاملة، على أمل أن يرفضها. وهنا جرت اتصالات وجدّت عوامل غيّرت النتائج وقلبت المعادلة رأساً على عقب. منها الاتصالات التي جرت بين عبدالناصر وأمريكا، ومنها تكليف أمريكا لكلٍّ من تركية والعراق بعمل انقلاب في سورية لإزالة عفيف البزرة والاتجاه الشيوعي الذي يرأسه في الأركان، على ألا يمسوا ميشيل عفلق ولا صلاح البيطار ولا أكرم الحوراني بسوء. وقد بادرت تركية بحشد قواتها على حدود سورية وكذلك حشدت العراق، وبدأت سورية بحفر الخنادق. وهذا ما أكده لي وزير الخارجية العراقي برهان الدين باش أعيان، أن الحكومة الأمريكية أرسلت مندوباً عنها إلى استانبول وهو السفير فوق العادة (أندرسون)، وطلبت من تركية والعراق بوصفهما عضوين في حلف بغداد، أن يجتمع وزيرا خارجيتهما في استانبول ليتسلما رسالة سرية من الرئيس الأمريكي آيزنهاور، تتضمن العمل على القيام بانقلاب في سورية لإزالة الشيوعية التي بدأت تتسرب إلى

الجيش السوري عن طريق القائد العام ورئيس الأركان الشيوعي عفيف البزرة. وهكذا جرى التحرك الأجنبي بعد ذهابي وطلبي الاتحاد السياسي والعسكري الذي رفضه عبدالناصر. ولما جاء الوفد العسكري السوري يطلب وحدة كاملة، دولة واحدة، وعلماً واحداً، ووزارة واحدة، وهو يعتقد أن عبدالناصر سيرفض، كما رفض الاتحاد السياسي العسكري الذي طرحتُه، فوجئ بقبول عبدالناصر لهذه الوحدة بشرط إلغاء الأحزاب وعدم تدخل العسكريين في السياسة ومن أحب أن يعمل في السياسة من العسكريين، فعليه أن يخرج من الجيش. وقال العسكريون: نوافق على ذلك، وقال عفيف البزرة: أنا لا أشتغل في السياسة وأبقى في الجيش. وأبقاه عبدالناصر قائداً للجيش ورئيساً للأركان، وبعد مدة عزله. ومن هنا كنا نحدس أن شيئاً ما حدث فجعل عبدالناصر يقبل من العسكريين ما رفضه مني، بل يقبل منهم أكثر مما طلبته، فأنا طلبت اتحاداً في وزارتين فقط، فرفض، وجاؤوا هم مستغلين رفضه فطلبوا وحدة كاملة ليحرجوه ويحرجونا أيضاً. فالأمور كانت تُطبَخ في سرية تامة من الأمريكان، كما أكّد ذلك كوبلاند في كتابه الجديد (لاعب اللعبة) الذي أصدره في الصيف الماضي في ١٩٨٩/٥/١٥.

س هل تم لقاء بينكم وبين عبدالناصر بعد ذلك؟

= لم يحصل لقاء، بل مكاتبة، أو نقل أفكار بوساطة؛ ذلك أن الوحدة تمت باستفتاء وافقت عليه كل الأحزاب بقصد التخلص من الشيوعية وعفيف البزرة، فحلّت الأحزاب نفسها، وجاء عبدالناصر وتعاون مع حزب البعث، وألف الحكومة منهم، ورفضنا عندئذ الدخول في الانتخابات. ولما أعلن التأميم كتبت له: لقد أخطأت في عملية التأميم في سورية؛ لأنها أضرّت بأصحاب رؤوس الأموال الصغيرة التي يملك ٨٠٪ منها الأيتام والأرامل والفقراء المساهمون؛

فشركات الإسمنت والغزل والنسيج معظم أسهمها للطبقات الشعبية، فكأنك أممت أموال الفقراء. والحال يختلف في سورية عنه في مصر؛ فعبود باشا عندكم يملك ثورة لا تملكها الفعاليات الصناعية كلها عندنا. وكانت بيننا ثورة كلامية، دعاني على إثرها فاعتذرت. وكان هناك خلاف حول قلب مشيخة الأزهر إلى جامع أزهري، والعلماء غير راضين، فصدر مرسوم بدعوة لجنة من جامعة دمشق، فيها أحمد السمان ومصطفى الزرقا ومصطفى السباعي وأنا. وفي المطار استقبلني عبدالله العربي مندوب وزير الاقتصاد حسن عباس زكي، وقال: لقد استدعيتم بهذا الشكل لجلبك مع اللجنة؛ لأن عبدالناصر دعاك قبل هذه المرة فاعتذرت. وأنتم مدعوون الآن للمذاكرة مع حسن عباس زكي لتعديل قوانين التأميم. فقلت: لا فائدة الآن، فالنقمة عامة، والناس لم يصدقوا، ولقد ذكرت لعبدالناصر أنكم لن تستطيعوا أن تتمّوا هذه السنة في سورية. وفي المساء اجتمعتُ بحسن عباس زكي في بيته وكنت وحدي، فطلب مني المذاكرة في موضوع تعديل قوانين التأميم، فقلت له: أعتقد أن الوقت قد فات. قال: هذا بدء الحديث على كل حال، وسنكمله غداً في الجلسة الثانية.

وفي الليلة نفسها كنا ساهرين في الأزهر. وامتدت سهرتنا حتى الثانية عشرة مع الأستاذ السباعي والأستاذ الزرقا والأستاذ أحمد السمان. وبعدها توجهت إلى الفندق، وفي الساعة الثانية ليلاً رن جرس الهاتف. وإذا حسن عباس زكي يقول: هل سمعت الإذاعة؟ قلت: لا. قال حدث عندكم انقلاب، كما كنت تتوقع، والآن طلب مني الرئيس ضرورة الاجتماع بكم مساءً، وأكد على ذلك. قلت له: لم يعد هناك فائدة. وجاء نهاد القاسم، وكان وزيراً، وقال: طلب منا جمال عبدالناصر أن نستعد للسفر، وتستعد الطائرات والأسطول

لاسترجاع سورية بالقوة. فقلت له: أبلغ عبدالناصر أننا قدمنا له سورية هدية فلم يستطع المحافظة عليها، وأنا متأكد أنه يستطيع استعادتها بالقوة، ولكن على دماء أبنائها، وإذا استعادها بالدماء فمن الصعب بل من المستحيل أن يحافظ عليها، لقد أخذها دون دماء، فلا يحاول أن يستردها بالدماء. أبلغه أنه يجب أن يعترف بالانقلاب الذي تم. فقال نهاد القاسم: أنا لا أنقل هذا الكلام إليه، ولا أريد أن يُنقَل شيء عن لسانك إليه. وقابلتُ حسن عباس زكي وقلت له: أنا كلّمت نهاد القاسم بأن يحمل رأيي لجمال عبدالناصر فأبى. فاذهب أنت وقل لعبدالناصر بجرأة ما قلته أنا لنهاد القاسم، وسردته عليه، وقل له أيضاً: الأفضل أن يعترف بالانقلاب ويقول: نحن قد أسأنا ووقعت منا أخطاء، فلتأخذ سورية مكانها وحريتها، وبذلك يمكن أن تعود الوحدة وتستمر. وبعد قليل أذيع نداء في الإذاعة إلى الشعب يدعوه إلى اجتماع في ساحة التحرير يوم الجمعة. وجاءني علي بوظو وهو من حزب الشعب إلى الفندق، وجلسنا نستمع إلى خطاب عبدالناصر بعد صلاة الجمعة في ساحة التحرير، فإذا هو يقول: إن واقع الأمر أن هناك أخطاء وقعت منا، يجب أن نعترف بها، ولذلك نرد إلى سورية حريتها ومكانها في الجامعة العربية، وسيادتها في الخارج. وكان نهاد القاسم معنا أيضاً، فقلت له: اسمع، هذا ما أرسلته إلى عبدالناصر بوساطة حسن عباس زكي.

٣٤- حكومات بعد الانفصال

وبعد الانقلاب بأربعين يوماً أُلفت وزارة الكزبري، وجاءت بعدها حكومة عزت النص، ثم جرت الانتخابات، ولم ندخلها على أساس حزب الشعب، وإنما ألّفنا قائمة مشتركة من حزب الشعب والحزب الوطني والمستقلّين. وألّف الإخوان المسلمون

قائمة مستقلة، فيها أعضاء مسيحيون، وقد نجح منها الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة والأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا.

س هل شكلتم أنتم الوزارة؟

= نعم، شكلت الوزارة وكان فيها الأستاذ الزرقا وزيراً للعدل.

س كم بقيت هذه الوزارة؟

= بقيت ثلاثة أشهر، وأعادت فيها الأوضاع إلى ما كانت عليه، وألغت التأميم، وتَسلَّحتْ على النحو الذي ذكرته في ص ١٥٨ وما بعدها، وكانت معركة الجولان التي انتصرنا فيها، وكوفئنا بالانقلاب.

س ما هي الحكومات التي قامت بعد وزارتكم؟

= جاء بعدي بشير العظمة، صاحب الاتجاه اليساري القريب من الشيوعية. وكان عصام العطار يهاجمه من على منبر مسجد الجامعة، وكان الجو متوتراً بين أكرم الحوراني وعصام العطار، وينظر إليهما الناس على أنهما قطبان سياسيان. ثم قام انقلاب ناصري بعثي على حكومة بشير العظمة، وكنا نحن في السجن إثر الانقلاب الذي صار علينا، ولم يخرجونا إلا بعد مضي نصف مدة بشير العظمة، وكنا تحت المراقبة لا نقوم بأي نشاط. وبعد حكومة بشير العظمة تألفت حكومة خالد العظم، وكنا بدأنا بنشاط جديد، نجمع الأحزاب والهيئات، لتقف موقفاً موحداً. ولم نشعر بعد فترة إلا بانقلاب بعثي على خالد العظم الذي لجأ إلى السفارة التركية، واعتقلوني أيضاً.

٣٥- أوليات التسلّح في الشرق الأوسط

س هل لك أن تحدثنا عن أوليات التسلح في الشرق الأوسط؟

= هناك أوليات في الشرق الأوسط، يعود التسليح فيها إلى سورية، وإنني بدأت فيه؛ ففي نهاية الحرب العالمية الثانية، وبوساطة الحاج أمين الحسيني أتيت برجال يصنعون الصواريخ في ألمانيا، وعرضتهم على شكري القوتلي، وهؤلاء هم الذين كانوا يصنعون الصواريخ في برلين، ثم طوروها وأنتجوا صواريخ متطورة. ثم ضربت المعامل، وانتهت الحرب، وأمكن تهريب سبعة عشر رجلاً من هؤلاء إلى سورية، وعقدنا اتفاقية معهم في بيتي لتصنيع صواريخ لحساب سورية، وكانت أمريكا لا تملك هذه الصواريخ ولا الاتحاد السوفيتي، وكانوا يفتشون عن هؤلاء الخبراء الألمان، الذين كانوا يكرهون اليهود، ولا يريدون إلا طعامهم وشرابهم ونفقتهم لقاء تقديم خبراتهم، ولما عقدنا الاتفاقية معهم قالوا: لدينا صواريخ أرض أرض موجهة، وأرض جو موجهة، وأرض بحر موجهة. فاخترنا أرض جو ضد الطيران، وقالوا: إن هذا النوع لا يكلف سوى آلات خصوصية، ومئات قطع الغيار، ولدينا مخططات هندسية ومصممات، ولكننا نريد آلات تختبر القطع والأجزاء المعدنية، ومدى تحمّلها للحرارة؛ لأن لها نوعيات خاصة إذا اختلطت بغيرها يفسد الصاروخ.

فأتينا بالآلات التي عينوها، وجاءت قطع الغيار بالمئات وأعطيناهم أرضاً بين القنيطرة وبيروت، وقاعة سينما لإجراء التجارب وركّبوا منها ٢٥ صاروخاً. ولما أجريت التجارب صار الانقلاب عليّ في أول حكومة لي ودخلت السجن، وما كنا نعلم أن أديب الشيشكلي داخل في الـ CIA. لقد سلمنا هؤلاء الخبراء كل ما يحتاجونه لإنتاج الصواريخ، وقالوا لنا: أنتم مسؤولون عن أسرارها، لأنها أسرار لا يعرفها الأمريكان ولا السوفييت، وهم يفتشون عنا.

وفي سنة ٥٣ أو ٥٤ في شباط طُرِد الشيشكلي وهرب، وأصرّ هاشم الأتاسي على أن أكون وزير دفاع، وأول شيء فعلته أنني سألت شوكت شقير عن الخبراء، فقال: كذّابون، هربوا، ولم يبق منهم إلا الرئيس، فجئت بالرئيس وسألته عن الخبراء، فقال: كيف هربوا؟ لم يهربوا، وإنما بعد اعتقالك جاء الجنود وفتشوا بيوتنا وأخذوا كل الوثائق، مع أنه لا يوجد عندكم مهندس واحد يفهم شيئاً عن الوثائق؛ ولذلك جئت وسفّرتهم بعد أن أجرينا التجارب. فجئت بشوكت شقير وسألته هل أجريت التجارب؟ قال: ليست ناجحة، قلت: نسأل رئيس الخبراء، فقال رئيس الخبراء: عندنا ١٥ صاروخاً من أصل ٢٥، وأنا أطلب استمرار التجارب، فأصررت على إجرائها. فحاول شوكت شقير أن يثبّط الخبير بقوله: إن هذه التجارب خطيرة، فقلت: أنا الذي جئت بالصواريخ، وسأجربها، وليقف غيري بعيداً عن الخطر.

وكلفت الخبير بالذهاب إلى الوادي الذي فيه المعمل، وذهبت ومعي شوكت شقير، وكان رئيس الأركان، وأنا وزير الدفاع، فدخلنا موضع التجارب الذي هو قاعة سينما، وبدأ العمل، ورأينا كيف تطلق من الأرض وكيف تلحق بالطائرة، مرة إلى اليمين، وأخرى إلى الشمال، وأخذوا على التجارب فيلماً تبين منه أن التجارب ناجحة، وعندئذ أطلقوا صاروخين، وهذا كله بالاتفاق مع الجيش السوري. ورأينا الصاروخ كيف يتفجّر، وزعم شوكت شيقر أنها تنجح لأول مرة. فقلت: هل هذه أول مرة تنجح فيها التجارب؟ فأجاب الخبير رئيس التجارب: كيف تكون هذه أول مرة؟ الأفلام موجودة وكلها تثبت نجاحها. إذا كانت ليست ناجحة كما يقول لك شوكت شيقر، فكيف يبيع أسرارها إلى شركة (سبانسيفر)، وهي أشهر شركات السلاح دقةً وإتقاناً؟ فذهبت إلى وزارة الدفاع، وزرت شوكت شقير، وقلت له: أنت قلت لي الصواريخ ليست ناحجة،

وقد تبين أنها ناجحة، وأنك ذهبت تبيع أسرارها إلى شركة (سبانسيفر)، فهل هذه الشركة الكبرى تشتري سلاحاً غير ناجح؟ فاحمر وجهه، حتى صار كلون الطربوش الأحمر، وقال: يا سيدي أنت أمسكتني بحملي، نعم أنا ما عرفتها، لأنها تكلفنا كثيراً، فقلت نبيعها ونكسب أموالاً، فقلت له: من أنت حتى تبيعها؟ أنت رئيس أركان. هل أخذت موافقة رئيس الجمهورية؟ فقال: لا، وقمت منصرفاً، وفي الليلة ذاتها صار عليّ انقلاب، ودخلت السجن.

لم نكن نعرف من هو أديب الشيشكلي، ولا من هو حسني الزعيم، ولا من هو شوكت شقير! أول ما دخلت الصواريخ إلى سورية، وأول معمل دبابات أنشئ فيها أيضاً، وأذكر أنني اشتريت معمل دبابات لسورية سنة ١٩٥١. ثم دخلنا المعتقل. وبعد خروجي من المعتقل أُخرِجتُ خارج الحدود، ثم هرب أديب الشيشكلي في الانقلاب الذي صار عليه، وجئنا بعد ذلك وألفنا حكومة، وأول شيء فعلته أنني سألت عن الصواريخ وعن معمل الدبابات، فعلمت أن هذه المعامل يشغلونها لصنع صنابير الماء.

لقد تمكّنا من امتلاك الصواريخ قبل أن تملكها أمريكا والاتحاد السوفيتي، وكذلك الدبابات. وشهد وزير الدفاع المصري مصطفى نصرت بعد الوحدة بأننا سبقنا إلى جلب الصواريخ والدبابات، وكان ذلك في عهد عبدالناصر.

وبقيت هذه الأسلحة في سورية حتى عهد الوحدة. وبعد الوحدة أرسل عبدالناصر خبراء إلى سورية للعمل على توسيع الإنتاج. ولما صارت في حوزة عبدالناصر الصواريخ، وأعلن هجومه على إسرائيل، أعلن أسماء الصواريخ التي أطلقها: الناصر والظافر والقاهر. ولقد رددتُ عليه قائلاً: هذه الصواريخ جلبتها أنت من سورية.



القسم الثاني

المرحلة السعودية

المرحلة السعودية

٣٦- الخروج إلى المملكة العربية السعودية

س **متى خرجتم من سورية إلى السعودية؟**

= كان خروجي بعد الانقلاب البعثي، وخروجي من السجن في سنة ١٩٦٤، بناء على طلب أمين الحافظ رئيس الدولة آنذاك، أن أخرج إلى لبنان، ولا بد لي من القول: إن أمين الحافظ كان معي شهماً، زارني في المعتقل عدة مرات، وهو رئيس جمهورية، ولا أدري ما دار بينه وبين رفاقه بشأني.

وصدر قرار بإطلاق سراحي، وبعد أيام دعاني إلى زيارته في القصر الجمهوري، وقال: يا أخي إنك لتعلم أني لم أقصّر معك، وعملت جهدي لأطلق سراحك، وأنت لا تكف عن مهاجمة ميشيل عفلق، فقلت له: يا سيادة الرئيس، أنا لا أتكلم إلا بالكلام المباح. فأنا طلبت نسخة من القرآن الكريم وأنا في زنزانتي في المعتقل، فأحضروا لي نسخة من كتاب عفلق الجديد(في سبيل البعث»، فقرأته ودونت الملاحظات التي تلفت النظر، وأنا في حديثي عنها أساعدكم في نشر المعلومات التي أوصلتموها إليّ. وأعطيته نسخة من تلك الملاحظات، وقلت له: هذا الذي أقوله وأنشره، لا زيادة فيه ولا نقصان، وما أتيت بشيء من عندي. وكان ميشيل عفلق في غرفة مقابلة للغرفة التي نجلس فيها، والأبواب مفتوحة، وقد أجلسني مقابل الباب، وكأن ميشيل عفلق أقبل

يريد الدخول إلى غرفتنا، فلم ألتفت إليه، وعرفت أن أمين الحافظ كان يريد أن يجري بيننا مصالحة، فقلت: لا أحب أن أسلم عليه. فقال: إذاً الأفضل أن تترك هذا البلد، قالها بلهجة التهديد. قلت له: سأخرج على أن أرجع؛ لأنهم كانوا قاطعين كل صلة بيني وبين ابني محمد الذي يدرس هندسة البترول الصناعية في ألمانيا، وقد قطعت كل مخصصاته، ورسائله لا تصل إلينا، ورسائلنا لا تصل إليه. فقلت أخرج وأجري اتصالات بابني ثم أعود بعد خمسة عشر يوماً وخرجت، ولم يسمحوا لي بالعودة. وهنا تدخّل الملك فيصل؛ إذ رآني خارج حدود بلادي، فأسل لي السفير مسعود الدغيثر، وكان ذلك في صيف ١٩٦٤، إذ استقرّيت في لبنان، بعد أن نودي بفيصل ملكاً.

وصادف أن الحاج أمين الحسيني دعا إلى مؤتمر مقديشو في العالم الإسلامي في أواخر كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٤، أيام حكم رئيس جمهورية الصومال آدم عثمان الذي كان من رجال التحرك الوطني في إفريقيا، وكان في تنظيمات قبل الاستقلال نائب رئيس المؤتمر عن إفريقيا. ولذلك لما استقلت الصومال دعا إلى عقد هذا المؤتمر ليكون في ضيافته. فذهبنا إلى الصومال، وكان المدعوون من كبار الشخصيات، يشكون مما ابتُلِي به المسلمون من استعمار وتبشير وفقر وجهل، وليس ثمة من يحس آلامهم أو يسأل عنهم. وجاء دوري في الكلام فقلت: إني لأجد أنفسنا أمام جدار المبكى، ونجد عنتاً ومشقة في الاجتماع لبحث شؤون المسلمين، فيجب أن نعمل على إجبار رؤساء الدول الإسلامية على الاجتماع ليسمعوا ما سمعناه من سوء أحوال المسلمين، وإن البترول في المناطق العربية بدأ يتدفق ويدرّ الخيرات، وسيفيض قريباً عن حاجتنا، فيجب أن نؤسس مصرفاً للتنمية. ونجمع الأموال لصرفها في تنمية المناطق التي بحاجة إلى التنمية، وتبقى هذه الأموال رصيداً دائماً لتنمية الوطن

العربي. إن الحكام لا يجتمعون في مؤتمرات القمة إلا إذا كانت لهم مصالح. أما مصرف التنمية والاستثمار فلا يستفيد منه إلا من يشترك في الجانب السياسي. والمصرف مستقل تماماً، يقدم لكل دولة حاجتها من المال، فيُوظّف في مشاريع استثمارية، وتردّ الدولة الأصل مع جزء من الأرباح. ونحن بحاجة أيضاً إلى وكالة أنباء عالمية؛ إذ العالم محكوم بخمس وكالات للأنباء هي: رويتر، فرانس برس، يونايتد برس، أسوشيتد برس، تاس الشيوعية. والأربع الأوائل وراءها يهود. وكل هذه الوكالات تذيع وتنشر ما يضرّنا، وتسكت عما ينفعنا. فيجب الضغط على الدول العربية والإسلامية للدعوة إلى تنفيذ هذا الاقتراح. فقام آدم عثمان وقال: أنا بصفتي رئيس دولة أتبنى الدعوة إلى الأخذ بهذا الاقتراح. ودعاني والحاج أمين الحسيني إلى اجتماع خاص وقال: نحن دولة فقيرة نالت استقلالها من قريب، وإمكاناتها محدودة. والآن نودي بفيصل ملكاً على العربية السعودية، فأرى أن يُعرض الاقتراح على فيصل ليتبنى الدعوة إليه، فهو أقوى وأقدر، فقلنا: لا مانع. وأبرق إلى الملك فيصل في الموضوع، فطلب فيصل أن يمر به كلٌّ من الحاج أمين الحسيني ومعروف الدواليبي.

ولما قابلناه قال: أنا على استعداد لتنفيذ هذه الأمور شريطة أن تبقى هنا في المملكة. قلت له: يا جلالة الملك، كنت بعثت إليكم في سنة ١٩٦٣ مع سفيركم عبدالرحمن الحميدي مبيناً المؤامرات التي تحاك حولكم. وقصصت عليه حديثي مع السفير الروسي وردّ خروشوف مفصّلاً كما سبق في ص ١٦١، وفيه: «أنا لا أثق بعبدالناصر، أنا أثق بحيادك، أنت خائف على دولة الإيمان من دولة الإلحاد. أخبرك أن أمريكا اتفقت مع عبدالناصر أن يحتل اليمن والسعودية والأردن وسورية ولبنان». فقال فيصل: أنا لا أسمع الكلام. وإني أتعاون وإياك وتنفذ ما ييسره الله. وتعاونّا وقمتُ بتحركات خاصة أزالت

العوائق، وهيأت الموقف الدولي تجاه أمريكا، إذ كنتُ أثناء حكمي على تفاهم مع كنيدي الذي قُتِل بسبب هذا التفاهم. وجاء بعده جونسون، وكان يعرف رأيي. وكان لابد من التفاهم مع جونسون لنضمن جانب أمريكا قبل أن يقوم الملك فيصل بتحركاته. ولذلك قلت للملك فيصل: إن تحركك تحرك إسلامي سيغضب اليهود والدول العلمانية، وسيعملون جميعاً على إحباطه.

وقمت برحلة سرّية إلى بيروت قابلت فيها مندوب جونسون، وأفهمته خطر الشيوعية على المنطقة، وجونسون يعرف أنني ضد الشيوعية، وأعطيته معلومات خطيرة جداً، ما كان مطلعاً عليها، وبينت له أن لا أحد يستطيع أن يقف أمام المدّ الشيوعي إلا الإسلام؛ وإذا كان هناك خمس مئة مليون صيني قد صاروا شيوعيين الآن، فنحن لدينا ٦٠٠ - ٧٠٠ مليون مسلم من أندونيسيا إلى الرباط شرقاً وغرباً، ومن جنوب إفريقيا حتى أواسط روسيا، يمكن أن يقوموا بتحرك إسلامي يقف في وجه الشيوعية. ثم أعطيته معلومات عن التحرك الشيوعي وانتقاله إلى البحر الهندي، وضم زنجبار الإسلامية إلى نيريري الشيوعي، وهي قاعدة للجيش السوفيتي ضد دول البترول، وهذا ما لم يكونوا متنبهين إليه من قبل، فأُعجِب بكشف هذه المخاطر، وقال: ما العلاج؟ قلت: العلاج أن نقوم بتحرك إسلامي. ولكننا إذا قمنا بهذا التحرك نخشى أن تقولوا: إسلام، وفتح إسلامي، ويتحرك اليهود ليشوّهوا تحركنا. ولذلك نحن لن نتحرك إلا إذا أدركتم واقتنعتم أنكم تستفيدون من تحرّكنا، ونحن نستفيد منه أيضاً. وذهب المندوب، وعاد ليقول: نحن معك في هذه الفكرة، ولكن نريد أن نعرف شخصاً يقوم بهذا التحرك الإسلامي؛ فنحن لا نستطيع القيام به، ولا نرى أحداً جديراً بحمل هذه الفكرة. قلت له: نستعرض رؤساء الدول من الرباط إلى أندونيسيا. كل حاكم نشاطه مقتصر على إقليمه. إلا المملكة

العربية السعودية، فإذا استطعنا إقناع عاهلها كان ذلك نجاحاً لمشروعنا؛ فهو يمتاز على غيره بوضعه الجغرافي ووضع دولته الإسلامية؛ فالناس يَفِدون إلى الحج من مشارق الأرض ومغاربها، وبحكم هذا الموقع الجغرافي لا يوجد غير السعودية. ولكن هل تقبل؟ وقلت له: أنا لا أستطيع أن أفاتح أحداً إلا بعد أن تقولوا: نعم، حسبي أنني عرضت عليكم الفكرة، وهي العلاج الناجع أمام الشيوعية. ولم أقل له: فيصل هو الأجدر والأصلح، فقال: نحن موافقون. عندئذ ذهبت إلى فيصل، وقصصت عليه ما دار بيني وبين مندوب جونسون من أحاديث. واقترحت عليه أن يبدأ بغير العرب. فلما دعي لتنفيذ الفكرة قام بزيارة إيران، وأحدثت زيارته ضجة وتحركاً إسلامياً، ولأول مرة خطب فيصل في الدعوة الإسلامية، وكان الشّاه ليس بعيداً عن الفكرة وتأثّر بها، ولاقت دعوة فيصل ارتياحاً لدى المشايخ وثناءً ثم زار تركية، ودخل إلى إفريقيا في حين كان جمال عبدالناصر يضع في جدول أعمال الوحدة الإفريقية قضية فلسطين فتحذف بمساعي أمريكا واليهود. فلما فهمت أمريكا أن الإسلام هو الذي يقف في وجه الشيوعية أزالت العقبات من طريق المسلمين، وسمحوا لفيصل أن يتحرك ويدخل إفريقيا.

وذهب فيصل إلى إيران وتركية، ثم زار جونسون، وتكريماً له لأنه قام بهذا النشاط عزل جونسون كل العناصر اليهودية من السي آي إي، ولما أراد التحرك في إفريقيا بدأ بمقدمات فأرسل رسائل إلى دول إفريقيا، ثم قام بجولة فيها، وما كاد ينتهي من جولته التي استمرت شهراً حتى سحبت خمس وأربعون دولة إفريقية اعترافها بإسرائيل، في حين ما كان جمال عبدالناصر يستطيع إدراج قضية فلسطين في جدول أعمال الوحدة الإفريقية. وهذا مع تحريك اليهود لأمريكا ومقاومتهم لمساعي الملك فيصل.

٣٧- مع الملك فيصل

س ماذا تذكرون من ملامح شخصية الملك فيصل رحمه الله، ودعوته للتضامن الإسلامي وانعكاساتها، وموقفه من كسينجر حينما طاف بالبلاد العربية.

= لقد أظهرت لي المدة التي قضيتها معه - رحمه الله - أنه كان رجلاً مسلماً متفهماً أوضاع المسلمين، بعيداً عن المظاهر وحب الدنيا والزعامة والرئاسة، كانت دعوته لي إلى المملكة بإلحاح صادق، واتجهنا بعد مجيئي إلى تقوية جهاز الديوان الملكي وإقامة نظام شورى إسلامي، يشترك فيه الشعب في التعبير عن رأيه، وذلك بوضع دستور، وكان يمتلئ اقتناعاً بذلك وكان لابد من أن نبدأ أولاً في تنظيم الديوان، وملئه بالأشخاص الأكفاء، ولابد من إيجاد عناصر متعلمة مثقفة؛ لأن الدولة تقوم على بضع عشرة وزارة، وقد تصل إلى عشرين، وهذه الوزارات ترفع تقاريرها إلى الديوان، ولم يكن في الديوان في ذلك الحين العدد الكافي من العناصر الأكفاء، ومن هنا كان لابد من الاستفادة من الفئات العائدة من التعلّم، وفكرت بالاستفادة من أولاد الملك فيصل الذين جاؤوا متعلمين، ولكنهم ينصرفون إلى الأعمال التجارية، فمنعني قائلاً: أنت تريد أن تضع أولادي في الديوان لأنهم متعلمون، ولكن سيأتيني بقية الأمراء مطالبين بوضع أبنائهم كما وضعت أنا أبنائي، وليس كل الأمراء متعلمين، ولذلك كان يلح عليّ ألا يدخل ابنه في الديوان الملكي. وكنت أقدّر أن ابنه سعود الفيصل شاب متعلم، وقد أدى خدمات طيبة على مدى سنوات في وزارة الخارجية، ومع ذلك ما قبل إلا أن يدخل موظفاً تابعاً لوزير البترول.

وإني لأذكر الآن أنه جاء إلى والده في إحدى الفرص الثانوية يستأذنه بالسفر، فانتهره وقال له: أنت لست مرتبطاً بي. أنت مرتبط بوزيرك، اذهب

فاستأذنه. فقال: يا سيدي الوالد، أنا استأذنت وزيري، ولكن ألا يتوجب عليّ أن أستأذن والدي أيضاً؟

كانت فكرة النظام والتعفّف وتقويم كفاءة المتقدم لاستلام الوظيفة، بحيث لا يصل إليها إلا من يستحقها، كان هذا كله من أبرز صفاته وتصرفاته. يضاف إلى هذا إيمانه وتضحياته وتفانيه في خدمة الإسلام والمسلمين. ولقد عرفته في المرحلة التي تجاوز فيها السبعين من العمر مثلاً نادراً في عصره، تحمّل كل الصدمات التي واجهته في الدعوة إلى التضامن الإسلامي بعد أن وافق على تحمل مسؤولية هذه الدعوة، وكانت الشيوعية ضده وعبدالناصر ضده، وكنا نخشى قبل البدء من مؤامرات الغرب واليهودية العالمية المؤثرة على أمريكا، وكانت المصلحة تقضي أن نزيل العقبات، وتمكّنا بوسائل مشروعة وطيبة أن نزيل العقبات ونتجنب الحماقات التي كان يمكن أن تثيرها إسرائيل في الجانب الغربي، وكان الموقف صعباً.

ولذلك ركّزنا على الناحية الخطيرة، وهي الانقلابات اليسارية كلها. والاشتراكية كانت في ظاهرها من أجل إنقاذ فلسطين، وكلما انتشرت الاشتراكية ذهب جزء من فلسطين، حتى ذهبت كلها، وكل ذلك بفضل الشيوعية، فلابد من إعادة الروح الإسلامية، وهذا ما كان يفعله الرجل مندفعاً إليه بصدق وأمانة وإخلاص، وبكثير من الروية والحكمة حتى إنه استطاع بجولته الإسلامية في إفريقيا أن يحمل خمساً وأربعين دولة فيها على سحب اعترافها بإسرائيل، في الوقت الذي ما كان عبدالناصر يستطيع أن يضع قضية فلسطين في جدول أعمال منظمة الوحدة الإفريقية. لقد هيأت له الحكمة التي كان يتحلى بها الأسباب، وفتحت له الأبواب، وأزالت الصعاب،

وكان يقابل السيئة التي تُوجَّه إليه من عبدالناصر بالحسنة، فقد كان عبدالناصر يسب ويشتم فيصل بعد حوادث اليمن، وضرب السعودية، ولكن الضربة التي نزلت بعبدالناصر سنة ٦٧ كانت قاسية، فطلب عقد مؤتمر قمة وطلب مساعدات؛ لأنه دون مساعدات لا يستطيع الصمود، وأنا أعرف ولا أريد أن أسمي من كان إلى بجانبه من البلدان العربية عدا المملكة العربية السعودية التي كان يسبّها ويشتمها؛ ولذا كان أول المعتذرين لها.

ومع ذلك قال فيصل لجمال عبدالناصر: أنا مستعد أن أعطيك ما تريد، فدُهِشَ عبدالناصر. وهكذا كان الملك فيصل رحمه الله يتغلب على نفسه ويرجح المصلحة العامة، أما مجيء كسينجر إلى البلاد العربية فكان لاستطلاع آرائها، وإيجاد حل للقضية الفلسطينية بعد صدور القرار (٢٤٢)، ولما قابل فيصلاً كان جوابه: أنا ما عندي حل إلا حق تقرير المصير للفلسطينين، ولو أن الفلسطينيين كلهم قبلوا الصلح ما قبلتُ أن أصالح، لأن إسرائيل خطر على الإسلام والمسلمين. أما حق تقرير المصير فمن حق الفلسطينيين، وأما القدس بصورة خاصة ثالث الحرمين فأنا أطالب بها. وقال له كسينجر: أنا طفت العالم العربي فما وجدت أحداً يذكر القدس غيرك. وكنا نسمع أنه يرجو الله أن يموت شهيداً في سبيل القدس، وقد استجاب الله دعوته وذهب شهيداً رحمه الله. وقد كان عمر (رضي الله عنه) يتمنى الشهادة، فسأله بعض الصحابة: كيف تتمنى الشهادة وأنت أمير المؤمنين؟ وكان أن رُزِق الشهادة. ولقد كان فيصل يتمنى الشهادة في سبيل القدس، فجاءته الشهادة.

إنه رجل نادر في هذا الزمن الأخير. بحسن تدينه ورويته واتزانه، كان جذاباً في حديثه مع مخاطبيه، ما جلس إليه رجل من كبار الشخصيات

الأجانب إلا وخرج متأثراً بشخصيته حتى إنه ليكاد ينقلب شخصاً آخر. ولقد حضرت آخر خطاب له قبل وفاته بسنتين تقريباً بعد حرب ١٩٧٣ لما جاء نيكسون وألقى كلمة في أزمة البترول، وكان الناس متخوفين من منع البترول عن الغرب، قال نيكسون يومذاك: يقول الناس إنني جئت من أجل البترول. نعم، إن لنا مصلحة بالبترول، وأؤكد لكم أنني لن أطب البترول إلا بالسعر العالمي. ولكن الشيء الذي يهمني وجئت من أجله هو أن أقتبس من حكمة هذا الرجل.

لقد ترك الملك فيصل رحمه اللّه في نفسي فكرة واضحة عن زهده في الحكم، والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يشوب عمله بشائبة، وعن تفانيه في خدمة القضايا الإسلامية في كل مكان.

٣٨- الملك فيصل وديغول

س **كنت سمعت منكم عن لقاء الملك فيصل بديغول، واستطاعته أن يغيّر رأي ديفول وموقفه من إسرائيل ودعمها بالسلاح، فكيف توصّل إلى ذلك؟**

= أنا لي تجربة مع ديغول من يوم قضية استقلال سورية، فمع أنه كان محاطاً بعناصر يهودية، ومع أنه ضرب دمشق لم يلبث إذ اطّلع على المذكرة التي قدمتها إليه عن استقلال سورية وأن إعلان هذا الاستقلال في مصلحة فرنسا، لم يلبث أن اقتنع بالفكرة وقلب موقفه رأساً على عقب، كما سبق بيانه في حديثي عن استقلال سورية. كذلك تغير موقفه من الإفراج عن الحاج أمين الحسيني بعد أن اقتنع بصواب الفكرة. فديغول عندما يعرف الحقيقة يغيّر مواقفه؛ ولذلك كنت حريصاً على تدبير لقاء الملك فيصل به، وألححت في ذلك وأصررت.

ولكن كان للملك فيصل وأخيه الأمير خالد آنذاك موقف من ديغول، كانا ينفران من الاجتماع به لسبب، سيأتي بسطه فيما يأتي.

في نهاية الحرب العالمية الثانية دعت أمريكا الملك عبدالعزيز لزيارة الجبهة في مطالع سنة ١٩٤٥، وكانت أمارات النصر واضحة للحلفاء، وما كان الملك عبدالعزيز يحب الخروج من المملكة، فأرسل ابنيه فيصلاً وخالداً، وكانا في الثلاثينيات من عمرهما. فسارا من جدة إلى نيويورك بعيداً عن خطر القتال. ومن أمريكا نزلا إلى إنكلترا فدخلا لندن، وكان في جملة الزيارات زيارة ديغول لما كان في لندن يقود الحرب في باريس بإذاعة خاصة. ولما دخلا عليه مكتبه الصغير حيّاهما وصافحهما في شيء من الجفاء؛ لأنه كان محاطاً بعناصر يهودية تشوّه سمعة العرب، وكان مسيحياً متديناً، يعتقد ديانةً أن اليهود شعب الله المختار؛ ولذلك سلّم الوكالة اليهودية في نهاية الحرب وفي الجبهة الغربية ستين قاطرة من الأسلحة والذخائر قبل أن تقوم إسرائيل، وفتح لليهود مدرسة لتدريب الجنود ومدرسة لتدريب الضباط ومدرسة للبحرية ومدرسة للطيران، وبذلك ساعد إسرائيل قبل أن تنشأ مساعدة قوية عقب الحرب في سنة ١٩٤٥، وإسرائيل قامت سنة ١٩٤٨، ولقد كانت ميوله واتجاهاته مع إسرائيل، يعززها ما كان يحيط به من كبار الشخصيات اليهودية الفرنسية وغير الفرنسية. وكنت أعرف هذا تماماً، وأعرف أن اندفاعه نحو إسرائيل اندفاع عقيدة؛ ولذلك كنت ألحّ على الملك فيصل أن يقابله، ليقيني أن ديغول إذا عرف الحقيقة فسوف يتغيّر. وكنت أريد أن أوجد عند ديغول هذا الاستعداد، وكان قد خرج على الميثاق الأطلسي من الناحية العسكرية كرهاً بأمريكا وإنكلترا، وراح يقوي علاقته بستالين، وينظر إلى العرب أنهم أصبحوا

في جبهة عربية موالية لإنكلترا، والمملكة العربية السعودية على صداقة مع أمريكا، وبقدر انجذابه للشرق كان يكره كل من يتجه أو ينجذب إلى أمريكا.

وكنت أصرّ على فيصل وخالد لتحقيق هذه المقابلة. إلى أن حدثت حوادث ساعدت على ذلك حينما فكر عبدالناصر بحرب سنة ١٩٦٧، وهي الحرب المعروفة بحرب الستة أيام، وانسحب البوليس الدولي، وراح عبدالناصر يمشّي جيوشه في صحراء سيناء، وأخذ الناس يتحدثون عن حرب واقعة ما بين عشية وضحاها، في تلك الأيام وُجِّهت الدعوة لفيصل لزيارة إنكلترا، ومنها إلى بروكسل. وكان ديغول يرى نتيجة المساعي التي بذلتُها ألا تكون دعوة رسمية لفيصل، وإنما يخرج من بروكسل، ويمرّ وهو في طريقه بديغول، فيتغدّى عنده، فرفض فيصل أن تكون زيارته زيارة مرور؛ لأن الناس يتحدثون عن الحرب، وهو في بروكسل، ومن الطبيعي أن يمر به في باريس، وهو في طريقه إلى الرياض، وبذلك تكون زيارة عابرة؛ ولذلك يرى فيصل أن يتجاوز باريس إلى جنيف، ويأتي من جنيف إلى باريس، وبذلك يُقال: إنه مدعوّ، وليست زيارته مروراً عابراً. وهذا الذي تَمّ، فقد جاء من جنيف إلى باريس قبل ٥ حزيران ١٩٦٧، في اليوم الأول أو الثاني منه، وكان اللقاء على غداء فقط. وكان ديغول يراعي الحِمّية في الطعام والشراب والنوم وأوقاته منضبطة محدّدة؛ ولذلك استقبله قبل نصف ساعة من الغداء بالضبط في قصر الإليزيه، وكان مع فيصل الأمير سلطان والدكتور رشاد فرعون. وطلع فوراً إلى اللقاء، رأساً لرأس، ولا يوجد معهما سوى مترجم من عند ديغول قال ديغول: يتحدث الناس بلهجة متعالية أنكم يا جلالة الملك تريدون أن تقذفوا بإسرائيل إلى البحر. إسرائيل هذه أصبحت أمراً واقعاً، ولا يقبل أحد في العالم رفع هذا الأمر الواقع.

فأجابه فيصل رحمه الله: يا فخامة الرئيس، أنا أستغرب كلامك؛ إن هتلر احتل باريس وأصبح احتلاله أمراً واقعاً، وكل فرنسا استسلمت إلا أنت! فانسحبت مع الجيش الإنكليزي، وبقيت تعمل لمقاومة الأمر الواقع حتى تغلّبتَ عليه. وألمانيا تنتهز الفرصة من وقت لآخر لخلافها معكم على منطقة الألزاس واللورين. كلما احتلتها وقف الشعب الفرنسي ينتظر حرباً عالمية ليستعيدها، فلا أنت رضخت للأمر الواقع ولا شعبك رضخ؛ فأنا أستغرب منك الآن أن تطلب مني أن أرضى بالأمر الواقع. والويل عندئذ يافخامة الرئيس للضعيف من القوي إذا احتلّه القوي وراح يطالب بالقاعدة الذهبية للجنرال ديغول أن الاحتلال إذا أصبح واقعاً فقد أصبح مشروعاً.

فدهش ديغول من سرعة البديهة والخلاصة المركّزة بهذا الشكل، وكان ديغول لم يستسلم ويتراجع، وإنما غيّر لهجته متأثراً بما سمع، وقال: يا جلالة الملك، لا تنسَ أن هؤلاء اليهود يقولون: إن فلسطين وطنهم الأصلي، وجدهم الأعلى إسرائيل وُلِد هناك. قال فيصل: فخامة الرئيس أنا من الأشخاص الذين يعجبون بك ويحترمونك؛ لأنك رجل متدين مؤمن بدينك، وأنا يسرني أن ألتقي بمن يخلص لدينه، وأنت بلا شك تقرأ الكتاب المقدس. أما قرأت أن اليهود جاؤوا من مصر غزاة فاتحين، حرّقوا المدن وقتلوا الرجال والنساء والأطفال، ما تركوا مدينة إلا أحرقوها، فكيف تقول إن فلسطين بلدهم، وهي للكنعانيين العرب، واليهود مستعمرون. وأنت تريد أن تعيد الاستعمار الذي حققته إسرائيل منذ أربعة آلاف سنة، فلماذا لا تعيد استعمار روما لفرنسا الذي كان قبل ثلاثة آلاف سنة؟ أنصلح خريطة العالم لمصلحة اليهود، ولا نصلحها لمصلحة روما عندما كانت تحتل فرنسا والبحر الأبيض كله وإنكلترا أيضاً؟ ونحن العرب أمضينا مئتي سنة في جنوب فرنسا، في حين لم يمكث

اليهود في فلسطين سوى سبعين سنة ثم نفوا بعدها. وهذا مثال تاريخي أيضاً. قال ديغول: ولكنهم يقولون: في فلسطين وُلِد أبوهم. قال فيصل: غريب!! عندك الآن مئة وخمسون دولة لها سفراء في باريس، وأكثر السفراء يولد لهم أولاد في باريس، أفلو رجع هؤلاء السفراء إلى بلادهم، ثم جاءت ظروف صار فيها هؤلاء السفراء رؤساء دول، وجاؤوا يطالبونك باسم حق الولادة بباريس، فمسكينة باريس، لا أدري لمن ستكون؟!

هنالك، سكت ديغول، وضرب الجرس مستدعياً بومبيدو، وكان جالساً مع الأمير سلطان والدكتور رشاد فرعون في الخارج، وقال له: الآن فهمت القضية الفلسطينية، أوقفوا السلاح المصدَّر لإسرائيل. وكانت إسرائيل تحارب بأسلحة فرنسية وليست أمريكية. صحيح أنها أخذت سلاحاً من السوفييت، ولكن سلاحها في معظمه كان فرنسياً، ولا سيما الطيران، وكان متقدماً. وهكذا قُطع السلاح الفرنسي عن إسرائيل منذ ذلك اليوم من عام ١٩٦٧ قبل الغزو الثلاثي لمصر بأربعة أيام.

واستقبلنا الملك فيصل في الظهران عند رجوعه من هذه المقابلة، وفي صباح اليوم التالي ونحن في الظهران أُعلِن الغزو، فاستدعى الملك فيصل رئيس شركة التابلاين الأمريكية، وكنت حاضراً، وقال له: إن أي نقطة بترول تذهب إلى إسرائيل ستجعلني أقطع البترول عنكم. ولما علم بعد ذلك أن أمريكا أرسلت مساعدة لإسرائيل قطع عنها البترول، في حين لم تقطع عنها البترول العراق، ولم يكن صدام هو الرئيس بل كان هو المسيطر، كما لم تقطع البترول كلٌّ من الجزائر وليبيا. الذين قطعوا البترول هم عرب الخليج فقط. وقامت المظاهرات في أمريكا، ووقف الناس مصطفين أمام محطات الوقود، وهتف

المتظاهرون: نريد البترول ولا نريد إسرائيل، وهكذا استطاع هذا الرجل بنتيجة حديثه مع ديغول، وبموقفه البطولي في قطع البترول أن يقلب الموازين كلها.

٣٩- مع سماحة المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم

س **كان المفتي في عهد الملك فيصل الشيخ محمد بن إبراهيم. هل يمكن إلقاء الضوء على شخصيته؟ وهل قمتم بمساع توفّقون فيها بين مواقفه وبين متطلبات الدولة؟**

= في أول مجيئي كانت مشكلة قانون التأمينات قائمة، إذ كان المشايخ معترضين عليه؛ لأنه يضمن للعامل تعويضات حسب مرتّبه الذي كان يتقاضاه في عمله، وعند إصابته أو موته يتقاضى هذا التعويض بنسبة راتبه. وكان هذا مخالفاً للشريعة في نظرهم؛ لأن الديات في القتل يتساوى فيها الصعاليك والملوك، والدماء متساوية؛ ولذلك اعترضوا على ما يمنح العامل المصاب من تعويضات تتناسب مع راتبه، ولا تتناسب مع دمه. وقدموا مذكرة في ذلك بتوقيع الشيخ عبدالعزيز بن باز والشيخ عبدالله بن حميد. هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية فوجئنا أيضاً بقضية الأوسمة. فقد كان الملك عبدالعزيز ينوي إصدار قانون الأوسمة، فاعترض العلماء وحالوا دون صدوره بحجة أن ذلك بدعة، وفي عهد الملك سعود كانت الأوسمة تعطى دون نظام. فلما جئت إلى المملكة حدثني الملك فيصل عن اعتراضات العلماء على الأوسمة، فأقنعته بجوازها وأنها ليست بدعة.

ووضعنا نظاماً خاصاً بالأوسمة، وأرسله الملك إلى الشيخ محمد بن إبراهيم، فردّ المفتي أن هذا بدعة، وكل بدعة ضلالة. وأطلعني الملك فيصل على الردّ. فقلت له: هذا غلط، فقال: أتذهب إليه وتراه، فقلت: بعد أن تكتب

إليه، كي لا يقول: هذا الأفندي جاء يعلمني! وقد يطردني. ولكن اكتب له أنت بأني ذاهب إليه باسمك، فردّ عليه أن فلاناً قادم إليك، وأبلغ ابنه الشيخ إبراهيم الذي كان يمسك الفتوى، وذهبت إليه على موعد بعد صلاة العشاء، ودخلت عليه بعد الصلاة، فكان متجهماً؛ لأنه علم أن الملك أرسلني لمناقشته، وفي نفسه أن أرسل إليه شخصاً من الغرباء ليناقشه في قضايا الشرع. وكان هذا اللقاء سنة ١٩٦٥م.

س **ألم يكن بينك وبينه معرفة من قبل؟**

= كان لي به لقاء قبل عشر سنوات، في سنة ١٩٥٥م لما زرت المملكة وأنا عضو في لجنة الشؤون الخارجية السورية، بمناسبة حلف بغداد، إذ قامت هذه اللجنة بزيارة البلدان العربية، وكانت مؤلفة من مختلف الأحزاب والاتجاهات، فيها أكرم الحوراني وصلاح البيطار، والأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا ممثلاً الكتلة الإسلامية في البرلمان السوري، وكنا خمسة عشر شخصاً.

أما اللقاء الثاني فكان من أجل قانون الأوسمة. فلما ذهبت لمذاكرته قال: ماذا عندك؟ قلت: أنا أحب أن أسمع منك. قال: هذا النظام بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، ولتسلكن سبل مَنْ قبلكم... ولو دخلوا جحر ضب لدخلتموه...إلخ، وأسهب في النقول عن الأئمة والمذاهب في تقرير البدعة، وأحاط بأقوال العلماء فيها، فدلّل على غزارة علمه وقوة حافظته وإحاطته بجميع الآراء في هذه المسألة، وبعد ساعة من استرساله في الحديث وأنا أستمع إليه بكل أدب وقف عن الكلام، فقلت له: هل بقي لديك شيء؟ فإذا هو يستشيط غضباً ويقول: أكل الذي سمعته غير كافٍ؟ قلت: يا سماحة الشيخ، أنا لا أقول: إنه غير كافٍ، ولكن أحببت أن أستمع إلى كل ما عندك، لأجيب

عنه بكلمات محدّدة ومرّة واحدة، ولا أريد أن أتكلم مرتين. قال: لا، هذا هو الذي عندي. قلت له: أنا أكفيك الأمر. فالرسول ﷺ الذي قال: كل بدعة ضلالة، هو الذي قال: من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها.. إلخ فلماذا تعدّها بدعة، ولا تعدّها سنة حسنة؟ الأمة الإسلامية كلها عدّتها سنّة حسنة، ولم يبق إلا أنت مخالفاً لإجماع الأمة. ثم إن فكرة الأوسمة موجودة في القرآن الكريم. قال: أعوذ بالله. قلت له: اسمع التفصيل:

الأصل في الأوسمة أنها كانت ألقاباً تُمنَح لمن أحسن في عمله، ليكون أسوة يقلده الناس. وفي القرآن الكريم أن الله تعالى أقام الجنة لمن أحسنوا، وأقام النار لمن أساؤوا. وفي الدنيا الأمر كذلك، أيُعقَل أن نجعل المحسن مثل المسيء؟ فالطالب في المدرسة إذا جدّ واجتهد تعطيه المدرسة بطاقات مديح تشجعه فيها على مزيد من الإحسان والاجتهاد. وهذا كله تقضيه المصلحة. والقرآن الكريم والشريعة يَقضيان بألا نعامل المحسن كالمسيء، ومن الأحسن والأفضل أن نحمل الناس على أن يقدّموا ما عندهم من خير. وهذه الأوسمة اليوم كانت في التاريخ ألقاباً تُمنَح للمحسنين، ثم صارت تُورَّث، وتتسلسل، فوجدوا أن هذه الألقاب لا يجوز أن تُورث وتتسلسل، ولا يجوز أن يحملها إلا من صدر المرسوم له. ونحن في الإسلام عندنا القضيتان: القضية الأولى: الألقاب في القرآن. والقضية الثانية: الألقاب والأوسمة في السنة النبوية.

أما الألقاب في القرآن، فنجدها بدءاً من سيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام بعد أن افتُتِن بابنه الذي رُزقه بعد ثمانين سنة، وأراد الله أن يمتحنه، فأراه الرؤيا المعروفة أنه يذبحه، فلما صدّق الرؤيا، وهم بذبح ابنه، افتداه ربه بذبح عظيم، وقال له ربه: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾ وأطلق عليه منذ ذلك اليوم

خليل اللّه؛ لأن حبّ اللّه عنده كان فوق كل ما لديه في الدنيا من والد وولد وأم...إلخ

وأما الألقاب والأوسمة في السنة النبوية، فقد أعطى الرسول ﷺ لقب الصدّيق لأبي بكر، ولقّب عمر بالفاروق، لأن أعماله وتصرفاته تفرق بين الحق والباطل. وأعطى لأبي عبيدة بن الجراح لقب أمين هذه الأمة، ولخالد بن الوليد لقب سيف اللّه. هذا من جهة الألقاب. أما الأوسمة، فالشاهد عليها ما روته كتب الحديث والسيرة من أن أسماء بنت أبي بكر كانت تحمل الزاد وأخبار القوم للرسول ﷺ وأبيها، وهما في الغار. ولما نهضت لتربط سفرة الزاد والسّقاء لهما لم تجد شيئاً تربط به سوى نطاقها، فشقته باثنين، ربطت بواحدة سفرة الزاد، وبالآخر السِّقاء؛ ولذلك سُمِّيَتْ بذات النطاقين. فإطلاق هذه التسمية عليها وسام. قال المفتي: هذا رأيي. وسمع الملك فيصل ما دار بيننا من حوار، وأصدر مرسوماً بنظام الأوسمة والألقاب.

٤٠- عودة إلى الملك فيصل

س هل لكم ما تقولونه حول علاقتكم بالملك فيصل وما رافقها من مواقف وذكريات؟

= كنت من أقرب الناس إليه، وكنت أحمل الملفات التي تحتاج إلى دراسة، قادمة من وزارة الخارجية أو المالية أو الجهات القضائية، وألخصها وأبدي رأيي فيها؛ لأن الملك لا وقت لديه للقراءة.

س هل كانت هذه التقارير عن سير العمل في الوزارات، أو كانت في القضايا التي ترفع إلى الملك؟

= كانت تحمل قضايا يجب أن يعرفها الملك، يطلع عليها أو يحيلها إلى مجلس

الوزراء، وكان يستشيرنا في هذه القضايا، وفيما يحيله إليّ كنت ألخصه وأبدي رأيي فيه. وقد اكتشفنا وجود كثير من الأخطاء. وكنت أعرض الأوراق بعد دراستها على الدكتور رشاد تقديراً له، وترفع بتوقيعه، ولكن الدراسة كنت أنا الذي أقوم بها وبخاصة إذا كانت تتعلق بأمور قضائية؛ ولذلك قال الملك للدكتور رشاد: الآن صار عندي مراقبة، هذا ما قاله لي الدكتور رشاد. ولكن هذا أحدث ردود أفعال. ومثال ذلك: جاء وكيل وزارة الخارجية، ووزارة الخارجية كانت في يد الملك، جاء موجهاً كتاباً إلى الملك أن الجامعة العربية كتبت إلينا تقول: إن معاهدة الحصانة الدبلوماسية للموظفين في الجامعة العربية الصادرة سنة ١٩٥٨ وقعتها الدول العربية كلها إلا المملكة العربية السعودية، فهي وحدها فقط لم توقعها، والمطلوب السماح له بالتوقيع على هذه المعاهدة. فبعث إليّ الملك فيصل وسألني عنها، فقلت له: لا أستطيع أن أقول بتوقيعها حتى أراها فهذه اتفاقية.

وطلبنا في ردّنا أن ترسل لنا الاتفاقية لنراها، وبعد شهر أرسل لنا وكيل وزارة الخارجية ملفّاً مؤلفاً من ٣-٤ آلاف صفحة، مربّطاً بخيطان، استحال لونه من القدم إلى لون أصفر من تأثير القدم والحرارة، وأخذت الملف وفتحته وشرعت في قراءته، فتبين لي منذ البداية أن القرار صادر في الحصانة الدبلوماسية لموظفي الجامعة العربية برتبة (دبلوماسي) سنة ١٩٥٣ أيام الملك عبدالعزيز، وليس في سنة ١٩٥٨، وبقرار من الجامعة العربية أن أول دولة وقّعته هي المملكة العربية السعودية!! فقلت في نفسي: لعل هذا القرار أُلْغِي فيما بعد، ورحت أقرأ وأقرأ حتى الفجر تقريباً، فما وجدت إلغاءً. فجئت إلى الدكتور رشاد وقلت له: أنتم موقعون على هذه المعاهدة قبل جميع الدول العربية. فإذا علم الملك ذلك فماذا سيفعل بالمسؤول عن ذلك قال: ما العمل

الآن؟ قلت: نطلب الخطاب الذي أرسلته الجامعة العربية إلينا بعدم توقيع المملكة. وطلبناه فأُرسل إلينا الخطاب، فإذا هو تعميم فيه أن ملحقاً للاتفاقية الصادرة سنة ١٩٥٣ وُقِّع من جميع الدول العربية ولم تبق إلا المملكة العربية السعودية لم توقعه، وهو ملحق مكوّن من ثلاثة أو أربعة أسطر صادر في سنة ١٩٥٨، فلما أرادوا الاختصار أغفلوا كلمة (ملحق) وذكروا الاتفاقية الصادرة في سنة ١٩٥٨ وهذا التاريخ الملحق كما هو واضح، وليس تاريخ الاتفاقية، وتبين وجود ثلاثة أو أربعة أخطاء في ثلاثة أو أربعة أسطر. والعجيب أن هذا التعميم مرّ على الدائرة القانونية أيضاً، فلم ينتبه أحد إلى ما فيه من أخطاء. ولما جئت إلى الملك وأطلعته على هذه الأخطاء استدعى المسؤول عن ذلك ولامه لوماً شديداً وقال له: كيف تغفل عن هذا؟ لو أذنت لك بالتوقيع لَضحكوا علينا. نحن موقعون هذه الاتفاقية سنة ١٩٥٣، بل نحن أول الموقعين، في عهد الملك عبدالعزيز، فكيف يغيب عنا هذا؟! هذا مثل مما كنت أواجهه في الكشف عن الأخطاء، وما كان يسببه لي هذا الكشف من مكائد وخصومات. حتى إنني قلت للملك: لم يعد لي صبر على البقاء. فقال: أنا أعرف أن هناك مَنْ يكيدون لك لتترك العمل معنا من نفسك.

والأمثلة على هذا كثيرة. من أبرزها ما فعله المسؤول السابق نفسه حينما ذهب وفد المملكة من العلماء والمشايخ إلى الفاتيكان، فقد أرسل إلى السفير السعودي في باريس برقية يقول فيها: إن الدكتور الدواليبي ليس عضواً في الوفد، واسمه ليس مذكوراً بين أسماء أعضائه. وقد استنكر المشايخ هذه البرقية، وقال الشيخ الحركان: هذه مؤامرة على الوفد لتخذيل مسعاه في مهمته، والدكتور الدواليبي ركن أساسي فيه، وإني لن أحضر الاجتماع إذا لم

يحضر الدكتور الدواليبي، ويجب أن ترسل برقية إلى الرياض للتأكد من أن الدكتور الدواليبي عضو في الوفد.

وأرسل السفير برقية، وجاء الرد من الرياض بتأكيد عضوية الدكتور الدواليبي.

س ما تصوّركم للأجواء السياسية والمؤامرات التي كانت تحيط بالمملكة العربية السعودية بخاصة، والأمة العربية بعامة في المرحلة التي كنتم فيها على صلة بالمملكة؟

= في مطالع الخمسينيات كان الملك عبدالعزيز يمشي في أيامه الأخيرة نحو الشيخوخة، بعد أن مضى على حكمه خمسون سنة. وكان الجهد الأوروبي الإنكليزي الأمريكي متجهاً إلى ردّ شعب الجزيرة العربية قبائل متخاصمة، وبذلك يفتّتون الدولة التي توحدت واتسعت، ويفعلون بها كما فعلوا بالإمارات التي بها دولة البحرين، وكان ينطبق عليها هذا الاسم الحقيقي في القرن السادس عشر، إذ كانت تشرف على بحرين: بحر الخليج وبحر العرب أو المحيط الهندي، وكانت هذه المنطقة من حضرموت إلى البحرين تسمى البحرين، تخضع لحكم واحد، وتسمى دولة عُمان ومسقط، وكان حكامها يملكون جميع شرقي إفريقية من غرب عدن حتى موزمبيق، وزنجبار والجزر. وفي الحروب البرتغالية كان ملك البرتغال يستشير اليهود في القرن السادس عشر، فقالوا له لقد أخطأ الصليبيون حين اتجهوا لإنقاذ القبر المقدس في فلسطين، وكان عليهم أن يتجهوا إلى المدينة ويقضوا على القبر المقدس عند المسلمين، ويغزوا مكة؛ ولذلك تحولت الحروب الصليبية في القرن السادس عشر فدخلت الخليج، وضربت البصرة، ودخلت البحر الأحمر وضربت جدة.

وكانت الدولة العُمانية في ذلك الوقت تملك ثلاث عشرة سفينة حربية، تحوي كل سفينة مدفعاً واحداً، وهي التي وقفت أمام البرتغال وشتتتهم وأجبرتهم على الهرب. وكان حكامها يمشون على نظام الأسرة، في كل مكان أمير من أولاد الإمام، وكانت الدولة إمامية إباضية، وكلهم إخوة وأولاد عم، ودأبت إنكلترا على الإثارة ما بين الأخ وأخيه ليتقاتلوا، فتدخل وتصلح بينهم، وتضع قدماً للمصالحة الدائمة بينهم، من موزمبيق إلى الحبشة في مدخل أريتريا على البحر الأحمر، وقد ضمت إلى الحبشة أيام موسوليني. فهذه المناطق كلها كانت تخضع لدولة عُمان، والجنوب من عدن إلى البحرين التي بقيت ظلوا يقسّمونها ويفتتونها حتى صارت كلمة البحرين لا تدل عليها، بل صارت مثل الإمارات أحياناً كل إمارة ليس فيها سوى خمسة وعشرين ألفاً من السكان.

لذلك كانت سياسة الاستعماريين ألا يسمحوا ببقاء هذه المملكة الواسعة، حتى إذا مات عبدالعزيز أمكنهم تقسيم المملكة إلى قسمين، القسم الأول الحجاز، وكان على رأسه فيصل نائباً عن الملك، والقسم الثاني نجد وعلى رأسه سعود ولي العهد، وبذلك يقسّمون المملكة إلى دولتين. وهذا كان ثابتاً في مطالع الخمسينيات، وذكرت لفيصل وللأمير مساعد أن ما جرى في مسقط من خلافات مصطنعة بين أبنائها ليجزّئوها سيجري عندكم حتى تتجزأ بلادكم إلى إمارات وقبائل، وهذا مُخطَّط لكم. ولكن فيصلاً كان والحمد لله كبير العقل، فبعد أن مات أبوه وضع نفسه في خدمة أخيه، بعد أن أخبرتُه أن أمريكا متفاهمة مع عبدالناصر كما قال لي خروشوف على تسليمه اليمن والمملكة العربية السعودية والأردن وسورية كما أسلفت من قبل. وبذلك فوّتوا على السياسة الإنكليزية خطّتها ورغبتها في تقسيم السعودية إلى قسمين، ثم

يجـزّئونها إلى مناطق قبلية كما فعل بدولة البحرين التي لم يبق منها سوى الجزيرة التي تسمى البحرين.

س هل كان لزيارة وفد المملكة للفاتيكان آثار سياسية؟

= لا شك أن نجاح زيارة وفد المملكة للفاتيكان أدّى إلى إيجاد نوع من التقارب بين المسلمين والمسيحيين؛ ولذلك فقد استاءت إسرائيل جداً من هذه الزيارة ومن ذلك التقارب، ولم تفلح محاولاتها في إحباط تلك الزيارة، وكذلك الاستعمار لم يرتح لتلك الزيارة. وكان الملك فيصل متهيباً منها، وأذكر أنه قال لي حينما وصلت إلينا دعوة البابا: يا دكتور، نحن مشايخنا يجتمعون، وربما يتفاهمون مع مشايخ العالم الإسلامي، فكيف تأخذهم إلى البابا؟ قلت له: يا جلالة الملك، هذا القصر الذي يسكنه الفاتيكان هو البناء نفسه الذي أصدر قراراً قبل عشرة قرون بمحاربة الإسلام. والآن يطلبون منكم أن تدخلوا إليه، لتعلنوا كلمة الإسلام في حقوق الإنسان. ونحن أمة دعوة، يجب أن نذهب إليهم وندعوهم. هم دعونا، فكيف نرفض الدعوة؟ قال: ولكن المشايخ ربما لا يتفهّمون هذه الدعوة، فقلت له: عيّن أسماء الوفد، وأنا أعمل على تهيئتهم إن شاء الله. وكان الأمر كذلك، وتمت الزيارة رغم محاولات إسرائيل المتعددة للحيلولة دون إتمامها، وحققت نجاحاً كبيراً.

س أليس قطع الملك فيصل البترول عن أمريكا، ومجيء كسينجر ومقابلته إياه أليس هذا هو السبب الرئيس في مقتله؟

= حدث قطع البترول في سنة ١٩٧٣، وقُتِل الملك فيصل سنة ١٩٧٥، ولا شك أن هذا القطع كان له وقع كبير جداً، وجاءت زيارة الفاتيكان عاملاً جديداً في هذه الأزمة. فقد فكروا بالسيطرة على المملكة واحتلالها. وفي أزمة الخليج

كُشِف هذا السرّ كما نشرته مجلة المجلة، وقد أعلنه السفير الأمريكي في المملكة آنذاك. ذلك أن كسينجر راسل السفير الأمريكي بعد قطع البترول، يستشيره في احتلال الجزيرة العربية كلها بعد احتلال المملكة، وقال في كتابه السرّي للسفير: إن أمريكا تعاني عجزاً في البترول، والبرميل يُباع بعشرين دولاراً، وكلفة الإنتاج دولاران. فيُعطَى نصف المبلغ للمملكة ولآبار البترول، وتأخذ أمريكا النصف. وأجابه السفير: هذا شيء خطير جداً. وتبادلا آراء مختلفة، واضطر السفير إلى الاستقالة آنذاك. وقد نشر السفير الأمريكي خبر استقالته في ذلك الوقت في الأزمة التي أثارها صدام حسين؛ لأن كسينجر أراد احتلال الجزيرة العربية كلها. وإن أمثال كسينجر مازالوا موجودين في الإدارة الأمريكية.

س ما الذي حال دون تطبيق هذا المخطط الذي اقترحه كسينجر وهو احتلال المملكة؟

= الحرب الباردة بين القطبين جعلت الأمر صعباً. واحتلال الجزيرة ومناطق البترول ليس بالأمر السهل. فالسوفييت كانوا يحاربون في أفغانستان مروراً ببلوجستان، ويتطلعون للسيطرة على المنطقة. والسباق على أشده في التكنولوجيا التي تمكّن من جعل الحرب قصيرة، وما كانوا مهيئين لخوص حرب سريعة؛ ولذلك انصرف القطبان، كلٌّ منهما يريد أن يسبق في الإعداد التكنولوجي وقد استفادوا من هذا الإعداد وطبقوه في أزمة الخليج. فقد اختلف الوضع العسكري عما كان عليه في الحرب العالمية يوم كانت فرنسا وإنكلترا تواجهان ستالين في روسيا في أزمة الخليج إذ دخلت الحرب سبع وثلاثون دولة بأساطيلها، وسبع عشرة دولة عربية وإسلامية. وجاءت

التكنولوجيا الحديثة المتطورة فأنهت الحرب في مئة ساعة، في حين اضطر هتلر أن يحارب ست سنوات، إذ ابتدأت بحرب تقليدية؛ فالأمريكان كانوا يبذلون جهدهم في الوصول إلى إمكانات حربية يعطلون بها إمكانات السوفييت؛ ومن هنا تطورت الأوضاع، ولم يكتب للمخطط النجاح.

٤١- مع الملك خالد

س ماذا تذكرون في علاقتكم بالملك خالد رحمه الله؟ وهل هناك مواقف معينة تذكرونها، بحكم اتصالكم به وبغيره؟

= كان الملك خالد رحمه الله رجلاً قوي الإيمان بالإسلام، متأثراً ببعض العلماء الثقات، الذين لا يشك في علمهم ولا صدق إيمانهم، ولكن إدراكه لظروف العصر وما يحيط به لم يكن واسعاً. وكان الملك خالد سليم الصدر، ولذلك كنت ألح على الأمير فهد آنذاك أن يكون للأمير خالد كما كان فيصل لسعود. وقد تم هذا والحمد لله، فسلك مع الملك خالد السلوك الذي سلكه فيصل مع سعود.

٤٢- مع خادم الحرمين الملك فهد

س إذا انتقلنا دولة الدكتور إلى علاقتكم بخادم الحرمين الشريفين الملك فهد وهو في سُدَّة الحكم، فما هي ذكرياتكم عن اتصالكم به وبشخصيته وأعماله؟

= لا شك أن الملك فهد أظهر مرونة وكفاءة. وخصوصاً إذا علمنا أن الأحداث العالمية بعد الملك فيصل أخذت تتعقّد. في أيام الملك فيصل ما كانت المشكلات قد ظهرت في قلب البلاد العربية، اللهم إلا مشكلة عبدالناصر. أما العالم العربي فلم يكن فيه ذكر للمشكلات، وقد استطاع فيصل أن يجرد عبدالناصر

من عدائه، إذ كان بعد حرب ١٩٦٧ يهاجم فيصلاً ويشتمه، فما إن علم فيصل أن عبدالناصر ليس لديه إمكانات وأنه أصبح عاجزاً أمام إسرائيل حتى قال له: أنا أقدم لك ما تحتاج من إمكانات، مع أنه كان يهاجمه في مؤتمر الخرطوم، وسأله فيصل: ماذا يلزمك؟ وقدم له ما يلزمه. وكانت الكويت أقرب الناس إلى عبدالناصر، وامتنعت عن العطاء، فأعطى الملك فيصل حصته وحصة الكويت. لقد كان أمام فيصل مشكلة واحدة، هي عبدالناصر. أما في عهد الملك فهد فقد تزايدت المشكلات في العالم العربي.

لا شك أن الملك فيصل قام في أيامه الأولى بأعمال مهمة، أبرزها تحقيق الاقتراحات الثلاثة التي كنت اقترحت القيام بها، وهي تنظيم سياسي بين الدول الإسلامية، وبنك التنمية، ووكالة الأنباء، وقد تحقق منها أمران، وبقي الثالث، وهي وكالة الأنباء فقد وضع دستورها، ولكنها تحتاج إلى ملياري دولار، ولا أحد يدفع، إنها تحتاج إلى أجهزة تسجيل ضخمة تنقل المعلومات بمختلف اللغات، وتكاليفها عالية جداً، وتحتاج إلى إنفاق مستمر. أما منظمة المؤتمر الإسلامي فقد بدأت ميزانيتها بأربعة ملايين، ووصلت الآن إلى عشرة ملايين، وتضم خمساً وأربعين دولة، ولكنها لا تدفع شيئاً من هذه الميزانية الضخمة. ومع ذلك قامت منظمة المؤتمر الإسلامي بجهود فيصل، فحقق بها على ضعفها ما لم تحققه الدول المسيحية ولا الدول الشيوعية، فالدول المسيحية متعاونة ضد الإسلام، ولكنها لم تشكل رابطة، والشيوعية تفككت دولها، ولم تكوّن كتلة؛ ذلك أن الشيوعية نجحت في الصين، ثم صارت الصين خصماً لروسيا وابتعد تيتو عنها، وبقيت بعض البلدان محتلة على الرغم منها، وانفصلت الآن. ففي هذا البحر المتلاطم من الاتجاهات العقدية المتضاربة ثبّت مسعاه وأقام كتلة

متجانسة في منظومة عقدية، فكان إنجازه عملاً عظيماً، في ظروف صعبة، كل ما في الساحة الدولية من قوى ضده، كأمريكا والشيوعية وإسرائيل وعبدالناصر.

لقد اختلف الزمن، ففي عهد فهد تعددت المشكلات وتفرعت وتعقدت، وآخرها مشكلة أزمة الخليج القاصمة، وقد واجهها ووقف أمامها. وقبل ذلك قام بعمليات مصالحة ما بين المغرب والجزائر، والمغرب وليبيا، والأردن وسورية، وهي مشكلات في داخل البلاد العربية، برزت في أيام فهد، وتصدى لمعالجتها. ولما حشد صدّام ٢٥٠/مائتين وخمسين ألف جندي على حدود السعودية، ولم يُكتَشف هذا الحشد إلا بالأقمار الصناعية في الصحراء، لم يصدق الملك فهد ذلك حين أبلغه الأمريكان فتثبت من صحة الخبر بالهاتف فكلم صداماً، فحاول هذا أن يراوغ، ثم لماذا الخوف؟ أليس بيني وبينك معاهدة صداقة وعدم اعتداء؟ وتبين لفهد صدق الأمريكان. وكان لابد من اتخاذ قرار سريع لمواجهة هذه المصيبة، فلم يتردد في اتخاذ قرار المقاومة، ولم يلتفت لتضارب الآراء، فهذا يقول يجوز، وهذا يقول: لا يجوز. ولو تردّد، أو توقّف عند تضارب الآراء لطارت المملكة، ولنزل بها ما نزل بالكويت، وما كان هناك من يقول للمملكة ما قالته المملكة للكويت. لقد كانت السرعة في البت في هذه المسألة الخطيرة وتحمّل المسؤولية فيها أمراً مهماً جداً، وليس عملاً بسيطاً، ولقد سمعت من أساتذة جامعيين أنه ليس من رأيهم التفاهم مع أمريكا في هذه المسألة الخطيرة. ومن هنا كان للملك فهد الفضل في سرعة اتخاذ القرار، وكانت الحرب العالمية التي انتهت بعد مئة ساعة، وتجمّع فيها ستون دولة، وبذلك أعاد الكويت إلى أصحابها. ولما سأل أمريكا ما موقفها؟ كان

الجواب: سنحدد موقفنا بعد أربع وعشرين ساعة. وتمكنت الإدارة من أن تأخذ موافقة الكونجرس، بعد أن أفهمت أعضاءه أن القضية قضية بترول قد تزلزل الاقتصاد العالمي، ومن هنا أَذِن الكونجرس، وكان المنتظر ألا يأذن، لأنه خاضع لتوجيهات إسرائيل، بل كان المتوقَّع أن تكلَّف إسرائيل بالوقوف في وجه صدّام حسين، وتدفع المملكة التكاليف لصالح إسرائيل. ولقد نجح بوش بأخذ موافقة الكونجرس في ليلة واحدة، اجتمع فيها مئة من أعضائه وأعطوا موافقتهم، وبسبب هذه السرعة في البتّ تغيرت المقاييس كلها، وأذكر أنني قلت للملك فهد أمام جمع من العلماء: إن الأخطار التي وقعت شتَّتَتْ مليون كويتي، وكانت ستُشَتِّت ثمانية عشر مليوناً، والكويتيون الذين أخرجوا من ديارهم لجؤوا إليكم، فماذا لو حلت المصيبة بكم - لا سمح الله - فموقف الملك فهد كان موقفاً عصيباً تتزلزل فيه الأقدام، وقد أعانه الله عليه.

س **ما هي انطباعاتكم في عملكم مع الملك فهد؟**

= لما آل إليه الأمر أظهر كفاءة عالية، وحافظة طيبة، وجلداً على العمل، فلا أعرف كيف يتفرغ لشؤون الدولة، فالتقارير في مختلف الأمور تُرفَع إليه، فيقرؤها، ويتعرف منها على شؤون الدولة، ولديه الآن ما لا يقل عن ٤٠-٥٠ سفارة، كل سفارة ترد منها أخبار، والوزراء ينقلون إليه الأخبار الخارجية والأخبار المحلية والأخبار العالمية والأخبار الأمنية، وما في الساحة من مشكلات، وكل هذه الأمور تُسيّر وتعالج بسرعة.

س **وماذا عن دعوة الملك فهد لإلقاء خطاب في الأمم المتحدة؟**

= في الذكرى الأربعين سنة لهدنة الحرب العالمية الثانية دعا ريغان لأول مرة رؤساء الدول لإلقاء خطابات في الأمم المتحدة، ودُعِي الملك فهد. وكان فهد في

زيارته لريغان في أول سنة ١٩٨٥ حدّثه عن المشكلات الموجودة في الشرق الأوسط بشأن فلسطين، ووعده ريغان خيراً، ولكن مشى بالعكس إذ كانت قضية فلسطين تسير في مصلحة اليهود تماماً؛ ولذلك لما وجه ريغان الدعوة إلى رؤساء الدول أصرّ على حضور فهد بالذات. وكانت هناك أمور تجري في الخفاء. وفي اللحظة الأخيرة اعتذر الملك فهد عن الذهاب، وأبلغ ريغان أنه سيأتي الأمير سلطان.

٤٣- عودة إلى الحاج أمين الحسيني

س **هل لكم أن تلقوا الضوء على شخصيات أخرى مهمة في حياة أمتنا، وفي مجابهة الاستعمار؟**

= الشخصية التي أود التحدث عنها في هذا المجال هي شخصية الحاج أمين الحسيني. فلقد كانت الحركات الوطنية السلبية التي قامت ضد الاستعمار من مراكش إلى بغداد كلها محلية إقليمية، في مصر وسورية والجزائر ومراكش. والزعيم الذي انفرد بدعوته إذ نادى بجعل هذه الحركات إسلامية هو الحاج أمين، فقضية فلسطين في نظره ليست قضية فلسطينية، وإنما هي قضية إسلامية؛ ولذلك جمع المؤتمر الإسلامي الذي أسسه الملك عبدالعزيز في سنة ١٩٢٦، جمعه في سنة ١٩٣٢ لينقل القضية الفلسطينية إلى أرجاء العالم الإسلامي، فكان بذلك بعيد النظر، فقضية فلسطين لا يجوز أن تبقى إقليمية، ومنذ ذلك الحين نعيش الجو الإسلامي الذي أوجده الحاج أمين، خلافاً للزعامات الأخرى التي وقفت تقارع الاستعمار على أسس إقليمية محلّية. ومن هنا كانت قضية فلسطين عربية إسلامية، تمسّ العالم العربي وتمسّ العالم الإسلامي، بسبب ربط الحاج أمين إياها بالعالم الإسلامي. وكان يتنقّل في

أرجاء العالم الإسلامي من أجل قضية فلسطين. ولما قرر الفلسطينيون إنشاء جامعة في القدس، وهي للتعليم وليست للسياسة، سافر إلى الهند وغيرها من البلاد الإسلامية، يطلب التبرعات لهذه الجامعة، مع أن كثيراً من أقطار المسلمين ما كانت مستقلة، بل كانت ترزح تحت نير الاستعمار، ومع ذلك كان يجوب الأقطار المستقلة وغير المستقلة داعياً لفلسطين وقضاياها. لقد كان رحمه الله الوحيد بين الزعامات الوطنية الذي بنى قضيته على مستوى العالم الإسلامي ولم يبنها على المستوى الإقليمي. وكان نظيف اليد، يجبي الأموال من أجل الثورة السورية، ولما قامت الثورة الفلسطينية راح يجمع الأموال من أجل الثورة الفلسطينية. وكانت الأموال في يده الأمينة تصل إليه فيوزعها في مصارفها كلها، ولما توفي ما كان عنده شيء من مال. وكان يعيش على ما يأخذه من المملكة، فهو من الزعامات التي اشتهرت بالأمانة والنظافة والعفّة. وما كانت توجد قضية إسلامية إلا ويعمل من أجلها، إلى جانب القضية الفلسطينية، ففي أثناء الحرب العالمية عمل من أجل أندونيسيا ضد الهولنديين، ولما جاءت قضية قبرص في تركية، كان يجمع السلاح ويرسله للأتراك في قبرص ليقفوا في وجه اليونان. وكان تقياً متعبداً صالحاً، يتمثل حقيقة الإسلام قولاً وعملاً، ولذلك رفع الله ذكره وبارك في عمله.

٤٤- القضية الأفغانية

س نأتي الآن إلى قضية أفغانستان لنسألكم عن انطباعكم عنها وعما يحيط بها من مؤامرات ومخططات، فقد ذهبتم إليها وحاولتم جمع كلمة المجاهدين وقابلتم المسؤولين الروس من أجل هذه القضية.

= القضية الأفغانية مرتبطة بمخططات مسبقة للسوفييت، الهدف منها الوصول إلى المحيط الهندي، ليحيطوا بالخليج العربي والبحر الأحمر، ويمنعوا أي تسرّب من البترول إلى أمريكا في حالة وقوع حرب. أرادوا أن يجدوا لهم منفذاً من مضيق الدردنيل إلى البحر الأبيض بعد أن تشيّعت الصين، وأكسبت السوفييت قوة، فطلبوا المرور بالدردنيل، فامتنعت تركية، إذ كان هناك اتفاقية دولية، تجعل الدردنيل أراضي تركية، كما أن قناة السويس أراض مصرية على الضفتين، وبحسب هذه الاتفاقية تخضع الأساطيل المسلحة إذا مرت بها للتفتيش والمراقبة، وتمنع من المرور الحرّ، لأنه قد يفضي إلى احتلال البلد. ولما امتنعت تركية عن السماح للروس بالمرور أخبرَت أمريكا، فقالوا لها: ارفضي وادخلي في الحلف الأطلسي، وبذلك سُدّ الطريق على روسيا وصار مركز الأسطول الأمريكي في اليونان يراقب الدردنيل باستمرار.

وهكذا كانت روسيا تفكر بعد أن ضمت الصين إليها، وأصبحت دولة كبرى في مطالع الخمسينيات قادرة على التهديد، وترى أن الدولة التي تسيطر على الخليج تستطيع منع وصول البترول إلى الدول الغربية، وراحت تسعى إلى ذلك. وشجعها على ذلك أن عدن كانت حكومتها شيوعية وهي من جانب البحر الأحمر، والحبشة، أحدثوا فيها انقلاباً أتى بشيوعيين إلى الحكم، فصارت عدن من طرف والحبشة من طرف. ولكن كيف يصلون إلى الخليج؟ عندئذ فكروا في أفغانستان، فهي متصلة بباكستان، وباكستان تعد مئة وعشرين مليوناً من السكان، مشكّلة من أربعة أقاليم: إقليم السند الذي فيه كراتشي، وإقليم البنجاب الذي فيه لاهور، والإقليم الشمالي وفيه بشاور، وبلوجستان وهو أكبر الأقاليم، يبدأ من أفغانستان في الشمال. ويهبط إلى البحر ويتصل به، فهو أكبر الأقاليم الأربعة، إذ الأقاليم كلها يبلغ عدد سكانها مئة وعشرين مليوناً،

وإقليم واحد وهو أكبرها جميعاً لا يزيد عدد سكانه عن مليون ونصف، فهو أراض غير مسكونة تقريباً. فإذا احتلوا أفغانسان فبإمكانهم أن يطلبوا مروراً حراً في بلوجستان كما طلبوا المرور الحر في الدردنيل، وهذا ما كنت أقدّر وقوعه لما رأيت من صنيعهم في العد الملكي، إذ أنشؤوا طريقاً معبداً بالإسمنت المسلّح، لأنه يقع في منطقة جبلية باردة، ليصمد أمام الرطوبة والجليد، وهذا الطريق كلّفهم مبالغ طائلة، لا يُعقَل أنهم دفعوها من أجل المرور التجاري. وإنما لأهداف عسكرية، ولذلك قلت يومئذ لضياء الحق إن عملهم هذا يدل على أنهم يضعون أعينهم على بلوجستان غير المسكونة تقريباً.

وزاد من أطماعهم ما رأوا من حاجة باكستان إليهم، لما استقرت وظهرت فيها ثروات زراعية وبترولية ومعادن وطلبت من إنكلترا العون بوصفها كانت تابعة للكومنولث فرفضت أن تساعدها في الاستثمار، فطلبت باكستان من أمريكا فرفضت، فاضطرت أن تطلب العون من ستالين، فأعطاها الخبراء في سنة ١٩٤٧ منذ الاستقلال؛ ولذلك لما سُدّ في وجه الروس الدردنيل فكروا مستعينين بخبرائهم بباكستان، واكتشفوا أهميتها الإستراتيجية وثرواتها الغنية، وأنها تطوق إيران التي هي منطقة بترولية، وإذا تمكنوا من تطويق إيران صاروا في مداخل الخليج؛ ولذلك ترجح لدى الروس أن يصرفوا النظر عن الدردنيل؛ إذ كانت غايتهم منع البترول عن خصومهم، وإذا جاؤوا عن طريق بلوجستان سيطروا على مداخل الخليج كلها، وعندهم عدن والحبشة، وكانوا قد سيطروا على زنجبار في الجنوب؛ إذ أحدثوا انقلاباً أتوا به بنيريري الشيوعي، وأزاحوا السلطان. فهذا التخطيط عند الروس كان يمشي بجد. وهذا ما كنت أتوقعه.

كان الملك ظاهر شاه، ملك أفغانستان، مسافراً. وكان الجيش الأفغاني يتحرك للانقلاب عليه، فكلّف أحد الضباط الشيوعيين، وهو محمد طراقي، أن يقنع داود شاه، وهو ابن عم الملك وزوج أخته، بالانقلاب على الملك، فوافق، وإذْ علموا أنه لا يمكن أن يُقدِم على قتل الملك، رتّبوا الانقلاب وإعلان الجمهورية وتعيين داود شاه رئيساً للجمهورية، دون أن يقدموا على قتل الملك، وبذلك تجاوزوا مشكلة الإرث في النظام الملكي. وتم الانقلاب بالاتفاق مع الشيوعي محمد طراقي، وعين داود شاه رئيساً للجمهورية. وبعد فترة صار كل شيء في الدولة بيد محمد طراقي، وعندئذ قتل داود شاه.

ولما صار داود شاه رئيساً للجمهورية ألف حكومة، وطلب العون من السوفييت، وأعلن أن منطقته بحاجة إلى منفذ على البحر؛ إذ لا يجوز أن تبقى محبوسة لا منفذ لها، وليس هناك من طريق إلى ذلك إلا من بلوجستان، فأخذ موافقة السوفييت وطلب السماح له بالمرور الحرّ من بلوجستان، وهذا ما كنت أتوقع حدوثه؛ لأن أمريكا رفضت إعطاء خبراء للبحث عن الثروة في باكستان، وكذلك رفضت إنكلترا. أما الروس فقد وافقوا وأرسلوا الخبراء، واكتشفوا أن المرور بهذه المنطقة قليلة السكان هو الأسهل؛ ولذلك صنعوا انقلاب أفغانستان ليتوصلوا إلى المحيط الهندي، وعدن في يدهم، فيأتون من شرقي إيران ويلتفّون على الخليج، حيث البترول، وهذه أفضل طريقة للسيطرة عليه. فطلبوا من ضياء الحق السماح لهم بالمرور الحر من بلوجستان، فرفض. وقلت له يومذاك: لابد لك من أن تصالح أمريكا؛ لأنه كان مخاصماً لها لما استعمل سلاح حلف بغداد في مقاومته انفصال باكستان الشرقية، فقد قطعوا عنه الإعانات؛ لأن الأمريكان كانوا يعملون لفصلها بالاتفاق مع نهرو، لإضعاف الدولة الإسلامية. وكان ضياء الحق يسب الأمريكان ويهاجمهم لقطعهم

الأسلحة عنه؛ فقلت له: جرب الاتصال بهم، فلا يزال في الرئاسة بقايا ممن نعرفهم منذ عام ١٩٦٢ أيام كنتُ رئيساً للحكومة السورية، ومنهم جونسون وبعض الشخصيات الأمريكية الذين كنا نتعامل معهم، ويمكنني أن أتصل بهم وأنبّههم إلى الخطر الذي يسعى إليه الروس. وذهبت فعلاً في سفرة سرّيّة في سنة ١٩٧٧ إلى أمريكا، والتقيت ببعض الشخصيات الأمريكية المسؤولة ممن يمكنهم السيطرة على البيت الأبيض، ونبّهتهم إلى خطر ما كانوا متنّبهين إليه إلا بعد ما صار الانقلاب في أفغانستان. وقالوا: لو لم ينبّهنا فلان إلى هذا الخطر لما تنبّهنا. وأعادوا الصلات مع باكستان، وأعطوها الأسلحة التي كانوا أوقفوها.

ولما بدأ المجاهدون بمقاومة السوفييت أيدهم العالم العربي والعالم الإسلامي. وأمام إصرار السوفييت على الحرب كان لابد لي من التدخل، وإفهام الروس خطأ محاربتهم للمجاهدين. وجاءتني دعوة خاصة من الروس سنة ١٩٨٦، فقلت لهم: لا آتي لمجرد زيارة المسلمين، أما إذا كان مجيئي للمباحثات من أجل قضايا المسلمين فأنا مستعد. فوجهوا لي الدعوة، ولكن صادف أن جاءتني دعوة سابقة من الصين، فاعتذرت للسوفييت فأجّلوا الدعوة إلى سنة ١٩٨٧. وفي هذه السنة ذهبت إلى قصر الكرملين، وكان غروميكو رئيساً للجمهورية، ولكن المسيطر هو سكرتير الحزب غورباتشوف، وكان لقائي بشيفرنادزه وبعض المسؤولين، وكانت الثورة الأفغانية على أشدها. وبحثت مع المسؤولين السوفييت القضية الأفغانية، وحاولت إقناعهم بأن حربهم للمجاهدين ليس في مصلحتهم؛ لأن الأفغان كانوا واقفين في وجه الإنكليز الذين احتلوا الهند، وأرادوا أن يحتلوا أفغانستان لتكون ممراً لهم إلى روسيا، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على الأفغان. فما مصلحة روسيا في الاعتداء على

الأفغان واحتلال بلادهم، وهم الذي وقفوا في وجه العدو المشترك الإنكليز؟ إنه ليس من مصلحة السوفييت الاصطدام بالعالم الإسلامي والعالم العربي. ورأيت أن كلامي ترك أثراً في نفوسهم، ووعدوا بالخروج من أفغانستان.

واجتمعت بعد ذلك بالمجاهدين، وأفهمتهم أن القتال لن يجدي؛ لأنه سيوقع الخراب في البلاد، وروسيا دولة كبرى، فلابد من العمل السياسي أيضاً، وقد تسنح الفرصة للتفاهم مع رئيس جديد قادم إلى روسيا، لديه رغبة في التسامح مع الأديان، فليس من المصلحة الاستمرار في القتال والبلاد تخرب، حتى إذا تحررتم في يوم من الأيام فلن تجدوا أمامكم إلا خرائب. وقد تفاهمنا مع الروس على إيجاد مخرج للقضية الأفغانية، فما هي شروطكم؟ كانوا منقسمين في الرأي حول الذهاب إلى المفاوضات؛ لأن الرأي السائد لديهم أن الحرب ونتائجها لهم. فقلت لهم: لن تصلوا إلى هذا. أمريكا تساعدكم، لأنكم في حربكم للروس تنهكون عدوّها، ومن مصلحتها استمرار هذه الحرب. أما إذا اقتربتم من هدفكم، وهو إقامة الدولة الإسلامية، فستقطع عنكم أمريكا المدد؛ لأن في استمرار الحرب سفكاً لدماء المسلمين ودماء الشيوعيين، وهذا ما تريده أمريكا، فأنتم بإصراركم على الحرب ترضون أمريكا من حيث لا تشعرون، فاقتنع المجاهدون بوجهة النظر هذه، وتوصلنا إلى أحجية التفاهم مع السوفيت على أساس إجراء انتخابات بعد وقف الحرب، تقوم بها لجنة دولية. ومن يحوز على الأكثرية يستلم الحكم. ولضمان موافقة الروس على مشروع كهذا، وحتى لا يخرجوا منكسرين، ويسحبوا عميلهم ويطردوه، أقنعناهم أن يعين هو الحكومة التي ستجري الانتخابات، على أن يستلم الحكم من يحوز على الأكثرية، سواء أكانوا من الشيوعيين أم من المجاهدين، وكان المجاهدون مسيطرين على ثلاثة أرباع الدولة، والأكثرية

معهم. وبذلك اقتنع المجاهدون واقتنع السوفييت، وكان هذا الاقتراح بالاتفاق مع الملك فهد، وأرسل السوفييت فولنستوف للالتقاء المجاهدين، وكانوا ممتنعين عن اللقاء بالسوفييت. وكان الاجتماع بالطائف. ولم أستطع حضور هذا الاجتماع، إذ كان لديّ موعد في اليونسكو من أجل مشروع إسلامي أرأسه للكتابة عن الإسلام، وهذا الموعد مضروب منذ سنة؛ ولذلك لم أتمكن من العودة من موسكو إلى المملكة مباشرة،. وتم التفاهم أن يرسل السوفييت وفدهم للالتقاء بالمجاهدين على أرض المملكة. وهنا حدثت أخطاء من إخواننا المجاهدين. فقد نزل الفريقان المجاهدون والسوفييت في فندق الطائف، على أن يكون الاجتماع في قاعة الاجتماع فيه. وكان المكلّف بترتيب هذا الاجتماع الأمير تركي الفيصل رئيس المخابرات السعودية، فطلب من الأفغانيين أن ينزلوا إلى قاعة الاجتماع أولاً، ثم يأتي السوفييت، فيرحب بهم الأفغانيون. فرفض هؤلاء ذلك قائلين: نحن لا نقوم لكفار. وأصبح الموقف حرجاً وخصوصاً إذا فهم السوفييت موقف الأفغانيين.

ولكن تمكّن الأمير تركي بنباهة وذكاء من حل هذا الإشكال بأن قال للأفغان: تخرجون أنتم وهم في آن واحد، متجهين جمعياً إلى القاعة، ونوصي رجال المراسم بأن يمشوا معكم ببطء، ويمشوا مع السوفييت بسرعة، وبذلك يدخلون القاعة قبلكم من حيث لا يشعرون. وتم ذلك، ووصل الوفد السوفييتي إلى القاعة وجلسوا قليلاً، ودخل بعدهم الأفغان. ووقف السوفييت واستقبلوا الأفغان. وبذلك سارت الأمور على ما يرام. ولكن ربّاني ذهب بعد ذلك وأعلن في الصحف أننا رفضنا أن نقوم لهم، وجعلناهم يقومون لنا. وهنا انزعج غورباتشوف جداً، ولام شيفردنادزة وأنّبه قائلاً: كيف ترضون أن يدخلوا بعدكم ثم يقولون ما قالوا؛ ولذلك أخفقت المهمة التي جاء الفريقان من أجلها،

واستمرت الحرب وسبّبت خراباً أكثر. وكنت نبّهت المجاهدين إلى أن الروس سيذهبون إلى أمريكا قريباً للتفاهم معهم. فإذا تم هذا التفاهم بينهم فسيستمر السوفييت بضربكم، وستقطع أمريكا عنكم السلاح. وفعلاً تم هذا التفاهم، وصارت أمريكا تعطي المجاهدين السلاح الذي يساعد على دوام الحرب لا على إحراز النصر. وهدفها أن يفني الفريقان المتصارعان بعضهما بعضاً.

٤٥- زيارة الصين

س هل هناك ما تتحدثون عنه في زيارتكم للصين؟

= دعيت إلى الصين سنة ١٩٨٦ بغير سعي مني، وإنما عرض بعض الأشخاص ممن لهم صلة بي في مؤتمرات دولية، وذهبوا إلى هناك لمسائل تجارية، عرضوا اسمي، وكانوا قد أخذوا عنواني، فدعوني. وكانت بعض الجمعيات الصينية قد زارتني ورغبت إليّ بزيارة الصين للتعرف على أوضاع المسلمين هناك، كما جاءني عالم من علماء الصين وأبدى رغبته ورغبة علماء الصين من المسلمين بزيارتهم، وقد وجهت إليّ الدعوة بصفتي رئيس مؤتمر العالم الإسلامي. فاستأذنت الملك فهد بالذهاب، وألّفت وفداً مشكلاً من الأمين العام للمؤتمر الإسلامي وعدد من الأشخاص من مناطق العالم الإسلامي، واستُقبِلنا استقبالاً حسناً من وزارة الخارجية الصينية، وأعدّوا لنا برنامجاً لزيارة رئيس الوزراء وزيارة المناطق الإسلامية، وصادف في اليوم الثاني لوصولنا مجيء ملكة إنكلترا للتفاهم حول قضية هونغ كونغ؛ ولذلك اعتذر رئيس الوزارة عن مقابلتنا، وحضر نائبه، واجتمعنا به في رئاسة الوزراء بحضور جميع أعضاء الوفد، فقال: نحن الآن ضد الثورة الشيوعية الثقافية، ولم يعدلنا نشاط

لمحاربة الأديان، ونريد السلام؛ ولذلك دعوناكم، ونحن مستعدون للتعاون على كل ما فيه مصلحة بيننا وبين العالم الإسلامي. فقلت له: إذا كنتم تريدون السلام، فنحن نعبد الله الذي من أسمائه الحسنى (السلام) وعلى سبيل النكتة والمزاح قلت له: ياليت كل شعب الصين أيضاً يعبد السلام. ولكننا نريد أن نتعرف على أي درجة من السلام، فقال: المسلمون يمكن أن يأخذوا حريتهم. فقلنا: هذا شيء طيب، لا يكاد أحد أن يصدقه. ولكننا حريصون على أن نرى حقائق ووقائع صريحة واضحة تؤيد هذا الكلام.

٤٦- مؤامرات المخابرات الدولية

س هل لكم ما تضيفونه حول المؤامرات التي تحاك لأمتنا عن طريق أجهزة المخابرات الدولية؟

= من أبرز ما أذكره في هذا المجال ما نشرته مجلة المجلة في شهر تشرين الأول ١٩٩٠ في الصفحتين ١٦، ١٧ عن أحد مؤسسي الـ CIA (مايلز كوبلاند) في مقال طويل عن نشاطه السياسي بوصفه عضواً مؤسساً في المخابرات الأمريكية الخارجية، فقد قال جواباً على سؤال المجلة: ما رأيك في قضية العراق: قال: نحن لنا عند صدام فريقان، فريق أمريكي سحبناه، وفريق آخر يحمل الجنسية الأمريكية باق عنده، وهذا هو الذي سيهدمه، وهذا الفريق هو الذي تعتمد عليه الـ CIA لمعرفة كل شيء يجري في مجلس الثورة في العراق أو داخل حزب البعث. وأذكر بأني لما قرأت هذا الكلام قلت: لقد فضح هذا الرجل أموراً وكشف أسراراً فكيف سُمِح له بنشرها؟ فاذا هو يموت بعد أسبوع من تاريخ تصريحه هذا كما جاء في مجلة المجلة، مع أنه بدا في الصورة سليماً نشيطاً قوياً، ليس فيه ما يدل على أثارة من مرض، ولما قرأت نبأ وفاته قلت:

قتله اليهود. أذكر هذا بالإضافة إلى ما ذكرته في ص ١٧٥ عن دوره في الانقلابات التي قامت في البلاد العربية، وأنه كان مستشاراً لحسني الزعيم، ثم مستشاراً لأديب الشيشكلي، ثم مستشاراً لجمال عبدالناصر.

٤٧- الصراع على البترول وحرب الخليج

س **هل لديكم ما تقولونه حول الصراع على البترول في دول الخليج، وما يكتنف هذا الصراع من ملابسات ومؤامرات؟**

= رفضت البلاد العربية أن يكون فيها قاعدة عسكرية أجنبية. ولا بد من حماية البترول؛ ولذلك قدم الأمريكان مساعدات عسكرية لدول الخليج، ولكنها لم تتجاوز الأسلحة التقليدية، وكان السلاح ممنوعاً عن دول الخليج حتى إذا قام صدّام بعدوانه على الكويت تغيّر الوضع. وكان التخطيط أن تقوم إسرائيل بقمع عدوان صدّام؛ لأن أمريكا كانت مقيدة بقرار من الكونجرس بعد خروجها من فيتنام ألا تدخل في حروب. وكانت إسرائيل مطمئنة إلى أن الكونجرس لن يأذن لأمريكا بالتدخل. وكانت إسرائيل في الوقت ذاته تلعب على الحبلين، فهي في الوقت الذي تعدّ جيشها للتدخل تشترط ألا تتدّخل إلا إذا فرِض الصلح بينها وبين المملكة، ومندوبها يجتمع في فيينا بمندوب صدام سعدون حمادي، لأجل عقد معاهدة عدم اعتداء بينها وبين صدام كما ذكرت جريدة القدس. وقد تم الاتفاق بينها وبين صدام على أن يعدّل الدستور ويقيم الاشتراكية، وقد أعلن صدام دستوره البعثي الاشتراكي، واشترط أن يكون رئيس الجمهورية بعثياً، وأزال من الدستور السابق مادة دين الدولة الإسلام. وما كان يعلنه صدام من تصريحات ضد إسرائيل إنما كانت للاستهلاك المحلّي، ليلتف الناس حوله. وكذلك تهديده الذي أعلنه للكونجرس والشتائم التي وجهها لأمريكا. وبما أن

المعروف أن أمريكا لا تستطيع دخول الحرب إذا هاجم الكويت، وليس هناك قوة مهيّأة للدخول في حرب إلا إسرائيل، أصبح من الواضح نجاح المخطط الإسرائيلي في تدخّلها ضد صدّام ووصولها إلى الصلح بينها وبين المملكة، وإطلاق يد صدّام في تطبيق الاشتراكية فيها وتوزيع الثروة. ولكن اجتماع مندوبها بمندوب صدام سعدون حمادي انكشف بعد ذلك لأمريكا، وكان عاملاً مهماً في إقناع بوش لأعضاء الكونجرس بالموافقة على التدخل في حرب الخليج في غضون ساعات. وكانت مفاجأة لأمريكا مزعجة أن تقوم إسرائيل باتفاقيات ومباحثات عدم اعتداء سرّية بينها وبين صدام. وكانت مفاجأة لإسرائيل مزعجة أيضاً أن يوافق الكونجرس على التدخل في خلال ساعات، ولا علم لإسرائيل بذلك. ولم يجد بوش صعوبة في إفهام أعضاء الكونجرس، وفيهم كثير من أنصار إسرائيل، أن اعتداء صدام وراءه السيطرة على البترول العربي، وانهيار الاقتصاد العالمي كله، وأعطى الكونجرس إذنه بالتدخل في حرب الخليج، وفي اليوم الثاني من موافقة الكونجرس أصيبت إسرائيل في عقلها، إذ ضاعت عليها الفرصة الذهبية بالسيطرة على منابع البترول.

كان الأمريكان لا يتوقعون أن يهاجم صدام المملكة؛ ولذلك لم يكن لديهم مانع من تدخّل إسرائيل. ولكن لما علموا بصلاته بإسرائيل ومذاكرتهما بمعاهدة عدم اعتداء، ورأوا حشده (١٥٠) ألفاً على الحدود الكويتية من جانب الفاو، مع (٢٠٠٠) دبابة، وحفره الخنادق، وإخراج التراب ليصنع منه حواجز في وجه الدبابات، لما رأوا ذلك كله أيقنوا أن صدام حسين لا يريد الكويت وحدها، بل يريد أكثر من ذلك بكثير.

س **كيف موّه صدام على العرب وعلى أمريكا تحركاته المشبوهة وحشوده المكثّفة؟**

= لقد وقف العرب إلى جانب صدام في حربه لإيران، وفي مؤتمر القمة الذي

دعا إليه في بغداد استنجد بالعرب وأنجدوه. ولما توقّفت الحرب العراقية الإيرانية بدأت قواته تنتقل من الجبهة الإيرانية وتحتشد حول دول الخليج. وكانت الأقمار الصناعية الأمريكية ترصد تحركات قواته، فتبين لها أن (١٥٠) ألفاً من الجنود بمعسكراتها وإمداداتها تعسكر في الصحراء، وتنقل إليها يومياً كميات هائلة من المياه، فسأله الأمريكان: ما هذا؟ قال: يوجد بيني وبين بعض دول الخليج مشكلات، لكن لن أدخل محارباً إلى بلد. فقالوا: نحن لا نتدخل في مشكلاتكم حلّوها أنتم بأنفسكم. وهدأت أمريكا واطمأنت. وراح صدام يحشد حشداً آخر في شمال المملكة إلى الغرب كثيراً من جهة إيران. وهنا انكشفت نيّاته وبرزت أطماعه.

س ما رأيكم في قبول المملكة بالتدخل الأمريكي في حرب الخليج، وكيف أثبتت المملكة كفاءتها في تلك المحنة؟

= كان الأمريكان محتاجين إلى إحضار نصف مليون جندي إلى أرض المعركة. وما كانوا منتظرين أن تسمح لهم المملكة بذلك. ولو لم تسمح لهم لضغطوا عليها لتقبل الصلح مع إسرائيل، لتكون القوة البديلة. وفي هذه القوة البديلة الشرّ كله. ولو تم - لا سمح الله - لا شتعل العالم العربي كله من مراكش إلى الخليج ووقف ضد أمريكا وإسرائيل، ولاختلط الحابل بالنابل، ولاحترق البترول وآل إلى صدّام. ولكن المملكة أذنت لهم. وأذن الكونجرس. ولما جاءت القوات الأمريكية وجدت تسهيلات وخدمات لا تتسع لها أراضي إسرائيل ولا تقدر على القيام بها؛ ذلك أنها استقبلت ٣٧ دولة غربية بأساطيلها ومعداتها وطائراتها، منها ٤٥٠ ألفاً من الجيش الأمريكي و ١٦٠ ألفاً من بقية الدول الـ ٣٧، يضاف إليها ١٧ دولة عربية وإسلامية، اشتركت في الحشد. لم تضق المملكة بـ ٧٠٠ ألف جندي وبمعداتهم وبمستلزماتهم، ولم يشعر أحد في المملكة

بضائقة في الغذاء وغيره من الضروريات. وما كان يتصور الأجانب الذين حضروا في تلك الأيام إلى المملكة أنها على هذا المستوى العالي من القدرة على تقديم الخدمات والضروريات للأعداد الكثيرة الوافدة إليها؛ لأنهم لم يعرفوا التدريب العملي الذي يتم كل عام في المملكة في عشر ذي الحجة، إذ يفد إلى المملكة الحجاج الذين يبلغ عددهم في هذه الأيام قريباً من مليوني حاج. يهبطون مكة المكرمة، فيجدون فيها طوال مدة إقامتهم السكن والغذاء والفواكه والماء وكل ما يطلبه الإنسان، متوافراً في كل مكان، وبأسعاره العادية المعروفة. وهذا التدريب العملي لاستقبال الحجاج دأبت على القيام به مكة المكرمة منذ خمسة عشر قرناً أباً عن جد، واليوم تنتشر آلاف السيارات لنقل الحجاج، ثم تبقى مهيأة لموسم آخر.

وقد دهش الوافدون من الأجانب من تيسير المواصلات ونصب الخيام وإنشاء المعسكرات، وسائر الخدمات السريعة، ولو نزل هذا العدد في إسرائيل لعجزت عن تقديم الخدمات التي وجدوها في المملكة. ومنذ ذلك الحين انتقلت المملكة في نظر المراقبين من العسكريين من دولة ذات وزن عادي إلى دولة ذات وزن عال في حرب عالمية. لقد قدمت المملكة للقوات ما تحتاجه من تموين ووقود، قدمته لـ٧٠٠ ألف جندي، ولخمسة آلاف طائرة، ولأساطيل خمس وعشرين دولة، ناقلة خبرتها في خدمة الحجاج إلى خدمة القوات المسلحة المرابطة على أرض المملكة، وكما أن أحداً من الحجاج لا يشعر بنقص في الغذاء والماء وسائر المتطلبات، مع أن عدد الحجاج أكبر بكثير من عدد الجنود، كذلك لم يشعر أحد في المملكة بأي نقص في مرافق الحياة في أثناء وجود القوات المسلحة على أراضيها. وهذا ما لا تستطيعه إسرائيل، ولا يمكن أن تقوم به.

٤٨- الهجمة العالمية على الإسلام

س　هل لكم أن تحدثونا عن الهجمة العالمية على الإسلام؟ ما أسبابها ودوافعها ومن وراءها؟.

=　لقد حرصت إسرائيل على الاشتراك فوراً في القوات المتعددة الجنسيات، وكانت مهيّأة لذلك، ولكن لم تتحقق أمنيتها للأسباب التي سبق بيانها، وأهمها الإجماع في أمريكا على عدم وجوب تدخلها فوراً. وهنا حذرت أمريكا إسرائيل من التدخل؛ ولذلك راحت أجهزة إسرائيل تعمل بنشاط على إقامة ندوات متتابعة في مختلف دول العالم، تحذّر فيها من الإسلام زاعمة أنه أصبح أخطر من الشيوعية. أولى هذه الندوات كانت بدعوة من معهد الشرق الأوسط في واشنطن في نهاية عام ١٩٩١، وهذا المعهد تابع لوزارة الخارجية الأمريكية، وقد اشترك في هذه الندوة خبراء يهود، ومجموعة من أساتذة التاريخ والدراسات المتعلقة بشؤون الشرق الأوسط، كما حضره بعض المسؤولين في وزارة الخارجية الأمريكية، وكان عنوان الندوة: أمريكا والإسلام. وكتبت الصحف الأمريكية: كان وراء هذه الندوة وما أعلنته من توصيات منظمة إيباك اليهودية الأمريكية. ولم ينتبه أحد أن في عنوان هذه الندوة رداً على كتابي الذي أصدرته بعنوان أمريكا وإسرائيل في سنة ١٩٩٠.

وبعد شهر عُقِدت ندوة ثانية في بروكسل تحت رئاسة ولي عهد بلجيكا، بعنوان (خدمة البوسنة والهرسك) أنقذوا أخاكم اليهودي من العرب والإسلام. وكان وراء هذه الندوة منظمة (بناي برس) التي هي أكبر من إيباك اليهودية الأمريكية، وقد حضرها كل رؤساء الحكومات في أوروبا كما كتبت الصحف حينذاك. ثم تبع هذه الندوة بعد ذلك بقليل أيضاً ندوة ثالثة في معهد (بيونرفك)

التابع لوزارة الخارجية البريطانية مباشرة. وقد لفت المجتمعون في هذه الندوة الأنظار إلى خطر الإسلام، وقالوا: إنه يُخشَى أن يحلّ محل الشيوعية. ولم تلبث مشكلة البوسنة والهرسك المسلمة أن ظهرت عقب ذلك في قلب أوروبا.

وأعلن زعيم صرب البوسنة والهرسك الحرب الصليبية الجديدة على الإسلام، وأنه الخطر على الحضارة الأوروبية. وثبت علناً أن حركة البوسنة والهرسك الصليبية كانت مدعومة من إسرائيل أيضاً. ومما قيل في هذا أن إسرائيل كانت تمد الصرب بالبترول الذي تحصل عليه من أمريكا.

أما الدافع الثاني لليهود على محاربة الإسلام، وهو الأهم، والذي صعقت له المنظمات اليهودية، فهو وصول الخبر إليهم بأن الإسلام بدأ ينتشر بسرعة في صفوف الجيش الأمريكي الذي جاء لتحرير الكويت، وأنه قد أسلم منهم عدد كبير، وعُيّن لهم إمام يصلي فيهم، وطلبوا أن يعتمروا، فاعتمروا في مكة المكرمة، ولما عاد هؤلاء المهتدون إلى بلادهم توجّهوا إلى الكونجرس الذي جرت العادة في افتتاح دورته السنوية أن يتلى نص توراتي يهودي ثم يتلى نص إنجيلي، فطلبوا أن يتلى نص قرآني أيضاً. وقد عزّزوا مطلبهم هذا بأنهم مواطنون أمريكان مسلمون، ومن حقهم أن يتلى النص الإسلامي في افتتاح الدورة. ونزل الكونجرس عند طلبهم واستجاب، وتُلِيَ النص القرآني في الكونجرس الأمريكي في افتتاح دورته لعام ١٩٩٢ لأول مرة في تاريخ أمريكا. وهذا ما أطار صواب الصهيونية العالمية، وجعلها تتحرك وبغير وعي لإقامة ندواتها الثلاث سالفة الذكر لمحاربة الإسلام وتشويه سمعته في كل من واشنطن وبروكسل ولندن، تمهيداً لإعلان الحرب على دولة البوسنة والهرسك.

ولما انحازت أمريكا في موقفها من البوسنة والهرسك إلى الصرب استقال

ثلاثة وكلاء وزارات في الخارجية الأمريكية، وقامت المظاهرات من الرجال والنساء، ودخلوا إلى البيت الأبيض مطالبين الحكومة بالتدخل العسكري لصالح البوسنة والهرسك.

وأدى تناقض أمريكا في سياستها مع اليهود والمسلمين إلى ردة فعل لدى كثير من الأمريكان وغيرهم من مختلف الطبقات الاجتماعية، رجالاً ونساءً، فسارعوا إلى إعلان إسلامهم في الولايات المتحدة وإنكلترا وألمانيا، وخصوصاً في إنكلترا، حيث أسلم عدة آلاف من الرجال والنساء، وكذلك في ألمانيا حيث أسلم عدة آلاف بعد صدور كتاب هوفمان سفير ألمانيا السابق في المغرب الذي أسلم، وعنوان هذا الكتاب (الإسلام سنة ٢٠٠٠).

وكان من أثر ردة الفعل على التهجّم اليهودي على الإسلام كلمة السيدة تاتشر الأولى منذ أشهر في الدفاع عن الإسلام، ثم أعقبها بعد قليل خطاب ولي عهد بريطانيا في جامعة أكسفورد وبدعوة من مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية الذي يعدّ الأمير تشارلز ولي العهد راعياً له.

وبعد شرح الدوافع الأساسية التي دفعت الصهيونية العالمية إلى ذلك التحرك الإعلامي العالمي ضد الإسلام، يسرني أن أشيد بكلمة رئيس المعهد العربي الأمريكي الدكتور جيمس زغبي الذي أسقطته اليهودية العالمية في الانتخابات الأمريكية، وهي الكلمة التي نشرتها جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١٩٩٧/٧/١٤، بعنوان: (حرب بعض الصحف الأمريكية للإسلام) وقد صرح في كلمته بأسماء الصحف الأمريكية، وأن أولاها صحيفة الواشنطن بوست، وثانيتهما النيويورك تايمز، ودعا إلى ضرورة التعريف بحقائق الإسلام التي شوهها أعداء الإسلام في أمريكا وفي كل مكان، مع أنه مسيحي.

٤٩- اقتراح لرد الهجمة العالمية على الإسلام

وعلى ضوء ذلك كله أرى مع السيناتور جيمس ضرورة التعريف بحقائق الإسلام، ووجوب إيصال ثوابتها الحضارية والحيوية الإنسانية العظيمة إلى الرأي العام الأمريكي، تلك الحقائق والثوابت التي يجهلها الغرب، والتي يقوم عليها الإسلام، وأن يكون ذلك التعريف بكل وضوح وبكل إيجاز مستمداً بجملته من دعوة القرآن الكريم الصريحة إلى الحياة، وذلك في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ إنها دعوة صريحة واضحة مقتضبة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وهي القاسم المشترك لدى دعاة الإسلام، والمنطلق الأساسي للعمل ولبحث مختلف الموضوعات في المؤتمرات الإسلامية من غير خلاف.

ولابد من الرؤية الواضحة لمبادئ الإسلام ومنطلقاته يجتمع عليها الدعاة في كل مكان. وهذا ما أوجزته للصحافة الأجنبية الكبرى والتلفاز الإسباني عام ١٩٩٢ بمناسبة افتتاح المركز الإسلامي ومسجده الكبير في مدريد.

وقد كان لوضوح الفكر الإسلامي الحضاري الإنساني أطيب الأثر في نفوس المجتمعين في مدريد.

وقد أوجزت ثوابت رسالة الإسلام العالمية في النقاط الآتية:

١- إن رسالة الإسلام في صميمها دعوة عالمية إلى الإيمان بالله، خالق السماوات والأرض، وهي على وجاهتها، لا تكره أحداً على اعتناقها؛ إذ ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ كما في صريح القرآن الكريم، ولكنها تلزم جميع الناس بحقيقة لا استثناء فيها، وهي: «**أن الخلق كلهم عيال الله، وأن أحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**». وأن الناس كلهم مسؤولون عن ذلك مسؤولية لا مناص منها ولا خيار فيها.

وبذلك نقل الإسلام الناس من قومية الأديان المتناحرة المختلفة إلى عالمية الإسلام الإنسانية لأمم متعارفة متآلفة متعاونة على الأمر بكل ما عُرِف خيره للإنسانية، واستبعاد واستنكار كل ما عُرِف شرُّه على الإنسانية، وذلك من أجل أن يعم السلام في الأرض، وينعدم الإفساد فيها. وتعلن عقيدة الإسلام أن كل إنسان عمل خيراً يراه أمامه ويجزى عليه خيراً، وكل من عمل شراً يراه أمامه ويُجازى عليه. وذلك مفهوم قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾.

٢- إن رسالة الإسلام دعوة عالمية إنسانية للتعارف والتعاون على الخير، كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾. فهي دعوة إلى مختلف الأمم والشعوب والأوطان والأديان إلى التعارف والتعاون على البر والتقوى والعمل الصالح، لإيجاد حياة كريمة طيبة لائقة بالإنسان الذي كرّمه الله واستخلفه في الأرض، ولا تمايز فيها لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح.

٣- إن الخطاب في هذه الدعوة والعقيدة إنما هو للعقل؛ ولذلك نوّه القرآن الكريم بالعقل، وأشاد بالذين يعقلون، كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾. وعدّ الذين لا يعقلون صماً وبكماً وعمياً، فقال: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾. وقال: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾. وقال: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ﴾.

وجعل الإسلام الحوار في العقيدة والدعوة بالعلم وبلغة الحياة وبالقول الحسن: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾. ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾.

وهدف الإسلام من هذه القِيَم الثوابت أن يجعل الناس متآخين متضامنين متكافلين، قادرين على تحقيق أطيب الآمال، ومعالجة جميع الآلام.

وليس علينا بعد ذلك إلا أن نعمم ثوابت الإسلام هذه في أسطر معدودة، تُعلّق في جميع المراكز الإسلامية، وفي سفاراتنا مترجمة إلى اللغات الأجنبية الكبرى العالمية، بحيث يحيط القارئ علماً بثوابت الإسلام في لحظات، وأن تقوم عليها بعد ذلك جميع المؤتمرات الإسلامية، وتنطلق منها في معالجة جميع قضايا الإسلام والإنسان في كل مكان.

ولا ننسَ أن نجعل يوم افتتاح مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية يوماً مشهوداً، نعلن فيه تلك الثوابت الإلهية العالمية والإنسانية في رسالة القرآن للناس، من أجل تحقيق السلام في الأرض، ورسالة القرآن وحدها هي التي تضع قواعد النظام العالمي الإنساني الجديد المنشود اليوم. وهي الطريق لتحقيق ما وعد الله به رسوله والمؤمنين، إذ قال: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً**﴾. وهذا ما راحت بعض الدراسات العلمية العالمية الحديثة تشير إليه، وبخاصة كلمة السيدة (روبين راين) الباحثة في الحركات الإسلامية في المغرب، إذ قالت في دراسة أخيرة لها نشرت في شباط ١٩٨٨، ونقلتها مجلة المجلة الصادرة في الشرق الأوسط، وأكّدت الباحثة فيها أن الإسلام سيصبح أهم (الأيدولوجيات) في العالم في نهاية القرن العشرين، وإنا بذلك لمؤمنون.

وحول ما يمكن عمله في المؤتمرات الإسلامية أرى أن تُدعَى نخبة من كبار علماء العالم الإسلامي لحضور افتتاح مجلس الشورى، ثم يعقدون مؤتمراً إسلامياً لمدة يومين للتعريف بحقائق الإسلام وثوابته، وتكوين رؤية واضحة لهذه الحقائق والثوابت، وتعجبني عبارة في التوراة تقول: «إذا لم يكن لدينا رؤية واضحة فيما نعتقد هلك الناس».

ويعلن العلماء في هذا المؤتمر تلك الرؤية الواضحة للإسلام وحقائقه وثوابته الإنسانية العالمية، وأن ما عداها جهل بالإسلام وافتئات عليه. ثم يتجهون لمعالجة مشكلات قطرين إسلاميين عزيزين على الإسلام والمسلمين، هما الجزائر ومصر، تلك المشكلات التي اتخذ منها أعداء الإسلام حجةً كاذبة، فوصفوا الإسلام بالإرهاب والإخلال بالأمن ومعاداة السلام، وقالوا: هذا هو الإسلام. وواجب العلماء في هذا المؤتمر أن يعلنوا بالإجماع للعالم ثوابت وحقائق الإسلام العالمية الإنسانية التي تنافي تلك الأوصاف، وأن الأمر بالمعروف يكون بما عُرف خيرُه، وأن النهي عن المنكر لا يجوز بحال من الأحوال بارتكاب منكر آخر يؤدي إلى الفوضى والإخلال بالأمن وإراقة الدماء البريئة، فهذا كفر بالإسلام وصد عن سبيل الله بصريح القرآن والسنة. وقد يكون من المستحسن بعد ذلك أن يُؤلَّف، إن أمكن، وفد من كبار العلماء ممن توضّحت لهم الصورة، يزورون المعتقلين في القطرين المذكورين بإذن وموافقة المسؤولين فيهما، ليشرحوا للشباب المندفع حقيقة الإسلام وثوابته التي تناقض تصرفاتهم الطائشة، وعسى أن يجعل الله في ذلك مخرجاً وفرجاً، ويكون ذلك، إن تحقق، باكورة طيبة لمجلس الشورى في المملكة العربية السعودية، وسجلاً ذهبياً في تاريخ المملكة، ومأثرة خالدة، تضاف إلى مآثر خادم الحرمين الشريفين.

إن الإصلاح لا يكون دون إمام. وقد أجاب الرسول ﷺ الرجل الذي سأله عما يفعل إذا لم يستطع الإصلاح: «**إن لم تستطع فعليك بخويصة نفسك**». ولقد كان الرسول ﷺ يمر على آل ياسر، وهم يعذبون فيقول: «**صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة**». فالفرد يقدم على الإصلاح إن كان قادراً عليه. أما إذا كان غير قادر، فلا يُسمحَ له بالقيام بأي عمل إصلاحي؛ لأنه سيفسد أكثر مما يصلح، ويوقع الاضطرابات والفوضى. ومن هنا كان من غير الجائز الخروج على الإمام أو رئيس السلطة في حالة عدم استطاعته التغيير. ويُكتَفى في هذه الحالة أن تُنكرِ المنكر

بقلبك أما أن تأتي وتتعرّض للناس الآمنين، فتعطّل السياحة، وتخيف المصطافين أو تغتال أحداً من المسؤولين، فهذا كله ليس من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولقد بيّن الرسول ﷺ القاعدة الشرعية في هذه المسألة بقوله: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**».

س **إن مشكلة الجزائر في أن الناجحين في الانتخابات سُلِبوا حقهم في قيادة الشعب، وقامت السلطة العسكرية ضدهم؛ ولذلك يعدون أنفسهم مظلومين.**

= أنا معك، لقد أخطأت السلطة العسكرية حين فعلت ذلك، ولكن ما الحل؟ ليس الحل الخروج على هذه السلطة إذا كنت ليس قادراً على تغييرها. بل الحل الصبر والمصابرة حتى يملك أصحاب الحق القدرة على التغيير.

ثم إن الإخلال بالأمن يهدد حياة الإنسان وحقوق الإنسان، والإسلام بقي ثلاث عشرة سنة يعالج حقوق الإنسان، ويدعو إلى صيانتها، ففي سورة الماعون يقول الله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾. ثم يقول: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾.

إن هذه السورة تدعو إلى صيانة حقوق الإنسان، وإلى كفالته وإسعافه وحفظ حياته.

ويقول في سورة البلد: ﴿**فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾. وهذه الآيات مكية. والسؤال فيها عن الإنسان، ومسؤوليته عن حياة أخيه الإنسان. وهذا دليل على حفاوة الإسلام بحياة الإنسان وحقوقه منذ أيامه الأولى.

وخيرية هذه الأمة منحصرة فيما تقدم من خير للإنسانية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾. فما هو المعروف؟ هو خير. وما هو المنكر؟ هو شرّ والأعمال الصالحة خير ينعكس على حياة الإنسان، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾. و«**الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**». ولما سأل هرقل أبا سفيان عمّن يتبع الرسول ﷺ قال أبو سفيان: الفقراء. وفي جوابه دليل على أن الرسول أعلن حقوق الإنسان منذ اليوم الأول لدعوته، والتفَّت حوله جماهير الناس. وعندما جاءه الوحي، وعاد إلى بيته خائفاً مذعوراً، يقول: زمّلوني زمّلوني، أحاطت به السيدة خديجة وهي تقول: «واللّه لا يخزيك اللّهُ أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». وهذه هي مفاهيم حقوق الإنسان التي اتصفت بها شخصية الرسول ﷺ قبل الإسلام، وحرص على إعلانها بعد الإسلام.

ودخلت كتابية على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشكت إليه حالها وما هي فيه من بؤس وشقاء. فأحسن استقبالها، واستمع إليها وأعطاها ما لم تكن تحلم به. فقامت من عنده مودّعة شاكرة. فلما مضت قال عمر في نفسه: لقد أنقذتها من البؤس في الدنيا، فَلأُسرع وأنقذها من عذاب الآخرة، فلحقها إلى الباب وقال لها: يا أمة اللّه، ألا تسلمين؟ قالت: أما هذه فلا. ويقول راوي هذا الخبر: فلم يُرَ عمر غاضباً على نفسه مثل ذلك اليوم، إذ خشي أن يكون قد استغل عطاءه لهذه المرأة الكتابية حين دعاها إلى الإسلام، فتكون دعوته بذلك نوعاً من الإكراه. ولا إكراه في الدين.

٥٠- دور الإسلام في نقل الإنسانية إلى عالمية متعارفة

الجديد الذي أوجده الإسلام في تاريخ الإنسانية أنه نقلها من عالمية متنافرة متناحرة متحاربة، لا تفهم معاني الإنسانية، نقلها إلى عالمية متعارفة متعاونة متلاقية، يشهد لذلك ما دار في حرب نجران التي امتدت مئة وعشرين سنة، وكانت حرباً دولية شرسة، يريد المتحاربون إنهاءها فلا يستطيعون، حتى جاء الإسلام، فوجد اليهود لاجئين في المدينة، يتخوفون أن يأتي الرومان إلى المدينة ليحرقوهم، فحماهم الرسول ﷺ.

أما النصارى فكانوا في اليمن تحت حكم الحبشة، خاضعين جميعاً للدولة الرومانية، التي كانت مسيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط، حاكمة جنوبي أوروبا وشمال إفريقيا وغرب آسيا. وقد سار إليهم ذو نواس بجنده ودعاهم إلى اليهودية وخيّرهم بين ذلك أو القتل، فاختاروا القتل، فحفر لهم الأخاديد وأجج فيها النيران وحرّقهم بها، وقد ابتدأت هذه المحرقة سنة ٥٢٣ قبل عصر الرسول ﷺ؛ لأن الرسول وُلِد سنة ٥٧١م. وقد قُتِل في هذه الحرب نحوُ عشرين ألفاً. ففي ذي نواس وأصحاب الأخدود نزلت سورة البروج، وفيها قوله تعالى: ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ** ﴾.

وهكذا كان الصراع بين الرومان واليهود، وظلت الدولة الرومانية تضطهد اليهود، ولم يجدوا الأمان في المدينة إلا في ظل الإسلام.

وبقيت المذابح بين اليهود والنصارى تقوم بين حين وآخر حتى تغلبوا عليها في الفاتيكان، إذ أمروا بوقف لعن اليهود، وبرّؤوهم من قتل المسيح، مع أن التوراة تقول: إن الذي ارتكب منهم الخطأ يُلعن لأربعة أجيال. وعندما زرت البابا قلت له: إن

جريمة اليهود لا تزال قائمة؛ لأنهم يتهمون السيدة مريم بالزنى، ويعدونها زانية، وأن المسيح ابن زنى، فجريمتهم ليست في اتهامهم بقتل المسيح، وإنما هي في رمي السيدة مريم بالزنى.

وفي مدريد قلت للنصارى: إن الإنجيل يقول على لسان المسيح: إنما أرسلت إلى خراف بني إسرائيل الضالة. ولقد قال لكم المسيح: عليكم أن تنتظروا البارقليط، أي المنقذ الذي لا يأتي حتى أذهب، وهو يمجدني ويدافع عني، ويقول لكم ما لم تستطيعوا أن تفهموه عليّ. وقلت للبابا: قل لي: هل جاء دين بعد ألفي سنة يمجد المسيح ويطهر مريم غير ديننا. فأجاب: أتطلب مني تعطيل الإنجيل؟ قلت له نحن نفهم ما يقوله القرآن: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ**﴾. وأنتم تعترفون أن الإنجيل أصابه تغيير وتبديل، وليس عندكم نصوص ظاهرة واضحة لم يصبها التحريف.

نحن المسلمين ندافع عن مريم والمسيح عليهما السلام، واليهود يهاجمونكم، ويرمون السيدة مريم بالزنى، ويدعون ابنها ابن زنى، ومع ذلك لا تتوقف حملاتكم التنصيرية في بلاد المسلمين. وبعد عدة أيام جاء الجواب: لقد أوقفنا التبشير.

وفي أثناء عودتنا من الندوة في مدريد قلت لهم: لقد قلتم إن قراراً بتوقيف التبشير قد صدر، ولكنكم حتى الآن لم تتوقفوا، وتطالبون أن نتعاون معكم، فكيف نتعاون معكم؟ إننا نقف عند قوله تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾. ولا نفكّر بإكراهكم. ولا يوجد دين يدافع عن مريم والمسيح، ويبرّئهما من الزنى غير ديننا الإسلام.

٥١- الإسلام والإنسانية وحقوق الإنسان

س يقول بعض الناس: إن كلمة الإنسانية التي عرفت في عصر النهضة ترادف كلمة الماسونية؛ ولذلك يعترضون على القول بأن في الإسلام إنسانية خشية الالتباس بالماسونية. فما قولكم في هذه القضية؟

= الحركة الماسونية لم تظهر بوضوح إلا بعد الحرب العالمية الأولى. وبعد الحرب العالمية الثانية تكلم كثيرون عن حقوق الإنسان في الحياة، وأنه لا يجوز أن يقع عليه ظلم من غيره. ولكن هذه الأفكار لم تطبق في الأمم المتحدة ولا في غيرها. ومادة حقوق الإنسان أخذوها من الثورة الفرنسية في آخر القرن الثامن عشر، إذ كانت الأراضي مملوكة للحكام، والنظام الإقطاعي يمتلك البشر أرقاء، فأصدرت الثورة الفرنسية وثيقة حقوق الإنسان، أعلنت فيها أن الإنسان يولد حراً، ولا يجوز أن يستعبد.

وهذه المادة نفسها هي مأخوذة من قول عمر بن الخطاب: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً». وقد أخذها جان جاك روسو وأدخلها في العقد الاجتماعي الذي أصدره.

يقول الأمير عادل أرسلان: إنه كان يهتم بالتاريخ، وذهب مصادفة إلى كورسيكا حيث مولد نابليون بونابرت، وزار الكنيسة هناك، وفيها الولادات مسجلة، فنظر فرأى أن أم نابليون عربية موريتانية. ثم مشى في شوارع جنيف بعد ذلك فرأى شارعاً اسمه شارع أبو زيد فسأل لماذا سمي بأبي زيد؟ فلم يجبه أحد. واسترعى انتباهه وأثار اهتمامه تسمية هذا الشارع الطويل العريض بأبي زيد، فسأل، وتابع السؤال، فنصحوه أن يذهب إلى البلدية، ففيها سجل لولادات الشوارع ووفياتها كالسجل المدني. إذا وُلِد الشارع فما سبب

ولادته. وإذا توفي ووُضِع اسم آخر له فما سبب وفاته. وذهب إلى البلدية، فقال له موظفوها: هذا أبو زيد رجل جزائري مسلم هو أستاذ جان جاك روسّو. ومن هنا اتضح أن جان جاك روسّو أخذ قول عمر بن الخطاب السابق الذكر «متى استعبدتم الناس...» من أستاذه هذا أبي زيد، وانطلق يتكلم في حقوق الإنسان، وأصدر عقده الاجتماعي الذي ينص على أن الحاكم والسلطة والناس جميعاً متساوون في كونهم أحراراً.

وهذا شيء جديد على أوروبا، أن الإنسان حر، لا سيد ولا مسود، له الحق أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، سواء أكان رجلاً أم امرأة كما في قوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾. ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ...**﴾. في حين لم يكن للإنسان الحق في نظام الإقطاع أن يتكلم بحرية. والمرأة في التاريخ القديم تحت الوصاية لا ترث.

ومن هناك كانت هذه المفاهيم جديدة لا يعرفها الغرب، وأول ما ظهرت فيه على يد جان جاك روسّو، إذ أعلن أن الناس جميعاً متساوون، وأن الدولة تأتي نتيجة عقد اجتماعي. وهذه المفاهيم ما كانت معروفة إلا في الإسلام، وقد انتشرت عن طريق إسبانيا، وأخذها روسو عن أستاذه أبي زيد. وقد جرّتني المصادفة في قراءاتي عن الثورة إلى معرفة هذه الحقيقة، واطلعت عليها بعد ذلك فيما قال روسّو. ثم اطلعت على ما قاله الأمير عادل. فالعقد الاجتماعي إذاً أخذ فكرته روسّو من الإسلام. وأذكر أني حضرت اجتماعاً سنة ١٩٣٩ وأنا طالب قبل الحرب بشهرين حضره الفرنسيون للاستعداد للحرب، وقد خطب فيه ليون بلوم في قاعة جامعة السوربون، وقال: عمر بن الخطاب إله العدل.

ودخلت بيت صديق من الكونتات، فوجدت فيه محراباً، فقلت له: ما معنى وجوده؟ قال لي: هذا تقليد معماري، وهذا من أثر الهندسة الإسبانية المعمارية.

س **كنا في قرية في إيطاليا على بحيرة كومو، فحدثنا أحد الطلاب العرب فقال: توجد قريتان في الجبال الإيطالية العالية، اسم إحداهما دمشق، والثانية حمص. فهل معنى هذا أن المسلمين كانوا هناك من الشام حتى سموا بهذين الاسمين؟**

= أنا رأيت قريتين متجاورتين في غرب باريس، اسم إحداهما حيان، واسم الثانية سنان. وهما اسمان لأخوين في الجاهلية، تفرعت عنهما قبائل حيان وسنان. وقد اكتشفتهما أثناء تجولي في غرب باريس، ولم أتمكن تحقيق تسميتهما إلا بعد مجيئي إلى هنا سنة ١٩٦٤، إذ عدت إلى هناك وتحققت من ذلك. وهما في منطقة جبلية فيها اصطياف وسياحة، ومعروف أن الشعب السناني هناك ليس فرنسياً، وإنما جاء من الشرق وهو على حضارة راقية وبنى مدينة سانس قبل المسيح بثلاث آلاف سنة.

س **هل في الكتاب الذي أصدرتموه للوفد الأوروبي تعرض لحقوق الإنسان في الإسلام؟**

= فيه المحاضرات كلها التي ألقيتها عن حقوق الإنسان في الفاتيكان وجنيف وستراسبورغ. وفي ستراسبورغ دعانا مجلس الكنائس العالمي من أجل التعاون في الحقوق الإنسانية. وقلت للفاتيكان: إن حقوق الإنسان حسب القانون إما اقتصادية وإما سياسية، فهل نبحث فيهما؟ فقالوا: لا. قلت: لم يبق إلا الحقوق الثقافية. أنتم تقولون: المسيحية تعطي الحقوق الثقافية. وأنا أقول: الإسلام يعطي الحقوق الثقافية. نحن عندنا: «طلب العلم فريضة» وأنتم عندكم: «لكل إنسان أن يتعلم».

وهناك فرق بين التوصية بالعلم، وبين جعله فريضة. ومن هنا كان العلم في الإسلام من حقوق الإنسان الثقافية. إلى جانب الحقوق الاقتصادية والحقوق السياسية والحقوق الاجتماعية. وليس هناك تعبير أدق وأحسن في هذا المجال من قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ... ﴾. وقوله: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ... ﴾.

٥٢- عودة إلى أزمة الخليج (خلفية الأزمة)

س **نرجو أن تحدثونا عن رأيكم ومرئياتكم في أزمة الخليج؟**

= أزمة الخليج لا يمكن أن تفهم إلا ضمن إطار إيجاد إسرائيل في المنطقة، لإحداث اضطرابات وبلبلة في المنطقة العربية، وردّها إلى دويلات متفرقة مضطربة، بحيث لا يكون لديها وقت للتفكير والتخطيط. ولديّ وثيقة أذيعت أخيراً من بعض الإذاعات الإقليمية في أمريكا، فيها ما يشيب له الأطفال من إثارة مشكلات الأقليات، وإنشاء دويلات لها في المنطقة العربية، تقوم دولة للعلويين، ودولة للموارنة، ودولة للشيعة، ودولة للدروز. وقضية الخليج جزء من هذا المخطط.

س **ما هي الوثيقة التي تثبت ذلك؟**

= هناك نص وثيقة إسرائيلية، أعدها الجيش الإسرائيلي في الخمسينيات، تتضمن وجوب بذل الجهود لإيجاد الشقاق الديني بين العرب، وإنشاء دول جديدة في المنطقة، ووجوب الاستيلاء على أراض ذات أهمية جوهرية تسدّ الحاجة لإقامة دولة درزية، ودولة شيعيّة، ودولة مارونية، ودولة علوية، وبخاصة في اللاذقية، ودولة كردية، ودولة قبطية وبخاصة في مصر، وإيجاد مناطق ذات استقلال ذاتي للأقباط في مصر. هذا على أن توزع الأراضي العربية

التي فيها المنطقة الصحراوية بين هذه الدول الجديدة. أما المناطق العربية الأخرى كدمشق فستبقى على حالها. وبذلك يدخلون في مخططهم جبل حوران والمنطقة الجنوبية في مصر وجنوب العراق، وجنوب السعودية.

س أين صدرت هذه الوثيقة؟

= أذيعت هذه الوثيقة في واشنطن في إذاعة محلية، ولخصها القسّ الأمريكي جولي فاليوم، وهو يهودي يتظاهر بالمسيحية، أدخله البنتاغون في وزارة الدفاع ليروّج لفكرة النزوح إلى الشرق الأوسط على أساس إقامة دولة إسرائيل، وأن هذا أمر الله كتبه على كل مسيحي. ويتحدث هذا القسّ في كتاباته الإذاعية في برنامج أمريكي عنوانه: ساعة من أزمان الإنجيل، يذاع في ٣٥٠ محطة تلفزيونية إقليمية، و ٥٠٠ محطة إذاعية كل أسبوع، وقد أعطته إسرائيل طائرة نفّاثة خاصة، ينتقل فيها مسافة عشرة آلاف ميل في الأسبوع، وعنده قصر محاط بحراسة دائمة، وعنده ثلاثة آلاف قسيس يتناوبون في استلام ستة ملايين دولار من إسرائيل. وكل هذا لمواجهة العرب والمسلمين. وقد جاء في أحد النصوص المذاعة في الإذاعات الأسبوعية: أن الأرض الموعودة لبني إسرائيل هي: العراق وسورية وتركية والسعودية ومصر والسودان ولبنان والأردن والكويت، فكل هذه الأرض أرض كنعان الموعودة بها إسرائيل ولا مكان للعرب فيها.

س ما مصدر هذه المعلومات؟

= كتاب جديد مؤيد بالوثائق اسمه (انتحار شمشون) للمهندس حسني إبراهيم، وهو مهندس في الأسلحة، وقد قرأت فيه نصوصاً بالمصادفة منذ بضعة أشهر.

إن إسرائيل وراء أزمة الخليج، وتوجد اتفاقية سرية بينها وبين أمريكا على أن تكون إسرائيل رأس حربة دائمة في الشرق الأوسط، للمبادرة بالعمل

المطلوب قبل أن تجيء أمريكا؛ ذلك أن أمريكا بعد خسارتها في فيتنام وانسحابها منها في مساومات مع السوفييت، قرر الكونجرس أنه لا يجوز لأمريكا أن تشترك في حرب بعد الآن. ومن هنا تم الاتفاق مع إسرائيل على أن تكون رأس حربة لها في الشرق الأوسط؛، ولذلك ألحقوها بالحلف الأطلسي، حتى تكون مستودعات الأسلحة عندها، لا تحتاج إلى طلبها، وهي تتطلع إلى أن تصل حدودها إلى الخليج، وشجعت إسرائيل صدّاماً على تهوراته.

وصدام بعد أن فتحت له الأبواب، وصار لديه سلاح وصواريخ وأموال وحاز على السلاح الكيماوي الثنائي، راح يهدّد ويتوعد في حرب الكويت بحرق ثلث إسرائيل، حتى سورية لم تنجُ من تهديداته لأن على رأسها خصماً له. وهنا تحركت إسرائيل وراحت تطالب بأسلحة جديدة وإمكانات جديدة، وهاجم الكونجرس العراق، فاستنجد العراق بالعرب. وما كان أحد من العرب يريد الذهاب للاجتماع به، ولكن الملك فهد أصر على الذهاب، فاجتمع العرب وأيّدوه، واتخذوا قرارات في ذلك، وهاجموا الكونجرس. وفي اليوم التالي صدرت صحيفة بريطانية تقول: إن تهديدات صدام ليست لإسرائيل، وإنما هي تهديدات للعرب، فهو يريد أن يبرز قوته. فقد جمعهم في تموز وأيدوه، وقام بهجومه على الكويت في ٢ آب. ضرب صاروخاً واحداً على منطقة صحراوية في إسرائيل، في حين وجّه صواريخه إلى السعودية وضرب الرياض وهدّم قسماً من مبانيها. فإسرائيل كانت تأمل أن تتدخل بمجرد طلب من أمريكا، بوصفها رأس حربة مستعدة للتدخل، مستفيدة من هذا التدخل لتسوية وضع الجاسوس الإسرائيلي (بولارد) على وزارة الدفاع الأمريكية الذي حكم عليه في أمريكا بالسجن مدى الحياة، وكانت فرصة لإسرائيل أن تدخل على الخط وتوظف الأحداث لمصلحتها بدفع صدام إلى تلك المغامرة.

لقد ابتدأ صدام ينقل الصواريخ من حدود إيران إلى حدود الكويت بعد توقف الحرب مع إيران، نقلها إلى منطقة الفاو، وجاء بمئة وخمسين ألف جندي معها. ولما سألته السفيرة الأمريكية عن سبب هذه التحركات العسكرية والتحشيدات أجابها بأن بيننا مشكلات نريد حلها دون حرب. وقالت له: نحن لا نتدخل في مشكلاتكم الذاتية؛ ولذلك نشرت الصحف في ذلك الحين أن جواب السفيرة هذا كان بمثابة الضوء الأخضر، أعطته لصدام بالهجوم على الكويت. وبعد أن جمع العرب، وأعطى وساماً للملك فهد، وعقد معاهدة عدم اعتداء، انقضّ على الكويت، وكانت إسرائيل مؤملة أنها هي المجهّزة لتتحرك في بضع ساعات.

س **لكن المعروف أن الملك فهد ما وافق على مجيء أمريكا إلا بعد الاعتداء على الكويت.**

= لا، كانت موافقته عندما علم بالحشود، وجاءت القوات الأمريكية قبل الاعتداء. ولما حصل الاعتداء كانت القوات الأمريكية موجودة، ولكنها ما كانت مهيأة، وإسرائيل كانت تنتظر أن يُطلبَ منها المبادرة لمواجهة هذا العدوان.

كانت القضية قضية بترولية خطيرة؛ ولذلك اجتمع الكونجرس في ساعات وأذن لأمريكا بالتدخل، فأصيبت إسرائيل بخيبة أمل كبيرة، وأرادت أن تشترك في القوات المتعددة الجنسيات؛ لأن جميع الدول التي شاركت لم تكن مهيّأة لجمع ٦٥٠ ألف جندي. ووقع العدوان، ولم تكن هناك دولة مهيّأة لخوض الحرب غير إسرائيل. ولكن أمريكا فوتت على إسرائيل الفرصة بالتدخل خشية أن تشتعل الحرب مع العرب جميعاً إذا تدخلت إسرائيل. وقال بوش لإسرائيل: لا، وأنذرها.

س **هنا السؤال: هل عدم اشتراك إسرائل كان بمبادرة من أمريكا؟ أوأن المملكة طلبت ألا تتدخل إسرائيل كيلا يتهم صدام خصومه من الدول العربية بالاعتماد عليها في مواجهته؟**

= كان مفهوماً عند الأمريكان أن تدخّل إسرائيل، ولو مع القوات المتعددة الجنسيات، سيشعل حرباً في العالم العربي كله؛ ولذلك منعت إسرائيل من الاشتراك.

كانت إسرائيل تعلم أن أمريكا لا تستطيع الدخول في حرب إلا بإذن الكونجرس، وبما أن الكونجرس بيد اليهود، وبناء على الاتفاقية الإستراتيجية بين إسرائيل وأمريكا أن تكون إسرائيل رأس حربة في المبادَرة، وانظر إلى كلمة المبادرة المقصودة هنا، كانت إسرائيل متأمّلة أنها هي التي تُحدِث الحادث، وتكون هي المبادرة، وبخاصة أن العرب محتاجون إليها، فهي إذاً يمكن أن تحتل بغداد، وتضرب هنا وهناك. ولكن أمريكا رأت أن العدوان على الكويت، وأن التحشيدات على السعودية، وأن الموقف خطير ويحتاج إلى تدخّلها هي بالذات.

لم يعد الموقف ضد العراق فحسب، فعندما تشترك إسرائيل سيضعف خصوم صدام. والقضية خطيرة وليست هناك وقت للمذاكرة أو التردد، والأمريكان يعرفون الرأي العام العربي؛ ولذلك حذّر بوش إسرائيل من التدخل في الحرب، حتى بعد أن ضربها صدام بصاروخ حذّرها الأمريكان من التدخل أو الردّ عليه.

ولما بدأت الجيوش تأتي، وكان العدوان قد حصل، كنتُ في ستراسبورغ في المجلس الأوروبي، فهتف لي الدكتور عبدالله التركي، وأبلغني طلب الملك فهد بالدعوة إلى عقد اجتماع للمؤتمر الإسلامي بوصفي رئيس المجلس التنفيذي

للمؤتمر. وكان يوم الأحد، وقد أعلن صدام دعوته للمؤتمر الاسلامي لينعقد في بغداد يوم الأربعاء، ودعا إليه أشخاصاً آخرين من غير أعضاء المؤتمر، وكان علينا أن ندعو المؤتمر كما أراد الملك فهد إلى انعقاده في مكة المكرمة يوم الأربعاء. فقلت لعبدالله التركي ليس هناك وقت، ولن أستطيع الوصول إليكم وتوجيه الدعوة قبل يوم الأربعاء، وليس عندي جهاز فبادروا إلى الدعوة باسمي، وأنا سأبذل جهدي للعودة إليكم قبل الأربعاء. وكنت في ستراسبورغ يوم الأحد، فسافرت يوم الإثنين ووصلت الثلاثاء، والتقيت بعدالله التركي وعبدالله نصيف في الليل، وفي صباح الأربعاء عقدنا المؤتمر الشعبي الاسلامي في مكة، ووجهنا إلى صدام خطاباً نقول فيه: إنك دعوت إلى مؤتمر أعضاؤه كلهم موجودون هنا في مكة المكرمة، وهذا يعني أنك دعوت أشخاصاً ليسوا أعضاء في المؤتمر، ونحن أصحاب الحق بالدعوة للمؤتمر، فأنا رئيس المجلس التنفيذي للمؤتمر، والمشير سوار الذهب هو الرئيس العام. وقد وُجهت الدعوة باسمي ثم أخذنا موافقة الرئيس العام أيضاً. وألقيت كلمتي الأولى بحضور المشير سوار الذهب، وذكرت فيها ميثاق المدينة الذي بيّن أن لليهود دينهم ولنا ديننا، ولهم المناصرة.. وذكرت قول الرسول ﷺ في حلف الفضول: «**دعيت إلى حلف في الجاهلية لودعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت**»، لأنه تضمن نصرةالمظلوم على الظالم. ولسنا مع من يقول إن الاستعانة بالأجنبي جائزة للضرورة، بل هي للمناصرة؛ لهم المناصرة وعليهم المناصرة لدفع الظلم. فإذا ما اعتدى مسلم علينا وظلمنا جار لنا أن نرد عليه ونستعين بأجنبي لرد العدوان ودفع الظلم.

س **الاعتراض هنا يأتي من أنه لا يجوز أن نستعين بمشرك على مسلم.**

= هذه الاستعانة بمشرك لها قصة. وهي أن أحد الأعراب من المشركين جاء إلى

جيش المسلمين يريد أن ينضم إليه ليكون له حصة في الغنيمة، فقال له الرسول ﷺ: «نحن لا نستعين بمشرك». أما هنا فالاستعانة بمشرك لدفع الظلم. والفرق واضح بين هذا وذاك. هنا نحن عاجزون وبحاجة إلى الاستعانة لدفع الظلم. ثم إن الاستعانة بالنصارى لدفع الظلم لا يعني أننا اتخذناهم أولياء كما جاء في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾. وهذاما ناقشت فيه أخانا علي الطنطاوي، فقد عدّ الاستعانة بالأجانب ولاية. ولذلك كلفوه أن يقول شيئاً في هذه القضية فلم يقبل واعتذر. قلت له أتمم الآية التي بعدها: ﴿**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾ فمن الذين يسارعون فيهم؟ المنافقون. المنافقون يسارعون في اليهود والنصارى. يوالونهم ويخبرونهم بأسرار المسلمين.

فهذه الموالاة قد تؤدي إلى التجسس والخيانة، أما الاستعانة بالأجنبي للدفاع عن الوجود فهي غير تلك. ولما أوردت حجتي لرئيس كلية الدعوة في الأزهر قال: كل ما ذكرت ليس معناه أن نستعين بمشرك على مسلم. وعندئذ قمت وناديت: أيها الأزهر، يا مفتي إذا كنت مسلماً وجاء من يهددني من المسلمين ليذبحني، وأنا عاجز عن الدفاع عن نفسي، وجاء كافر لينقذني، أأرفض مبادرة الكافر لإنقاذي، وأدع الظالم يقضي عليّ؟ فقام عندئذ شيخ الأزهر والمفتي، وهاجموا رئيس كلية الدعوة، وكان الشيخ عبدالعزيز بن باز قال: يجوز الاستعانة بالأجنبي للضرورة، فقلت: ليس للضرورة، وإنما لرد الظلم الذي جاء في حلف الفضول، وفيه قول الرسول ﷺ: «**لو دُعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت**». ولقد أرادت إسرائيل أن تدخل الحرب، ولو بوصفها من الدول

متعددة الجنسيات، فمُنِعت، وكانت تريد حل المشكلة على يدها، ويقال في العالم العربي: ما أنقذهم إلا إسرائيل.

ولقد رأيت في كتاب «الإستراتيجية العسكرية الإستراتيجية لعام ٢٠٠٠ في الشرق الأوسط» أن اتفاقية المبادرة لإسرائيل مؤكدة، ولكن الظروف كما رأينا حالت دون قيامها بهذه المبادرة.

س **ما هو هذا الكتاب؟**

= هذا الكتاب دراسة في مصر مكوّن من ٦٠٠ صفحة، يحتوي على نصوص ووثائق معزوة لمصادرها. وكلها تؤكد أن إسرائيل كانت ضمن المخطط في حرب الكويت، ومسموح لها أن تضرب العراق، وهي مهيّأة لهذه المهمة، في حين لا توجد دولة أخرى مهيأة، وإسرائيل لديها طائرات متطورة، وغيرها من الأسلحة، وكل ما في الجو يوحي بأن لابد من تقدّم إسرائيل لحل المشكلة، ولكن في النهاية أصيبت بخيبة أمل ومُنِعت للأسباب المتقدمة آنفاً.

٥٣- دور إسرائيل في الحرب بين العراق وإيران

س **هل هناك تعليق على حرب العراق وإيران؟**

= الحرب بين العراق وإيران دخلت فيها أيد إسرائيلية يهودية؛ ذلك أن العلاقات والصداقات والتعاون، كل ذلك كان موجوداً بين الشاه وإسرائيل.

ولما جاء الخميني دعمته إسرائيل، والدليل على ذلك أنه لم يسمح إلا بتأسيس حزبين: الحزب الإسلامي والحزب الشيوعي، مع أن الحزب الشيوعي حلّه الشاه، وكان رئيس حزب توده في إسرائيل، واتفقت إسرائيل مع الحزب الشيوعي الموجود في إسرائيل على التفاهم مع الخميني لحل الجيش الإيراني

الواقف في وجه الثورة الإسلامية وفي وجه الشيوعيين. والدليل على ذلك سماح الخميني للحزب الشيوعي بالعمل في إيران وهذا كله يرضي السوفييت.

كان الاتفاق على التعايش السلمي بين الاتحاد السوفييتي ونيكسون عام ٦٩-٧٠ مقابل شروط، اشترطت أمريكا أن يخرج السوفييت من مصر، واشترط السوفييت أن تخرج أمريكا من فيتنام، كما اشترطوا حلّ الجيش الإيراني الذي كان متوقعاً أن يكون أكبر جيش في المنطقة، وهو الذي يتحمل المبادرة والصدمة الأولى إذا وقعت حرب، وإلى أن تصل الجيوش الأمريكية يكون الجيش الإيراني قد وصل إلى البحر، فتركيا وإيران وباكستان، تشكّل الجبهة الأولى التي تتحمّل الضربة الأولى، وكان الجيش الأكثر تجهيزاً هو الجيش الإيراني، ومن مصلحة إسرائيل حلّ هذا الجيش. ولقد طلب الأمريكان من الشاه حلّه فأبى.

وكانت الأسلحة تأتي إلى إيران من إسرائيل لمواجهة العراق، وهي أسلحة تأتي من مستودعات أمريكا في إسرائيل التابعة للحلف الأطلسي. فلما أخذت إيران أمريكيين رهائن صدر قرار أمريكي بعدم تسليح إيران، ونصح الخميني بني صدر وكان رئيساً لجمهورية إيران بعدم الاعتماد على هذا المصدر للتسليح من إسرائيل، وقد كتبتُ في ذلك الحين مقالة هاجمتُ فيها ريغان، ذكرتُ فيها أن الأمريكان رهائن عند إيران، ومع ذلك تسلّحونها نكاية في العراق! وقد صدر بعد ذلك قرار في الكونجرس بوقف تسليح إيران، بعد أن انكشفت اللعبة.

وهكذا تتدخل إسرائيل، وتلعب لعبتها، وتعرف كيف توظف الأحداث والدول لمصلحتها. حتى إن ريغان كاد يطير في ذلك الحين بعد أن انكشف سرّ تسليحه لإيران عن طريق إسرائيل.

وفيما يلي عرض سريع لما كتبتُه في ذلك الحين: بعد أن أنهيت كلمتي الأولى حول فضيحة إيران غيت والفكر الديني اليهودي التي تكرمت بنشرها جريدة الشرق الأوسط في سنة ١٩٨٧، كنت أرى أنه قد يكون من المفيد لو أتبعتها بكلمة، فيها رسالتان مستعجلتان للرئيس ريغان من التلمود، وذلك بنقل النصوص القانونية الدينية التي لدى كل اليهود... إلخ. غير أنني ما كدت أنهي كلمتي السابقة حول تضليل الفكر الديني المسيحي الذي حمل الرئيس ريغان على الانحياز لإسرائيل بكل سهولة وبساطة ومن غير حذر، وعلى وضع سلطاته جمعها في خدمة إسرائيل، وتنفيذ مخططاتها الإجرامية في الشرق الأوسط، حتى طلعت علينا الصحف في الصباح، تنقل إلينا عن صحيفة الصنداي تلغراف أن التهمة الموجهة لشولتز وزير الخارجية الأمريكية، هي ولاؤه في أداء لعبة السياسة الخارجية وفقاً لقوانين موروثة، وأن من بين هذه القوانين سياسة سلمت دون تدقيق، وكأنها منهاج سياسة، بوجوب الالتزام بعلاقات شرق أوسطية دوماً إلى جانب الحكومة الإسرائيلية؛ ولذلك يقول ريغان: كدت أصاب بالجنون لما انكشف السرّ.

لقد كانت إسرائيل تلعب دورها في الحرب العراقية الإيرانية، ولعبت دورها في الحرب العراقية الكويتية. ومشكلاتنا في الشرق الأوسط منذ وجود إسرائيل تنبع من اقتناعها بأنه ليس للعرب مكان في بلادهم. هم يعملون ونحن نائمون. نحن لا نزال نبحث في أمر تدبير ثلاثين ألف جندي للخليج تكون قوة ردع له، ولدى إسرائيل أربعة ملايين جندي مجهّز في حالة الحرب وفي حالة السلم، كل واحد في إسرائيل عنده بندقيته، يستطيع أن يلتحق بالجيش، بحيث يكون هناك مليون جندي مدرب، يعرف كل واحد قطعته، وأين يجب أن يكون

موجوداً، ففي ساعات تستطيع تجهيز مليون جندي. أما نحن فلا نزال نفكر بإعداد ثلاثين ألف جندي. فماذا يعمل ثلاثون ألفاً أمام مليون؟ وثلاثون ألفاً دون صواريخ، دون طائرات متطورة! وفي الأمس عندما وقّعوا اتفاقيات المبادئ في ١٣ أيلول في واشنطن وفي النهار نفسه يقول كلينتون: إن أمن الشرق الأوسط من أمننا، وأعطى لإسرائيل ٢٧ طائرة متطورة، لا يمتلكها الحلف الأطلسي. إذاً أمن إسرائيل هو جزء من أمن أمريكا، وليس أمن الشرق الأوسط كله. فالتلاعب السري والسيطرة والالتزام بأمن إسرائيل واضح جداً. وآخر اتفاقية إستراتيجية لريغان تنص على أن جميع ما عقدنا من اتفاقيات لصالح إسرائيل لا يمكن تغييرها ولا تبديلها لدى كل الحكومات التي تأتي فيما بعد، بل كل حكومة تأتي يجب أن تصدق عليها كلها. فاليهود متى تدخلوا في أمر حاولوا استغلال الظروف دون معرفة أحد. يقول ريغان: ما رأيت في حياتي سمك القرش مجتمعاً حول حي مثل ما اجتمع في الهجوم الذي صار حولي في إيران في سنة ١٩٧٠ لما انكشف تسليحنا لإسرائيل، حتى أصبحت أسمع صوتي من حلقي بمرارة لما انكشف سر ووترغيت. فاليهود دائماً يتطلّعون إلى حكم العالم، يقول رئيس المؤتمر اليهودي العالمي مناحيم غولدمان في محاضرة له في مونتريال ألقيت عام ١٩٤٧: «لم يختر اليهود فلسطين لمعناها التوراتي بالنسبة لهم، ولكنهم اختاروها، لأن فلسطين تشكل مركزاً عسكرياً إستراتيجياً للسيطرة على العالم». فمشكلاتنا اليوم كلها من لبنان إلى العراق إلى إيران إلى الكويت، وراءها اليهود.

س ما رأيكم في أن إسرائيل هي التي عملت على الإيقاع بين الخميني وصدام؟

= في أثناء الحرب سنة ١٩٨٢ كنت عائداً من مؤتمر في الشرق الأقصى سمعت

بيغن رئيس وزراء إسرائيل يقول: لا أريق دمعاً على الدماء التي تراق بين الإيرانيين وصدام؛ لأن العرب ما داموا يتقاتلون بينهم، أو بينهم وبين غيرهم من المسلمين فلا يمكن أن يشنوا حرباً علينا. إذاً من مصلحة إسرائيل أن تقوم هذه الحرب. لذلك شجعت الخميني على الحرب ضد صدام، وأعطوه أسلحة، وبذلك دخل صدام الحرب، وشُغل العرب جميعاً عن إسرائيل، وهذا ما تريده إسرائيل، وما قاله ريغان.



الفهرس

الموضـوع	الصفحة
المقـدمـة	٥
ترجمة موجزة عن حياة دولة الدكتور الدواليبي	٧
المذكرات: القسم الأول: المرحلة السورية	
١- أسرة الدكتور الدواليبي نشأته في حلب	١٣
٢- الدكتور الدواليبي والكتلة الوطنية	١٤
٣- قصة الوفد السوري إلى باريس	٢٧
٤- مرحلة الابتعاث إلى باريس	٣٢
٥- الدواليبي يكشف دور فوزي القاوقجي	٥٦
٦- الرحلة الثانية إلى ألمانيا	٦٨
٧- مغامرة الهرب من ألمانيا	٧١
٨- الدواليبي يهرّب مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني من فرنسا	٧٦
٩- الدواليبي يقنع ديغول باستقلال سورية ولبنان	٨٣
١٠- عودة إلى تهريب الحاج أمين الحسيني	٨٨
١١- العودة إلى الوطن	١٠٠
١٢- الاختلاف مع الكتلة الوطنية ومقدمات إنشاء حزب الشعب	١٠٨
١٣- خدعة الماسونية	١١٥
١٤- مظاهرة العمائم البيض	١١٦
١٥- هاشم الأتاسي ورجالات سورية	١١٨
١٦- سعدالله الجابري	١٢٣
١٧- مرحلة الاستقلال	١٢٦

الموضــوع الصفحة

١٨- إنشـاء حـزب الشـعب ١٢٨
١٩- انقـلاب حسـني الزعيم ١٢٩
٢٠- انقلاب سامي الحناوي ١٣٣
٢١- انقلاب أديب الشيشكلي ١٣٥
٢٢- قضية الأسلحة السوفيتية ١٤٢
٢٣- أزمة مع الجيش ١٤٦
٢٤- مشروع معاهدة الدفاع المشترك ١٤٨
٢٥- عودة إلى اعتقال الشيشكلي للوزراء ١٥٠
٢٦- محاولة الاغتيال ١٥٢
٢٧- ذكريات وزارة الدفاع ١٥٤
٢٨- في رئاسة الوزارة ١٥٦
٢٩- حكومة بشير العظمة ١٧٠
٣٠- رأي في الانقلابات ١٧٣
٣١- عودة إلى انقلاب حسني الزعيم ١٧٦
٣٢- حليف السجون ١٧٨
٣٣- الوحدة بين مصر وسورية ١٨٠
٣٤- حكومات بعد الانفصال ١٨٥
٣٥- أوليات التسلح في الشرق الأوسط ١٨٧

القسم الثاني: المرحلة السعودية

٣٦- الخروج إلى المملكة العربية السعودية ١٩٣
٣٧- مع الملك فيصل ١٩٨
٣٨- الملك فيصل وديغول ٢٠١
٣٩- مع سماحة المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم ٢٠٦
٤٠- عودة إلى الملك فيصل ٢٠٩

الموضـوع	الصفحة
٤١- مع الملك خالد	٢١٦
٤٢- مع خادم الحرمين الملك فهد	٢١٦
٤٣- عودة إلى الحاج أمين الحسيني	٢٢٠
٤٤- القضية الأفغانية	٢٢١
٤٥- زيارة الصين	٢٢٨
٤٦- مؤتمرات المخابرات الدولية	٢٢٩
٤٧- الصراع على البترول وحرب الخليج	٢٣٠
٤٨- الهجمة العالمية على الإسلام	٢٣٤
٤٩- اقتراح لرد الهجمة العالمية على الإسلام	٢٣٧
٥٠- دور الإسلام في نقل الإنسانية إلى عالمية متعارفة	٢٤٣
٥١- الإسلام والإنسانية وحقوق الإنسان	٢٤٥
٥٢- عودة إلى أزمة الخليج (خلفية الأزمة)	٢٤٨
٥٣- دور إسرائيل في الحرب بين العراق وإيران	٢٥٥

